

الرجُلُ الزَّمْر

دشداش

تأليف

الشيخ مصطفى الغلايبي



منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت

١٣٨٠ - ١٩٦١

لِرَجُلِ الْزَّهْر

كتاب أهربي اجتماعي العربي

تأليف

الشيخ عصطفى العلاجى

أستاذ اللغة العربية في المكتب السلطاني والكلية العمانية

في بيروت

وهو بعض ما كتبه من المقالات في الموضوعات المتعددة والأغراض السجية
والدار المدنية، وقدمه لابنته الآلة، ليكون لهم خير سير وانس جليس

مطبوعات المكتبة الخضراء
صيدا - بيروت

١٩٦١-١٣٨٠ م

أهداء الكتاب

جرت عادة السلف ، كما درج على ذلك الخلف ، أن يقدم المؤلف كتابه إلى رجل من رجال الأمة الذين توفرت فيهم الملوكات الفاضلة ، ونالوا نصيباً غير قليل من المصاعب في سبيل الخدمة العامة . وقد فكرت فيما أهدى إليه كتابي هذا ، فكان أول من مر بخاطري وأوسطه وآخره شيخي واستاذي عالم الشرق وفيلسوفه ، وانسان ناظره ، الأستاذ الإمام « الشیخ محمد عبد » مفتی الديار المصرية رضي الله عنه ، فالي روحه الظاهرة البارة أهدى هذا الكتاب اعترافاً بفضله علي وعلى الأمة جماء .

العنوان :
العنوان : غرة ذي الحجة ١٩٢٩
العنوان : المقو بالجمل
العنوان : العادي

سَقَدَةَ مَهْمَةٍ

فِي صَرَاصِيرِ الْمُؤْلِفِ الْإِسْلَامِ السَّبِيعِ كُجُبِ الْمَدِينَ الْخَيَاطِ

الْمَدِينَ وَكُفَى ، وَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ الصَّطَنِيِّ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَاحِبِهِ وَمَنْ اصْطَفَى
حُبُّ الظَّاهُورِ وَالْبَشَرِ

وَبَعْدَ فَقَدْ فُطِرَ الْبَشَرُ مِنْذَ عِرْفِ الظَّاهُورِ ؛ نَعَمْ لَوْلَا حُبُّ الظَّاهُورِ
لَا ظَاهَرَ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ فَضْلَيْهِ ؛ وَلَا بَدَتْ مَأْثَةً ، وَلَا أُثْرَ مَنْقَبَةً ، بَلْ لَوْلَا
حُبُّ الظَّاهُورِ لَمَا ظَاهَرَ الْأَمْمَ ، وَلَا تَكُونَتْ اِمَاءَتَ ، وَلَا تَأْلَفَتْ الْمَالِكَ ، وَلَا
أَنْظَمَ شَمَلَ الْإِجْمَاعَ ، بَلْ وَلَا ظَاهَرَ اِخْتِرَاعَ ، وَلَا حَمَلَ يَرَاعَ ، وَلَا أَنْسَ سَفَرَ ، وَلَا
جَالَ أَثْرِيَ فِي قَفْرَ

حُبُّ الظَّاهُورِ وَكُلُّ ذِي رُوحٍ

حُبُّ الظَّاهُورِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى جِنْسِ الْبَشَرِ بَلْ هُوَ غَرِيبَةٌ فِي كُلِّ ذِي رُوحٍ . فَالْجَلِيلُ
فِي خِيلَانِهَا وَهَبْوَانِهَا ، وَالْآسَادُ فِي زَوْوَانِهَا وَلَهْوَانِهَا ، بَلْ النَّمُورُ فِي نَزْوَانِهَا ،
وَالذِئَابُ فِي غَزْوَانِهَا ، وَالْهَبَّاجُ فِي سَبْحَانِهَا ، وَالْغَلَانُ فِي شَبْحَانِهَا ، بَلْ كُلُّ مَاهِرٍ
وَأَنْسٍ يَجْاوِلُ أَنْ يَظْهُرَ بِأَدْعَمِ مَظْهَرٍ .

الْطَّيْبُورُ مَعَ أَمْرَاهَا ، وَالْدَّوَاجُونُ مَعَ أَخْرَاهَا ، الْهَمَامُ مَعَ إِلَفَهَا ، وَالْيَامُ مَعَ
حِيلَفَهَا ، وَالنَّعَامُ مَعَ صَنُوهَا ، وَالْفَرَابُ مَعَ قَنُوهَا ، بَلْ سَائِرُ مَسَاطِرِ دُرُجَاتِ كَاهَاتِهَا
تَقْسِيقٌ عَلَى الظَّاهُورِ حِينَ الْعَلَيْرِ ، وَسِينَ السِّيرِ .

الْتَّجَلُ فِي خَلِيَّتِهِ ، وَالنَّمُلُ فِي سَرِيَّتِهِ ، بَلْ سَائِرُ مَا هُبَّ وَدَبَّ ، وَهَامَ وَعَامَ ،
يَجْاوِلُ أَنْ يَطْوُلَ السَّمَاكَ ، وَيَطْلَوُ الْأَفْلَاكَ ، دُونَ أَنْ يَبْلِي بِالْمَلَكَ ، فَالنَّجْلُ
يَحْرِبُ الْأَحْزَابَ ، وَيَتَخَذُ الْيَعَاسِبَ ، وَقَدْ يَأْجُمُ بِهِمْشِهِ الْأَنْسَانَ ، وَالْمَسْبِلُ مِنْ

العالية ، والمظاهر السامية ، واصبح كل انسان أمة بنفسه ، ومن ثم يرتفع النوع البشري الارقاء الذي يحتمل به الفلاسفة ، ويطمح اليه الاخلاقيون وترمي اليه الشراعن .

ولكن هيهات فإن طبيعة النوع أيضاً تناهياً من الشق الثاني أو من وراء تلك المحب الكثيفة ، أن ذلك الارتفاع الموهوم يتطلب مستقبلاً بعيداً جداً إذا ظل الارتفاع الإنساني مطرداً على ما زواه ولم يحيط هذا الكوكب الأرضي جائحة سماوية أو يصدمه مذنب هالي فجعله كالمهاجرة درو النكبات.

يتفاوت حب الظهور في الأئم والآباء ويتناول الغرائز والفطر، فأكثر الأئم آثاراً وأعمالاً هي أكثرهم جبأً في الظهور ، وأحرصهم على السيادة ، وأكثر الآباء خدمة وأعمالاً هو أكثرهم حرصاً على إظهار نفسه وتسويده بينبني جنسه . وعلى هذه النسبة كان أعرق الأئم جبأً في الظهور من لم تول لابنائها حقاليوم آثار مدینة باقية ، واسبق الجميع إلى هذه الآثار هي السابقة في هذه الورعية العالية .

يقول المؤرخون الآتزيون في هذا العصر : ان اسبق الامم الى المدنية وتدوين الآثار من شرائع وأنظمة وقوانين وبناء مدارس ومعاهد ، هم عمالقة العراق العرب او ما يسمىهم العصريون « الآخوراين » الذين حكموا على الدولة البابلية العراقية قبل ميلاد عيسى عليه السلام بزهاء النبي وخمس مئة سنة تقريباً كما ظهر مؤخرأ في آثار بابل وآشور .

فالعرب إذاً سبّق الأمم إلى الظهور ، ولكن لم تذر ما طرأ علينا نحن أخلاق أولئك الأسلاف حتى أسللت علينا الحجب ، وارختت السستور ، وأصبحنا مثلاً في المَحْوَلِ مُنْدَعَّسِوْرَ ، ولعل دعاعنا القوية اختلاط بدماء الاختلاط والآوشاب من شُذوذ الأمم وفُرُادَ الآفاق فأصبحنا على ما توي اليوم ، ألسن عربية ، في إشلاء رومية ، وأدمعة فارسية ، واطهار افرنجية ، ونحن مع ذلك نزعزع العراقة في العربية ، وهي وذمة العرب لم تبرح باطح الحاجز وإبارق تهامة ، بل لم تبارج مشارف الشام والخواص العراق ، وأغوار اليمن .

من يصدق « وكل امة تدعي السابقة الى المدينة » ان الاثنين اكتشفوا مدن اعوام في « زيارا » مدرسة عربية لتعليم الأطفال وهي اقدم مدرسة في تاريخ

يُجذبه في المجموع هو أكثرهم حبًا في الظهور ومن ثم يتأوّل مقاماً محموداً في أمته فيقدم أمام الصف ، يوم الزحف ، وحين الحتف ، وهو بين هنا وذاك يجد لذة لا تكفيه بكيف ، ولا توصف بوصف ، أما النيل وهو الضعيف فقد يدفعه حب الظهور إلى السمو بمناجيه إلى الجو غير مبال بالوابل هازناً بقول من قال :

إذا ما أراد الله إهلاك خلة سمت بمناجيها إلى الجو تصعد

وقد يحمل أضعافه على قارعة الطريق تحت الحاطم والباطم ، غير مبالٍ
بتتحطم سليمان ، ولا تلطيم سامان .

حب الظهو و المدحفات

هذه الموهبة النظرية في كل ذي روح هي سائفة العلاء ، وداعية الارتقاء ، وهي أنس الاساس لعمان هذا الكون لأنها رائد الفضائل ودليل الجيد ، ولو لاها لما وصلت المدينة المادية الى حالتها الحالية ، فإن الامم كلا فراد فكما ان الفرد يحاول الظهور بين أقرانه بما يراه حسناً في نظر الآخرين فكذلك الامم تحاول أن تظهر على غيرها بما تراه حسناً في نظر الجماهير .

نحب الظہور هو الی مددت به المدن ، و مصیرت الامصار ، وأنشئت المعاهد
والمشاهد ، و بنيت الآثار والحوالد ، وما مدهشات الاهرام ، ومعجزات بعلبك ،
وبدائع الزهراء اثفاء ، و عجائب أنس الوجود ، وغرائب تمر ، وطرائف بابل ،
وطلاقف سامر إلا آثر من آثار حب الظہور .

الراقة والانسانية الظاهر

مها حاولت الانسانية الواقعية أن تثيراً من هذه الفرقة الطبيعية ومها حاول زعماؤها وقادتها باظهار انهم يخدمون في زعامتهم وقيادتهم او بعبارة اخر «في ظلورهم وتقويمهم على غيرهم» الانسانية المحبة فلائقه بليل ولا يقدرون أن يحاولوا في كونهم بخدمتهم التي سادوا بها وظهروا وقد خدموا انفسهم قبل ان يتمكنوا غيرهم .

نعم أن هذه الحلة هي خلية شريفة حضرت عليها الشرائع الالهية والوضعية ومن سعادت وحاول كل انسان ان يخدم نفسه خدمة يسود بها ويظهر سعادت الواهاب

التمدن القديم يرتقي تاريجها إلى أربعة آلاف سنة وقد رأوا بين انقضاضها الواحد من الأجر مكتوبًا عليها دروس للأطفال في الحساب والمجاهد وجدائل الشرب. ورأوا من الكثيرون من الكتب والوسائل المنشورة على الأبحاث والأجر والآباء وفيها الصكوك والعقود والمسائع الرياضية والأحداث الفلكية والخصوص التاريحة وأمثالها^(١) ثم يجد الأمة العربية في القرن العشرين قرن المدارس والجامعات ومع ذلك كلها مدرسة يصح أن يطلق عليها نصف مدرسة أمم الكليات والجامعات ومع ذلك تفاخر ونكاشر ، ذاهلين عن قول الشاعر :

وَمَا النَّخْرُ بِالْعَظَمِ الرَّوْمِ وَلَا فَخَارُ الَّذِي يَبْنِي النَّخَارَ بِنَفْسِهِ

من يصدق وكل الأمم أ��اء واقران ، في مقومات العمران ، أن العرب الذين نسمتهم جاهليين هم أرقى من العرب المدنيين الآن وإليك بعض البيان : يعلم الجميع على فلسفة اللغات وكيفية وضعها أن اللغة عنوان الأمم ، أو لغة حاليها ، فاللغة التي تكثر فيها اسهام السيف أو الرمح أو الجبل أو الأسد مثلاً يكون أهلها بالطبع عازوا هذه الاسميات كثيراً وشاهدوها وعاشوا معها وتفننوا في إسماها على حسب أوصافها ، واللافاظ لا تتولد بـ سابق الحاجة والقطارة إلا للتعبير عن المعاني كما هو معروف بداهة .

إذاً فالأمة التي تكثر فيها اللافاظ الاجتماعية والسياسية والعنانية والأخلاقية تكون بالطبع عازت الاجتماع والسياسة والعنان والأخلاق ، كما أن الأمة التي تكثر فيها اسماء الملابس والمآل مثلاً تكون لبست تلك الملابس وكانت تلك الأكل وهكذا .

فاللغة العربية الموجودة فيها منذ أيام جاهليتها كثير من اللافاظ لضرور الاجتاع والجماعات على اختلاف الفئات والاجماعات مما لم يقدر العرب التمدنون على زيادة لفظ واحد عليهما من عندهم وذلك كفط الشعب ، والجنة ، والجنة ، والقبيلة ، والفصيلة والوهط ، والعشيرة والزراقة ، والسرب والكركبة ، والقوم ، والنفر ، والشريدة ، والعصابة ، وال موجود فيها لاماكن الاجتماع كالنادي والمنتدى

(١) راجع المقدم ولطائف اللغة

(٢) تاريخ أدب اللغة العربية

صاحب هذا المجموع

الشيخ مصطفى الغلايني صاحب هذا المجموع توسمت فيه التبوغ منذ أول يوم درس فيه قواعد العربية فإنه استقرت بها حفظاً وفهمها في مدة شهرين مما ينذر مثله بين الدارسين وكان ينظم الشعر بساقه السليقة وهو يافع لم يبلغ أشد . وقد توسمت فيه التفوه في الخطابة منذ ذلك الحين أيضاً نظراً لذلاعة لسانه ، ورشاقة بيانه ، ثم ظل يتدرج في مدارج النبوة بنفس عصامية وهمة استقلالية إلى أن ظهر كل ما توسمت ، ووقع كل ما تقوست .

وأول موقف وقف فيه جاهراً بالحق وفته يوم كتبت منه أثني عشر عاماً مقالتي «الشريعة الإسلامية، ومطابقتها لآقوال البشرية» في جريدة «تراث الفتوح» وقام إدراة الحق عليها فإنه أنشأ في ذلك الحين مقالة قابل فيها بين اقواله وأقوال القائين وأورده البراهين على صحة قوله وفساد اقوال القائين ولكن المقالة لم تنشر وهي أول عمله بالانشاء .

وال موقف الثاني وفته في مصر وبمحاضرته على صفحات الاهرام ينساد طرق التعليم في الأزهر مع كثرة المعارضين والقاومين

وال موقف الثالث وفته بعد إعلان الدستور وبمحاضرته بنصرته بجزء نادر ما هو معلوم ومشهور ، وهو لم يزل حتى اليوم يجاهر بما يعتقده حقاً وصدقـاً .

ومما يؤخذ عليه في بعض الأحيان المقدمة في براعته ، والتزقق في خطاباته ، وآخر وصف اتصف به الشيخ مصطفى هو الجرأة في القول والأخلاق في العمل ، وهو عندي كل غاية الحياة .

م الموضوعات لهذا المجموع

على ان هذا المجموع هو احسن مثال حسي ينطق بحالة صاحبه الروحية فإنه طرق باب التربية النظرية في مقالة «إيجاز الانسان» كطرق التربية العملية في مقالة «التربية أساس النجاح» فجمع بين التربتين وفاز بالحسنين . وقد انتقد الأخلاق والعادات في مقالة «العادات» وبين كيف تكون الحياة سعيدة في مقالة «سعادة الحياة» وفضل كيان هذه السعادة في مقالة «الثورة الادبية او ثورة المباديء والأخلاق» ولم تقتصر كتاباته على الاخلاقيات بل اصحابها رشاش من السياسيات

وقوله في المقالة نفسه :

«القوانيين لا يجعل الناس أحجاراً منها كانت فاصلة ، غير ان الناس قد اعتادوا أن يعتقدوا ان خيرهم ونجاتهم مسببان عن الأنظمة التي تحكم بها بلادهم، وهم مخطئون في هذا الاعتقاد خطأً بينا لا يغفر . إذ آية فائدة من القوانين إن لم تكن نفوس الشعب مستعدة لما تحويه من الأصول والمواد ، بل أي نوع من النظمات إذا لم يوجد لها حاكم أمين ينفذها بكل صدق واستقامة ، فالقوانين لا يجعل الحال ذكياً

في مقالة « مجلس الأمة » و « قحط رجال أم قحط وجدان » وغيرهما وكأنني به يحاول ان يدخل في غبار كل بحث ويطرق كل باب . ومن أحسن قوله في مقالة الاستقلال الشخصي والاعتقاد على النفس هذه، اجمل : « ان الحكومة هي تابعة للأمم رقياً والمخططاً فتى كانت الأمة من محطة المحطة حكومتها بحكم القسر ، وهي كانت الأمة راقية ترقت بمعها بحكم الضرورة ؛ لأن الحكومة هي صورة افراد الشعب المحكم ومثله وخلاصته ، إذ هي منه ولو على كل حال فإن اتفاق ان الحكومة كانت أرقى من الأمة فلا تلبث أن تختلط وتتحقق في إليه والعكس بالعكس : « كما تكونون يولى عليكم » فإن كانت الأمة مستقيمة بيماء العدل والحرية والفضائل حكمت بحكومة لا عوج فيها ولا استبداد ولا جور ولا وذلة ، وإن كانت الأمة جاهلة فاجرة لا يريد أفرادها العدل ولا يخضون الحق ، حكمت بحكومة جاهلة فاجرة طامة مستبدة عوجاء لا تقبل الحق ، ولا تخضع للعدل ، والخلاصة ان أخلاقي الامة ان خيراً وإن شرًّا تتبع في مرآة وجدان الحكومة .

فإن أرادت الأمة أن يكون لها حكومة عادلة ودولة قوية ، فعلينا باصلاح أخلاق أفرادها وتعويذهم النضيلة والحرية الصحيحة وحب العلم وغير ذلك من الصفات والملكات العادلة . وهي تم لها ذلك وصار الشعب عادلاً عالماً متربيناً أصبحت الحكومة تابعة له رقياً وعدلاً ، وهي أضحت الحكومة كذلك انقطعت أسباب الرشوة والحكم بغير الحق . وكل هذه الأسباب المتقدمة يدعو الشعب لمساعدة الحكومة مادياً وأديباً . وهي استغفت الحكومة وكانت متزنة عن الرذائل كما قدمنا تسعى بجمع شتاتها ، وإصلاح فاسدها ، وتقوية جيوشها وأساطيلها ، حتى تصبح دولة مرهوبة السلطة ، مرعية الجانب »

ولا الكسول مجتهداً ولا فاسد الأخلاق طاهراً كاملاً، والأذنبة لا تمحو الجرائم،
ولا تزرع الناس عن التكبيرات، ولا تخونف عنهم الوليات، ولا تجدهم سباء، إلا
إذا اتىهم لها حكماء أمناء. قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: يربع الله بالسلطان
ما لا يربع بالقرآن « وما القوىين من قاتلة عملية سوى أنها تكون بثابة المرشد
لشعبه والدليل للحاكم يستعين به على اجراء العدل والحكم بالحق حتى لا يميل
ولا يخونف.

فالنظمات التي يحكمها قوم ألو نصفه وعدله ، وذو وجдан حر طاهراً تكون وسيلة لجعل الحكومتين سعاداء . وتكتسبهم من اكتساب ما يجهلهم في سعة من العيش ورغد من الحياة . وتسلب لهم احتياد ثمرة أمتعتهم وأفكارهم .

والنظامات التي يحكمها قوم ألو جنف واستبداده ، فهو وجدان خفيث ميل مع الموى ، تكون سبباً لشقاق الشعوب ووسيلةً لابسهم من الحياة الطيبة والعيشة الراسية ، مما كانت تأثر النظمات عادلة وحيدة ، ذلك لأنَّ الحكماء من هذه الطبقة يبذلون التضور على حسب رغباتهم ومشترياتهم وعلي ما يوافق هواهم ومنفعتهم الشخصية »

وقوله في مقالة *أساليب الكلام العربي*:

« طلاب الكلية البالغة كثيرون ، ولكن الواصلين إليها والضاربين فيها يهضمون قليلاً ، وما ذلك إلا من جهل الممارسة المؤدية إليها فإن كثيراً من طلابها يعتمدون على مطالعة كتاب ليس فيها من بلغ الكلام إلا التزوير ، حتى إذا ثالوا منها من لهم ، أخذدوا يتحدونا ويحيكوا على منوالها ، فتكون كتابتهم مسلطة ومعاناتهم سخيفة ... وهو لاء على ضررين : خرب يعتمد إلى أمثال كتاب القامات والرسائل التي أنشئت بعد جفاف رونق البلاغة والكتابة الصحيحة ؟ فهم مفترمون بالجهازات الساقطة والبعيدة ، والتساجييع المتكلمة الباردة ، وليس في كتابتهم معنى ينفيه ولا مغزى تتعش به الأرواح ... وضرب يعتمد إلى بعض المولفات العصرية أو المترجمة بالعربية عن كتب الأفرنج التي ليس عليها أثارة من الأسلوب العربي الصحيح ، فيحتلون بأسلوبيهم مثثلاً ، ف تكون كتابتهم ل العربية تعرف ولا افرنجية توصف لأن الألفاظ التي يركّبون منها جمامهم عربية ، غير أن أساليب التركيب افرنجي بعض . وذلك بما يقتضي على اللغة ويرجع بها إلى ما وراء .

وأعجب من ذلك أن هذا القسم من الكتاب ي بيان أن هذا الاسلوب هو الذي يجب أن يكون عليه الآباء العربي لسلوقة فيه على الفارئين . ولكنهم مخطئون في هذا كل الخطأ لأنهم ان كانوا يفهمون بالاسلوب العربي البليغ أن يكون الكلام مشحشاً بغيريب الكلمات والتراكيب السجدة المسلط ، فهو وهم باطل ، ولا يقول به الا من لم يفهم البلاغة العربية حق فهمها ، كما شرحتها في هذا المقال .

تحتى يغنى بالاسلوب العربي أن يكون الكلام بعيداً عن مناحي الجمجمة بجدراً عما يخل بالنحو واللغة وأصول البلاغة . والكلام اذا كان على هذه الصورة فهو مفهوم عند العامة وخاصة ، بل ربما كان ادعى الى الفهم من كلام كثيرون من الكتاب الذين ينحوون في أساساتهم مناحي الأفرينج »

ولا يقدح فيه انه يوجد في بعض مقالاته أفكار شاذة أو مطرفة أو آراء متعارض
اما ورد في غيرها من المقالات نان ذلك شأن الصحف البشري والافسان تقف
تيارات القلب في كل حين ، وهذا ابن مسعود من أكتوبر عالم الامة كان يقول لأحد
مربيه «كما روى عنه الشعراوي في الميزان» : لا تكتب عني كل ما أنتي به ولما
يكتب الحديث ولعل الرأي الذي أقفي به اليوم ارجع عمّه غداً » فإذا كانت التقوى
التي تبني على اصول الدين ومحاجة اطهور دليل أو ضر من الدليل الأول فأنتم

ي بالاجتهاد التكريي أن يرجع عمه صاحبها حين ظهور فبره أجيلى منه . على أن هذا الجموع لم أر فيه كثيراً من أمثال تلك المقالات المعنية وهو دليل بأنه أفادها قصداً .

أما نظمه فأكثره منشور في الصحف السيارة، ومن أحسنه قوله في قصيدة «السلم وال الحرب»:

يا بني الظمآن كم تبكون في الحرب - دماء الأفان يبعـ الماء
أحسسم أن البرايا شـاهـ لم تـكون إلا لـسلـكـ الدـماءـ
فرـميـتمـ بـهـاـ إـلـىـ حـيـثـ سـتـمـ هـوىـ فـيـ النـفـوسـ غـيرـ خـفاءـ
ما أـرـىـ هـذـهـ الجـوشـ زـنـوـقـ - الموـتـ الـاـ شـهـوةـ الـأـمـراءـ

وفـرـلهـ فـيـ قـصـيدةـ «ـالـحـربـ وـالـنـهـادـ»:

ذبح القوم في سبيل مذاهم كلّ عطف ورجمة وسياق
لم يذّهّم ما يحيطون على الأرض - مراماً فحاقوا في الساء

ومنها:

عن اففهم ظلامٍ كانت تغشّها
حتى امتنعوا من ذرٍ الجوزاء أعلاها
لولا فضائلنا الغراء لولها
كسب العالى دنت منهم مطايها
من المكارم أدناها وأصهاها
لهم غدوها وكأس الظل نسقاها
يا قوم من بعد ما لاقت منهاها
المجد والباء سلامها
لاحت له فرصة لم يرج إلاها
بلادنا فهي مبغاثها ومرماها
ان يبلغ الغرب سثاً من ثيابها
قلبٌ إذا فازله الصمُ ارداها
فتعنّن الألى ان جاش غارينا

لعنّ الألى مدتو الأقوام فانقضعت
فاصبحوا دليل النجح قدائهم
كانوا بقوا في ظلام الجهل يسترهم
بالاتحاد وبالسعى الحيث إلى
هم بالعلوم وجهد النفس قد بلغوا
عقاربينا فإذا لم تخفي أنفسنا
بالمعلم والسيف أحيوا بجدكم فيها
فالغرب يرقب منا غررةً فرق
جاست بنوه خلال الدار واقتحمت
لكن أى الله والأساد محروسها
هل يبلغ الغرب منهاً مأملها ولنا
فكالأسود رأت في مهمه شاهما

يا معاشر العرب يا أهل الخبة يا
هذى - بنو الترك وافتكم تصافحكم
فإن يمدوكم يا قوم ليس بهم
فالترك والعرب إخوان وجماعة
فمن يمد يديه كي يفرّقون
سلست يداه فعن سبل المدى تاهوا
فالاتحاد - بنى الأوطان - فهو لنا
ان اتحادكم تبعون ترقية - الأوطان يُرضي رسول الله والله
وقوله من قصيدة يذكر فيها فظائع الإيطاليين في طرابلس الغرب
ابن الشهامة أين العدل والشتم
يا للروعة من قوم زعافقة
لهم الطياع لهم بين الورى عالم
طاشت حلوهم - والبعي مرتعه
وخر - فهمت شاء المغرب الظالم

راسلوا في الجو حيث يليقون - الأعدى من فوق كأس الblade
فالناظيد سنهم في الهواء خارفات بزم خلايا الفضاء
في جري هرم إلى حيث شاؤوا في أمان ومنعة واعتلاء
درعوها خوف العددة فسارت لا تبالي قبابل الأعداء
فيبي تعدو يوم النضال عيوناً تكشف السر عن حمى البواء
لمست أدعوا تلك المناظيد إلا رائدات المنون والأرزاء

◎

يا بني الغرب حسبكم ما صنعتم قبلها من وسائل الاففاء
من ميد الأقوام من كل ما يلمس - هنا العمرات ثوب العماء
تفضي الفبراء دون مذاكم فعديتم يا قوم بالحضور
فلسلتم اسطولكم في الهواء
إن تدقوا الأغيار كأس الشقاء
إن تلك العلوم قد علمتكم
باتذلوا الضعيف ان تستعينوا
بناس من كل عيب براء
ان تقدروا رجالهم كهيبة
بسن تلك العلوم ان ارشدتكم
ما أراكم الا ذباباً ظلت
أن تلك الضياف كلة شاء
فأبخدم ذاك الحريم وأبتم ونبتم عظامها بالعراء
خفقا ويلة الشرور وعانيا ان ترورم بقلة شوساء
وارفعوا الظلم عن حمامهم وفكوا - القيد عنهم ينجوا من الغماء
وقوله في القصيدة التي قالها يوم موافاة الاسطول العثماني إلى ثفو بيروت

ساررت فما غير عن الله تعاهما
نار القلوب التي بين الجوانح قد
أجرت سفائفها والوجد آد كاما
 باسم المدين بعرض اليم ساجحة
تجري وان هي ترسو ترس رابضة
كالأسد ترقب في الفيابات أعداءها
حتى اذا بصرت بالخطب يحيزها
سر من الله خمته حشائها

- ١٤ -

نهر البلاغة

أو أساليب الكلام الوري

نقرأ كلامين مختلفين في الأسلوب ، متفقين في المعنى ، فنجدهما لاحظهما اللذ لا يجدها في الآخر ، ونشعر بروح تجلٍ فيه لا تجسّدُها في الثاني ، مع أن موضوعهما واحد ، والغاية التي يرميán إليها واحدة . وإذا أردنا أن نبحث عن سرّ الأمر ، فلا يجد له من سبب إلا شيئاً واحداً وهو اختلافها في الأسلوب ، فعلى الأسلوب مدار البلاغة . فمتي كان الأسلوب ساميّاً ، والمعنى حسناً صحيحاً ؟ فهناك الكلام البليغ .

والأسلوب ثلاثة : عال ، ووسط ، وساقل . فعل الأول والثاني مدار البلاغة وفيهما تتفاصل البلاغة . ومرجع ذلك كله إما هو إلى تحرير الكلام على ما تقتضيه الحال ، ويستدعيه المقام .

كثير من الناس يرغب أن يكون بلغاً ، ويسعى جهده ليجعل كلامه من الأسلوب العالي . ولكنهم يجهلون السبيل الموصلة إلى ما يقصدون إليه : فنهم من يظن أن بلاغة الكلام إنما هي بالاكتار من غريب الكلام و«وحشية» الآيات بالويفر من الجازات والكتابات ، خصوصاً ما كان منها بعيداً غريباً . ولو كان ما يظنون صحيحاً ، لم يبقَ من مغزى ولا فائدة من الموجوع لهم الذي عليه مدار علم المبني وهو (مقتضى الحال) ذلك الأمر الذي لا يمكن لأحد أن يكون بلغاً إلا ببراعاته .

البلاغة أن ينظر المرء إلى الموضوع الذي يريد أن يكتب أو يخطب فيه ، وإلى القوم الذين يكتب إليهم أو يخطب لهم ، ثم يعمد إلى ما تقتضيه حال السامعين والقارئين ، وحال الموضوع الذي يكتب فيه ، ويسوغ له من الكلام ما يطابق المعنى الذي يريدته ، ويتاسب حال من يقرأ كتابه ، أو يسمع خطابه . فإن راعى ذلك مع فصاحة الكلام المعروفة عند أرباب المعاني فهو الكاتب البلجي ، والخطيب

والبر محتمد والبحر مضطرب والأمن مستلب
ألا فترم ونار الغيط تحرقكم
فتقلون شيوخاً ما لها وزر
يا للنظاعة من (روما) وما صنت
لو كان فيكم بني الطليان من شرف
هلا صبرتم على خطب ألم يذكر
والجند تقتلهم والعرب تذبحكم
عار بأن تقتل الأطفال والحرام
ليس الشجاعة قتل الشيب عن أمم
ومنها :

جئت بحشكم الجرار يحوسه
فكأن مكانكم سافل «زمكم»
وعدمكم وغباء العذل المهزوم
فكلكم وهو بالختلان متخف
قركم ايش لافربان تطبعه
ما ذي الجبارة يا طليان لا رفعت
ولا مشت بكم فهو الذي قدم
لكتهم يكرهون الظلم ان ظلموا
والدين مرشدنا والحلم والشتم
فقد حاملنا على أوبياش «رومية»
يغفف فازداد عند الصبر طيشهم
وقد صبرنا كراماً على طيشهم
واننا أشد ذلك البر لو عالوا
مات الرعاة وبادت تلكم الفتن
«ومن وعي غنا في أرض مأسدة»

وبالجملة فإن هذا المجموع جديرو ما يقتنه الشهء ويطالوه ويعملوا
 بما فيه من الفوارق الشديدة فاما فيه كثي لا ينتهي .

البلينغ ، لأن الكلام إنما هو قوله المعاني . والغاية منه افهام السامع أو القارئ ما يريد المتكلم أو الكاتب من الأغراض التي تجول في نفسه وتقر بمحاطه . ففي عرف أن القصد من الكلام هو هذا وجب على الكاتب أو الخطيب أن يكون كلامه حسب الحاجة مع مراعاة حال السامعين والقارئين . فلأن الكلام على المنابح والأغراض التي حلته على الكلام أو الكتابة . ولأن كان كلامه من الفضول الذي لا يأتيه كاتب أو خطيب بلغيان .

طلاب الكتابة البلاغية كثيرون ، ولكن الواصلين إليها والضاربين فيها بسم قليون . وما ذلك إلا من جهل الطريقة المؤدية إليها ، فإن كثيراً من طلابها يعمدون إلى مطالعة كتب ليس فيها من بلينغ الكلام إلا الفرز اليسير ، حتى إذا نالوا منها متلهم ، أخذوا يتهدى ونها ويحيكون على منوالها ، فتكون كتابتهم مسلطة ومعانיהם سخيفة — وهؤلاء على ضربين : ضرب يعتمد إلى أمثل كتب الاقرارات والوسائل التي أنشئت بعد جفاف رونق الملاحة والكتابة الصحيحة ، فهم مغمون بالهزازات الساقطة والمعدنة ، والتساجي المحكمة الباردة ، وليس في كتابتهم معنى يتيه ولا مغزى تعيش به الأرواح . وضرب يعتمد إلى بعض المؤلفات المصورية أو المترجمة بالعربية عن كتب الأفرنج ، التي ليس عليها أثار من الأسلوب العربي الصحيح ، فيجهلون بأسلوبهم منها جلهم عربية ، غير أن أسلوب التركيب أفرنجي محض . وذلك مما يقضى على اللغة العربية ويرجع بها إلى ما وراء .

وأعجب من هذا أن هذا القسم من الكتاب يظن أن هذا الأسلوب هو الذي يجب أن يكون عليه الإنشاء العربي لسهولة فهمه على القارئين . ولكنهم خطئون في هذا كل الخطأ لأنهم إن كانوا يفهمون بالأسلوب العربي البلينغ أن يكون الكلام محسوباً بغريب الكلام والتراكيب السمجحة المعلضة ، فهو وهم باطل ، ولا يقول به إلا من لم يفهم الملاحة العربية حق فهمها ، كما شرحناها في هذا المقال .

نحن نعني بالأسلوب العربي أن يكون الكلام بعيداً عن منابح العجمة مجردأ مما يدخل بال نحو واللغة وأصول البلاغة . والكلام إذا كان على هذه الصورة فهو مفهم عند العامة والخاصة ، بل ربما كان أدعى إلى الفهم من كلام كثير من الكتاب الذين

ينجون في أساليبهم منابح الأفرنج .
رأيت كثيراً من أهل هذا الأسلوب يتشوّقون إلى معرفة ما يهدّم لتكون كتابتهم موفقة للأسلوب العربي ، حتى يخلصوا كلامهم من شوائب العجمة — فالي هؤلاء أقول :

من أراد أن يكون كاتباً عربياً فعليه بالاكتار من مطالعة الشعر الراقي كديوان الحماسة والمتني والبحتري وأبي قام وغيرها من دواوين وأشعار فحول الشعراء ، ومطالعة كتاب الأغاني والعقد الفريد وكتب عبد القاهر والغزالى والشيخ محمد عبده وكتابات السيد محمد رشيد رضا والزهراوي واليازجي والمنفلوطى ومحمد كرد على والخطاط والخوارجى ، وغيره هؤلاء الكتاب الجيدين من ذميم وحديث .

ومن أحسن ما ينبغي مطالعته أن يتطلب الأسلوب العالمي كتاب (نهج البلاغة) للإمام علي رضي الله عنه . وهو الكتاب الذي أنشأه هذا المقال لأجله . فإن فيه من بلينغ الكلام ، والأساليب المدهشة ، والمعانى الرائعة ، ومنابح الموضوعات الجليلة ، مما يجعل مطالعه — إذا زاوله مزاولة صحيحة — بلينا في كتابته وخطابته ومعانيه .

كان هذا الكتاب درة في صدف بعض المكتبات حتى أصبح لشيخنا المرحوم الاستاذ الإمام الشیخ محمد عبده مفتی الديار المصرية رضي الله عنه ، أن يطبع عليه ، ويزره إلى عالم المطبوعات ، ليكون أستاداً للنشرتين ورائداً للبلاغة . وقد علق عليه شرحاً جزيل الفائدة كبير المجرى . وقد طبع الكتاب بضم مرات مشرحة بقلم الاستاذ عليه الرحمة . فاستفاد منه أقوام كثيرون منهم كاتب هذه السطور . فالي اقتناه هذا الأثر العظيم يطلب الأسلوب العالمي ، ورواد الكلام البلينغ ، فان فيه ما ترغبون .

أيها الإنسان

إيهـ آهـا الإنسـان :

منك قسرـاً ، وترـكـكـ حـافـرـاً باـئـراً ، لـاتـاوـيـ عـلـىـ شـيءـ ولا يـعـطـفـ عـلـيـ أـحـدـ .

ما هـنـهـ الـكـبـرـاءـ الـتـيـ تـلـبـسـهاـ ؟ وـمـاـ تـلـكـ الـعـظـمـةـ الـتـيـ تـقـصـهـاـ ؟ . . . عـلـىـ مـنـ تـسـكـبـرـ ؟ . . . وـعـلـامـ تـعـاطـمـ ؟ . . . أـلـجـلـ أـنـكـ رـبـ مـالـ وـفـيرـ ، وـعـقـارـ كـثـيرـ ، وـخـدـمـةـ وـأـثـاثـ ، وـقـصـورـ ذـاتـ رـيـاشـ ؟ ؟

أـنـظـرـ إـلـىـ مـنـ عـلـيـهـ تـسـكـبـرـ ، وـفـيـهـ تـحـكـمـ ، هـلـ هـمـ إـلـاـ إـنـامـيـ مـثـلـ ؟ يـأـكـلـونـ كـثـاـلـ ، وـيـشـوـنـ كـمـشـيـ ، لـهـمـ جـسـومـ مـثـلـ جـسـكـ ، وـأـوـاحـ مـثـلـ رـوـحـكـ ، وـرـبـاـ فـضـلـوكـ بـعـقـولـهـ ، وـبـزـوـكـ بـادـاجـمـ ، وـعـلـوـكـ بـأـخـلـاقـهـ ، وـطاـلـوكـ بـشـاهـاتـهـ وـطـالـوكـ بـكـبـرـنـوـسـهـ ، وـصـفـاءـ سـرـيـرـهـ ، وـطـبـارـةـ سـيـرـتـهـ ، وـفـاقـوـكـ بـجـسـنـ كـبـرـهـ وـطـيـبـ بـخـيـرـهـ ! وـلـيـلـ ذـلـكـ فـلـقـتـخـرـ الـفـتـخـرـونـ :

وـمـاـ الـسـالـ إـلـاـ عـاـرـةـ مـسـتـرـدـةـ فـهـلـاـ بـفـضـلـيـ كـافـرـوـيـ وـخـنـديـ (١)

مـاـ يـضـرـهـ أـنـ لـوـ كـلـوـ ذـوـيـ ثـيـابـ رـتـهـ وـمـالـ قـلـيلـ ، إـذـاـ زـانـتـ نـفـسـهـ حـلـيـ النـضـالـ ، وـكـمـلـتـهـ نـبـالـةـ الشـمـائـلـ :

عـلـىـ ثـيـابـ لـوـ تـبـاعـ جـيـعـهـ بـفـلـمـسـ لـكـانـ الـفـلـسـ مـنـهـ أـكـثـرـاـ (٢) وـفـيـهـ نـفـسـ لـوـ تـقـاسـ بـقـدـرـهـ نـفـوسـ الـورـىـ كـانـتـ أـجـلـ وـأـكـبـرـاـ وـمـاـ ضـرـ نـصـلـ السـيـفـ بـأـخـلـاقـغـمـدـ إـذـاـ كـانـ عـضـبـاـ حـيـثـ وـجـهـتـهـ بـرـىـ المـرـءـ وـهـاـ «ـمـجـوـهـ تـحـتـ حـلـيـ» لـسـانـهـ لـاـ تـحـتـ طـلـيـسـانـهـ » وـهـوـ قـيـدـ أـعـمـالـهـ ، وـكـلـ أـعـمـالـهـ . فـنـ كـرـمـتـ نـفـسـهـ كـرـمـ عـمـلـهـ ، وـمـنـ سـفـلتـ نـفـسـهـ سـفـلـ عـمـلـهـ ، وـكـلـ اـمـرـىـءـ بـعـاـ كـسـبـ رـهـيـنـ .

مـاـذـاـ يـفـيدـكـ أـنـ لـوـ حـيـتـ حـيـةـ الـمـوـلـوـكـ ؟ وـأـنـتـ غـيـرـ مـالـكـ نـسـكـ ؟ بـلـ مـاـذـاـ تـنـتفـعـ أـمـكـ مـنـ وـجـودـكـ ؟ إـذـاـ كـنـتـ لـاـ تـحـسـنـ إـلـيـهـ ؟ أـقـطـنـ أـنـ مـوـالـكـ تـزـينـكـ ، وـأـنـ مـلـبـسـكـ يـعـيلـكـ ؟ وـحـسـنـ هـيـئـتـكـ تـسـمـيـكـ ؟ إـنـكـ إـذـنـ لـمـ الـخـطـيـنـ .

(١) الـبـيـتـ الـمـطـفـرـ اـنـيـ صـاحـبـ لـامـيـةـ الـعـجمـ

(٢) الـاـيـاتـ الـلـامـاـمـ الشـافـيـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ

لـسـتـ ذـلـكـ الـكـائـنـ الـحـيـ النـاميـ ، وـلـاـ هـذـهـ الـهـيـةـ وـتـلـكـ التـقـاطـعـ . بـلـ أـنـتـ ذـلـكـ الـجـوـهـرـ السـامـيـ الـجـوـهـرـ عنـ الـمـادـةـ ، الـهـابـطـ عـلـىـ هـذـهـ الـمـيـكـلـ منـ الـحـلـ الـأـرـفـعـ ، وـالـسـكـانـ الـآـمـنـ . وـلـوـلـاـ مـاـ كـانـ هـذـهـ الـهـيـةـ مـاـهـاـ مـنـ التـمـيـزـ عـنـ الـمـوجـودـاتـ كـافـةـ . فـأـبـتـ فيـ الـحـقـيـقـةـ إـنـ السـجـاءـ لـاـ بـنـ الـأـرـضـ ، وـأـصـلـكـ مـنـ الـمـلاـءـ لـاـ مـنـ الـخـضـيـضـ . وـمـاـ وـجـودـكـ عـلـىـ سـطـحـ هـذـهـ الـكـرـةـ إـلـاـ وـجـودـ ضـيـفـ عـنـ قـرـيـبـ يـرـحلـ ، وـيـرـجـعـ إـلـىـ الـأـرـضـ الـتـيـ فـيـهـاـ نـشـأـ ، وـمـنـ تـرـزـهـاـ نـيـتـ . فـمـاـ بـالـكـ قـدـ اـدـعـتـ الـمـلـكـ ، وـزـعـمـتـ أـنـكـ كـلـ شـيـءـ وـأـنـتـ لـاـ شـيـءـ ، لـأـنـكـ تـحـرـجـكـ الـبـعـوـثـ ، وـيـقـلـقـكـ الـوـهـ ، وـيـرـمـكـ الـنـامـ الـبـرـغـوثـ !!

أـهـكـذـاـ يـكـوـنـ شـأـنـ مـنـ بـخـالـ إـلـيـهـ عـلـىـ كـلـ شـيـءـ قـدـيرـ ؟ إـنـ هـذـاـ لـأـمـرـ نـكـيرـ ! أـلـسـتـ أـنـتـ الـذـيـ تـأـكـلـ وـتـشـرـبـ ، وـقـرـجـ وـتـلـبـ ، وـانـ هـاجـمـكـ الـفـلـمـ هـدـرـتـ دـمـ شـرـفـكـ دـوـنـ تـسـكـيـنـاـ ؟ ؟

أـلـسـتـ الـذـيـ إـنـ أـصـابـكـ زـكـامـ ، قـلـتـ غـدـاـ أـشـرـبـ كـأسـ إـنـجـامـ ؟ ؟

أـلـسـتـ الـذـيـ إـنـ أـصـابـكـ مـصـيـبةـ ، فـادـيـتـ بـالـوـلـيلـ وـالـشـيـورـ ، وـعـظـامـ الـأـمـوـرـ ؟

أـلـسـتـ الـذـيـ إـنـ لـمـ يـجـدـ مـاـ يـأـكـلـ أـلـيـ أوـ يـشـرـبـ ، خـارـتـ قـوـاهـ وـالـخـلـاتـ عـزـافـهـ ، وـعـلـمـ أـنـهـ ضـعـيفـ حـقـيرـ !!

أـلـسـتـ الـذـيـ إـنـ أـصـبـحـ فـقـيرـاـ مـعـدـمـاـ ، ذـهـبـ مـاـ كـانـ لـهـ مـنـ الـمـقـامـ الرـفـيعـ ، وـبـلـيـ ثـوـبـ كـبـرـائـهـ وـعـظـمـتـهـ ، فـالـتـجـأـ إـلـىـ مـنـ كـانـواـ إـلـيـهـ يـلـتـجـؤـنـ » وـطـلـبـ مـنـهـمـ الـاـحـسـانـ إـلـيـهـ ، كـمـاـ كـانـواـ يـطـبـوـنـ ؟ ؟

إـذـنـ فـلـيـسـ لـكـ مـنـ الـأـمـرـ شـيـءـ ، وـمـاـ أـنـتـ إـلـاـ كـافـيـ خـعـيـفـ فـانـ ، وـكـلـ مـاـ فـيـ يـدـكـ عـاـرـةـ مـسـتـرـدـةـ ، فـإـيـاـكـ أـنـ تـصـرـفـ بـهـ أـوـ تـدـعـيـ تـمـلـكـهـ ، فـهـاـ هـيـ إـلـاـ وـدـيـعـ الـدـيـلـيـكـ ، فـأـلـحـسـنـ الـقـيـامـ عـلـىـ مـاـ لـسـتـ وـدـعـتـ ، وـالـفـنـظـرـ كـرـامةـ الـمـوـدـعـ ، وـإـلـاـ اـتـرـعـهـاـ

تعمل بعقصى سنة الله في الأكون ، لتصح خلافتك عاليها ، وتكون عامراً لها ؟؟
أهلاها جوع وقاطنوا جهله ، فهم يأكلون بجهلهم لحوم اخوانهم ، ويخربون
بيسوء علامهم ما أمر الله بمعارته ، وأنت أنت قادر على تعليمهم وإطعامهم ، وتدبر
أمورهم ، والنظر في إصلاح شؤونهم .

اما جعلك غنيّاً تنظر في حالة الفقراء والمساكين ، فتدرك أنّ عزّهم عوادي الزّان ، وتدفع طوارئ الحدثان . فاستأثرت بالامانة ، وحررت من أهل الحياة ، ولوسوف قدم ، ولات ساعة متقدّم .

ثم إنك لم تكتف بما فعلت، بل طغت تكبر على هم حقوقهم، وتعيث بغير أهلهم،
وتحقرهم كأنهم الأنعام أو أضل سبيلاً، فلأنك لم تظر إلى قول الله الكريم :
«وفي أمورهم حقٌّ معلوم للسائل والمحروم»

أيّها الانسان :

يسقط من غلطتك . فان الزمان قد استدار ، ورب هذا الفلك المدار . فاد
الحق الواجب : فإنه عليه خبرية لازب ، وإنهم من سباتك ، وأصلح ما فات
من غلطاتك ، وتدارك هفواتك ، وإلا فارتقب جزاء سباتك ، وويلات غلطاتك .
يوم يطألك شركاؤك ، بما أكلت من حقهم اللازم ، فينادي عنك أو لياؤك ، فلا
 تستطيع تأدبة المغامر . ثم يأتيك يوم هو أشد الأيام هولا ، وأنقلها وطأة ، هو
 يوم ينتصر فيه المظلوم منظلم ، ولاضعيف من القائم . ذلك يوم تدور فيه رحى
 الشقاء ، على أهل الجبور ، ويوجه فيه البخلاء ، في كل نجد وغور ، فلا يجدون مكانا
 يعصمهم من البلاء ، ولكل قوم دور .

أُمّةُ الْأَقْسَانِ !

تبه اي لك من الناصحين واحذر ان تختلف عن ابرىء ، ف تكون من الشامرين
« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »
فالانسان اخو الانسان . و « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » و « ليس لاحد فضل

أترى عم أن الفقير ذا الحلق العظيم ، أقل منك مقاماً وأدنى منزلة؟ إبك إذن مان
الظالمين .

قيمة المرء ما يحسن ، فإذاً كأن ترجو المزلة السامية في الدنيا ، والقائم الحمود في الآخرة ، إذاً لم تخدم قومك ، وتوسع في إنجاح وطنك ، فانسأك وإن سعيت وخدمت ، تنتهي بـ « بعد النول » ، وتحمّد بعد الذم . والله يحيي الحسين وقد قال أحد الفقّاريين :

ولا يكن عظمي طويلاً فاني
له بالحصال الصالحات وَمَوْلُ
إذا لم تزرنْ حسنَ الجسمون عقول
ولَا خيرَ في حسنِ الجسمون وَنَيْلُهَا
إذا كنتُ في القوم الطوال علوَّتهم
بعارفةٍ حتى يُقال طوبيل
فخالوَّ وَاما وجيهه فجميل
ولم أرَ كالمعروف اما مذaque أَهْبَاهُ الْأَنْسَانُ !

انك خلقتَ لأنِّي لو علمتُ خفيَّةً ... خلقتَ لما هو أنسى مما يخطر ببالك ،
وأعلى ما تتصور . فاتبع عنك ثوب الرياء ، واخلع رداء العجب واحتقارَ من هو
دونك في أمر المعاش ، ولا تكون من الذين يستبدلون الذي هو أدنى بالذى هو
خير ، فقهط مصرًا غير مصرك ؛ فإنَّ فيها مسألة من النعم الظاهرة واللائحة
الخارجة ، غير انك تندم بعد ذلك حيث لا ينفعك الندم ، ولا تغينك لينت
وعلمه .

خليفة الله فيهما؟ أهكذا تكون عمارتها؟ وهل بهذه الاعمال الشائنة تتولى خلافتها؟ ما بهذا أمرنا، ولا مثل ذلك خلقنا!

خلفية الامة ، يحسن سياستها ، ويدبر اعمالها ، ويدير دولاب حياته الاجتماعية والمعرافية . وعامر الارض يسعى لوفاهة سكانها وخدمتها ، ويجتهد لهم الاسباب التي تدعوهم لممارتها ، ويقدم لهم كل ما يمتنعون اليه لصلاح تلك الارض ! فهل أنت ايهما الانسان يا من خلقت لغاية الارض ؟ يا من وجدت تكون حلفة الله فيها !

أقحط رجال أم قحط وجدان؟

كل انقلاب في العالم يعقبه اختلال في الاحكام ، وفوضى في الاعمال ، وانصراف في حرارة العمال ، والانقلاب العماني كجامعة الانقلابات ، تلاه ما تلاها من الارتباط والتلویش وقطع الرجال العاملين .

غير ان الاختلال له أجلٌ معلوم والارتباط لا بدّ أن ينتهي عند حدٍ . والاجل يطول أو يقصر بنسبية أهمية الانقلاب أو عدمها . ولما كان انقلابنا من أهم الانقلابات التي انتقضت على العالم الاستبدادي كان لا بدّ لانتظام الامال وسيرها على محورها من وقت طويل ، وذلك لتزيبة العمال تزيبة دستورية حقاً ، حتى إذا ما عرروا واجبهم وأنقذوا ما عهد إليهم إتقاناً ، ساروا كما تقتضيه المفاهيم ، ونبعوا منهج العمال في الأمم الدستورية الواقعية .

وينبغي أن يختار هؤلاء العمال من فيهم الاستعداد للقيام بهام الأمة . وأول شرط يشترط فيهم أن يكونوا من أهل العقل والدرية والأخلاق الفاضلة والوجدان الصحيح – والوجدان الشرط الأعظم في كل ما تقدم .

يشكوا الناس اليوم من قحط الرجال ، وندرة السكان الذين ينظرون إلى الجريمة لا إلى المجرم وما يتبعه من الذبوب والغيموث .

وقحط الوجدان ليس قاصراً على المتربيين فوق دست الأمر والنهي والخل والعقد بل هو عام شامل الأمة إلا من رحم ربكم وقليلٌ ما هم ، ومع ذلك فكثيراً ندعى الحافظة على الحق ، واننا اعترف معتصمون بجمل الدستور المتن .

إذا لم نربّ الوجدان تزيبة صحيحة ، وإذا لم نرم بالاغراض إلى مكان قصي ، فلسنا بأحرار ، ولو سبحنا باسم الحرية آباء الليل وأطراف النهار . لأن الحرية تقضي على كل انسان حاكم او حكماً ان يتبع الحق وينصر المظلوم ، ويبتعد عن كل عمل شائن .

على أحد إلـا بـدين أو عمل صالح » و « إنْ أـفـرـيكـمـ مـنـ بـجالـسـ يومـ الـقيـامـةـ اـحـسنـكـ أـخـلـاقـ ،ـ المـوـطـأـونـ اـكـداـفـ ،ـ الـدـيـ يـأـلـفـونـ وـيـأـلـفـونـ » و « إنـ اـخـسـرـ النـاسـ صـفـقـةـ مـنـ أـخـلـقـ يـدـيـهـ فيـ آمـالـهـ ،ـ وـلـمـ تـسـاعـدـ الـأـيـامـ عـلـىـ أـمـيـئـتـهـ ،ـ فـخـرـجـ مـنـ الدـنـيـاـ بـغـيرـ زـادـ ،ـ وـقـدـمـ عـلـىـ اللهـ بـغـيرـ حـجـةـ » وـقـدـبـرـيـ وـمـنـ الشـجـعـ مـنـ أـدـدـيـ الرـكـاـةـ ،ـ وـقـرـىـ الضـيفـ ،ـ وـأـعـطـيـ فـيـ النـاثـبـةـ » وـ« لـاـ يـوـمـ مـنـ اـحـدـكـ حـقـ مـحـبـ لـاخـيـهـ مـاـ يـحـبـ لـنـفـسـهـ » وـ« الـكـيـسـ مـنـ دـانـ نـفـسـهـ وـعـمـلـ مـاـ بـعـدـ الـمـوـتـ » وـ« الـعـابـزـ مـنـ أـتـبـعـ نـفـسـهـ هـوـهـاـ ،ـ وـتـقـنـىـ عـلـىـ اللهـ الـامـانـيـ » وـ« فـيـ كـلـ ذـاتـ كـبـدـ حـرـىـ اـجـرـ » وـ« الـعـفـوـ لـاـ يـزـيدـ » وـ« الـعـبـدـ إـلـاـ عـزـآـ ،ـ وـالـتـواـخـعـ لـاـ يـزـيدـ إـلـاـ رـفـعـةـ » وـ« مـاـ نـقـصـ مـالـ مـنـ صـدـقـةـ » وـ« الـيـوـمـ الـرهـانـ » وـغـدـاـ الـسـبـاقـ وـالـغـاـيـةـ الـجـنـةـ ،ـ وـالـهـالـكـ مـنـ دـخـلـ النـارـ » وـ« يـخـشـيـ الـجـبارـوـنـ وـالـمـكـبـرـوـنـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ أـمـثـالـ الـذـرـ » يـطـؤـهـمـ النـاسـ »

فـانـتـعـ عـنـكـ أـيـاـ الـإـنـسـانـ ثـوـبـ الـغـرـورـ ،ـ وـأـخـلـعـ مـعـاطـفـ الزـهـوـ وـالـخـيـلـاءـ ،ـ وـانـظـرـ إـلـيـ أـخـيـكـ فـيـ الـإـنـسـانـيـةـ ،ـ وـأـعـنـهـ بـاـسـتـدـعـيـ ؟ـ وـخـدـفـ وـيـلـاتـهـ ،ـ وـقـالـ مـنـ نـكـبـاتـهـ ،ـ فـمـاـ تـقـيـدـكـ كـبـرـاؤـكـ ؟ـ وـمـاـ تـغـيـيـ عـنـكـ خـلـاؤـكـ ؟ـ

فـسـاقـتـ اللهـ يـاـ قـويـ وـخـفـضـ .ـ إـنـ مـلـكـتـ الـورـىـ مـنـ الـفـلـوـاءـ إـلـاـ النـاسـ يـاـ قـويـ سـوـاءـ كـلـ خـلـقـ مـنـ طـيـنـهـ وـمـاءـ لـاـ قـدـعـ شـوـكـةـ التـكـبـرـ تـنـمـيـ فـجـمـيعـ الـأـلـامـ مـنـ حـوـاءـ إـنـ تـقـاـخـرـ بـالـأـصـلـ فـالـطـيـبـ وـالـمـاـ اوـ بـيـطـشـ فـهـاـكـ أـسـدـ الشـراءـ خـفـقـ الـوـطـءـ فـالـبـلـوـرـاـ يـسـالـ اللهـ .ـ فـارـحـمـ يـرـحـمـكـ مـنـ فـيـ السـماءـ وـانـتـزـعـ عـنـكـ مـيـطـرـفـ الزـهـوـ وـالـخـاعـ قـبـعـاتـ الـأـعـجـابـ وـالـكـبـرـاءـ

وأغا عادات الدور البائد لم تول مؤثرة في نفوس أكثراهم ، ومسيطرة على طبائع الجل " منهم . فهل نقول ليس عندنا حكماء ؟ أم نقول : إن الوجهان ضعف ؟

فيا أيها الحكماء وادعوا وجدانكم ، واصيغوا الى صوت ضميركم ، ولا تدعوا من لا خلاق لهم يقولون : لا فرق بين الماضي والحاضر ، واننا لم نزل من فوائد الحمرية والدستور ، الا انطلاق الاسننة وحرية المرأة ، التي اتخذت كثيرون منها الحرية ذريعة لفتاك الاعراض وشتم الناس والتطاول على اهل الفضل .

ان كثيئاً من الدعاوي التي تنتظرون فيها ليس عليها أثاره من حق ، فلاتصرعوا بالحكم فيها إلا بعد قتلها عاماً ، واياكم ان تتبئوا الامر قبل أن تقيمهوا فيه . فوالله ان التزوير والكذب والنفاق قد تأصلت جذورها في نفوس الامة ، فلا تكونوا اعنة للطالم على المظلوم ، ولا تسهلوا للمزورين السبيل ، ولا تقعحوا اهل النفاق والشقاق الابواب ، فيلتجوهـا ، فان دخلوها فقد اختلط الطابع بالتابع ، وخاعت الحقوق ، وتطاولت الفساق واهل الشرور على الابرياء ، واهل الفضل والحق .

أَلْهِمُ اللَّهُ أَغْنِيَاعًا وَعَالَمًا وَحَكَاماً السَّيِّرَ فِي سَوَاءِ السَّبَيلِ ، حَتَّى تَرْفَى
الْأَمَةُ ، وَتَسْقُى مِنْ هَذَا الدَّاءِ الْوَبِيلِ ، وَتُصْعَدُ فِي جَوَ الْاُنْقَاءِ ، وَتَجْلِسُ فَوْقَ
مِنْصَةِ الْعَلَاءِ .

الوجودان الصحيح يجب أن يكون في كل أمرٍ غير أن وجوده في الحاكم آكِدٌ منه في سائر الناس لأن بيده إثبات الحق وإبطال الباطل . فان راعي وجوده وانصاع لحكم العدل ، فقد أحياناً ميت الرجاء في الأمة ، وأنشر مندوش الامل .

الرجال عندنا كثيرون لا يكفيهم الناس ، فان بيننا من أهل الثروة والعلم والقوانين وأرباب الادارة رجالاً يغتر بهم لوراعوا وجدانهم وخدموا أمتهن خدمة صادقة . غير أن الاهاوة تصدق بهم عن سلوك جادة المنفعة العامة ، وتقدف بهم في طريق الغاية الشخصية والنظر إلى منفعة الذات . فأغناهنا وتأبغهنا أموال وعماونا خدمة اقوال ، وحكاماً رؤاد آمال ، وقليل من هؤلاء وأولئك من يحيون المنفعة العامة ، ويعمل بما يعلم ويكتبه الحق وعليه عليه الوجودان .

الاغناء لو راعوا وجدتهم ، وخدعوا الامة بأموالهم المكتنزة في الصناديق ،
وأفاخروا عليهم من وابل الاحسان ، وشيدوا لها المدارس ، لنهضت من رقتها ،
وأقلبت من عثرتها . ولتكن عن ذلك غافلون ، وبترفهم منهمكون . ولو أهبت
بهم ليتبهوا ، ولو حرضتهم لينتفعوا المشروعات الخيرية بجزء من أموالهم ، لو وادوا
رؤوسهم وهم معروضون !!!

فهل نقول : ليس عندنا رجال أغانيء ؟ أم نقول : ليس لكثير من أغانيتنا
وأجدان حرّ يدفعهم إلى الأخذ بيد الامة واقتالها من هذه العترة ؟

العلماء يقولون ما لا يغلوون وياهو أنهم مشتغلون ، وعن تعليم الامة وتهذيبها وارشادها لاهون ، مع انهم عالمون ، وعلى الحقيقة مطعون . فهل تقول ليس عندنا علماء ؟ ام تقول : إنهم باعوا الدين بالدنيا ، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟

الحكام وما ادرأك ما هم ؟ قوم فوَّضُت الْأَمْمَةِ إِلَيْهِمْ أَمْرُهَا ، والقت عليهم اثقلها ، ورمت اليهم بمقاييس الحكم على اعراضها واموالها ودمائها . ثم بصررت بكثير منهم حادوا عن سبيل الرشاد ، واتبعوا غير طريق السداد ، تلقاء وصاية او رجاء ، وميلاً لنفعوة او رباء . ويظن الكثير ان سبب ميلهم عن الحق هو الجهل بالقوانين ، وأن من سُلوا زمام الحكم غير أكفاء . وهو حكم عليم غير صحيح ،

الملك بجزهم وأقدمهم ، ترقوه من فوتك وتناديك . لقد أضعت علمنا ،
ودرست آثارنا ، واستهنت بمجدها وسلت ثمار أعمالنا إلى غيرنا . فهنيكت حرمتنا ،
وأنقطت عظمتنا ، فخسئت من ولد ، ولا رجحت من مولود ١١١

بمثل هذه الكلمات تناديك أيها الشعب العربي أرواح آباءك ، ويمثل هذا التقرير
المر ، والعنف القاسي ، تحاطبك وهي في عالم البرزخ ، فاستمع لكلماتها وأصغِ
لمناداتها ، ثم اعمل بما تشاء .

إلى الأمة العربية

إليك إيتها الأمة الكبرى وجه الكلام ، ونحوك إيهما الشعب النبيل ارسل
ما أقول .

إنَّ الزمان قد استدار ، وإنَّ الحالَ الْيَوْمَ تطلب رجالاً غير رجال الامم :
فمن قام فأجلح ، ومن يقي قائدآ طال قفوهد ، ومن لم يزل نائماً فلا يُوجِي له تقدُّه ،
ومن ظل خاماً فلا أملَّ باتقائه ، ولا رجاء بترقيه .
قام فيك الصارخون ، وجهر بين ظهريك الم gioion ، وبنوك عن الاصفاء
لاهون ، وإلى غير حلِّ الاواخر لا يملون .

ان سائر الامم تسعى لتأييد مرکزها وتعامن بني جلدتها ، وتربية بني
جنسها ، لأنهم أدركوا أن لا رقٍ إلا بالعلم ، ولا فلاح بغير التربية الصحيحة .
يمهدون أنفسهم ويهذبون طاقتهم ، ليجروا العنصر الراقي ويسيروا معه في طريق
الرق والتقدم إلى الإمام .

وبنوك الكرام نشوئي من الجهل — سكارى بخمرة الخلاء
فاستنق من غفاتك ، وتبه من رقدتك ، واعلم أنك ان لم تأخذ بأسباب العلم ،
وتتمسك بوسائل النهوض ، وتعتمد بعرى الأقدام ، فستبقى كما أنت الآن أقلَّ
الامم مدنية ، أفلهم علماً ، أفلهم علاً ، في حين أنها شعرت بال الحاجة إلى
التربية ، وأدركَت أنها مفتقرة إلى الاكتشاف من معامل العقول ، ومصانع الأفكار ،
ومنابع العلوم ، وبساطتين الاعمال . وقد أخذت العدة لكل ذلك ، وبدأت تسير
للوصول إلى ما هنالك .

على حين أنك إيهما الشعب العربي أولى الجميع بهذه النهاية ، فإنَّ الأغربة فوق
اطلال مدارس بغداد ودمشق وغرنطة والقيروان وغيرها ، لا تزال تقرع سعالك
بنعيتها ، وتدكّرك ما كان لأمثالك من سالف الجد ، في ذلك العهد . ولا تنفكُ
أرواح إوهانك العظاء الذين أغاروا العالم بعلوهم ، وأولئك الكبواء الذين دُوّنوا

و لا تكتسبوا فضلا حتى تعلموا أن وراءه فائدة عظيمة ومنفعة جليلة .
دعوا الأغراض جانبها ، و اطربوا المطاعن قصبا ، فإن كل ذلك لا يزيد الأمة
غير تأخر ، وأكفوا من السياسة بليها و صحيحة ، ومن الأخبار يقليلها أو تقوها ،
و أكتروا من نافع القول ، و مفند الكلام .

وأنثى أيتها الأمة ! قد آن لعمري النهوض واطراح المأول ، فائزعي رداء الوجل ، وأمطي عن طريق إقدامك أذى التوانى والضعف ، فإن السبيل واضحة ، والطريق معمد .

وسلام عليك اليوم ، وأدكى منه يوم تبعين من أجداث حمودك وحوك ،
إلى حشر حزمك وشامايك وعزنك ، وساق عهدك ، وغابر حمدك .

التربيـة أساس النجاح

三

في التربية وفضائلها

الترية كلمة صغيرة للفظ ، كبيرة المعنى ، تطوي تحتها الكمالات أجمعها . فهي ملاك الخير كله ، وجماع الفضيلة يأسرها ، وعليها مدار الكون ، وبها نيل الفلاح ، فيها قبعت ذرّات النجاح .

وهي في اللغة مصدر رجأ يربه يعني تماه، وفي اصطلاح علماء الأخلاق والتزية هي تقييمية الأخلاق الفاضلة في النفس، وتعتمد لها بالارشاد، لتكون ملكرةً راسخةً فيها، فتشير الفضيلة والخير.

فعلي التربية الحق سعادة الامم وفلاحها ، وشقاوتها وامتحنها . ففي كانت التربية

أيَا الشُّعَرَاءِ ! دُعُوا لِفْزُ الْنَّسِيبِ ، وَالْمَدْحُ وَالْفَجْوُ ، وَخُوْضُوا غَارَ الْمَهَاسِهِ ،
وَغُصُّوا عَلَى مَعْنَى الْجَدِ ، وَصُوْخُوا لِلَّامَةِ عَقْدًا مِنَ الْأَيَّاهِ وَالشَّرْفِ ، وَسِيْوَفًا
بَدَادًا تَكُونُ لَهَا عُوْنَانًا عَلَى اقْتِحَامِ الْعُمَرَاتِ ، وَاحْتِقَالِ الْوَيْلَاتِ . وَأَدَدَ كَوَا
بِكَلَامِكُمُ الْحَيَّ نَارَ هَمَّتِهَا ، وَأَحْرَقُوا خَبْرَ رَقْدَتِهَا ، وَقُولُوا لَهَا كَمَا قَالَ أَحَدُ
أَحَدَادِكَمْ :

ان تُبتدئ در غایة يوماً ملکرمه
انا لازم خص يوم الروح انفسنا
بيض مفارقنا تعلي مرآجنا
اني من عشر افني او الههم
لو كان في الالف منا واحد فدعوا
ولا تزاحم وان جئت مصيبيهم
مع البكاء على من مات يبكونا
قول الكهأة الا اين المحامونا
من فارس خالمم ايها يعنيوا
نأسو يا موالنا آثار ايدينا
ولو نسام بها في الامن أغلينا

وجعلوا أعزه أهلاً أذلة».

ملوكها بطرت معيشتهم ، فاستبدوا بوعيهم ، فقام عليهم ثائر من أهلهم أو من غيرهم بداعي الاصلاح ، فاشتعلت الحروب الداخلية ، فلها الناس بها وتركتها التعليم والعلم والنهذيب والتربية — زد على ذلك ان الاجنبي اغتنم فرصة هذه المشاكل الداخلية ، فجاءهم على حين غرة ، فأصبحوا بين شقين من عصا : عدو في الداخل وعدو من الخارج ، وتلك هي الطامة الكبيرة ، والبلية العظمى . وما زالوا على أنفسهم والعدو الخارجي عليهم ، ينقص اوضفهم من اطرافهم ، الى أن تكثف مدنتهم ، وبقيت أنثى بعد عين .

هذا مثال من أمثلة الأمم التي كان ضعف التربية وفساد الاخلاق سبب الخطأها بعد الارتفاع ، وتأخرها بعد التقدم . فال التربية اذن هي منار التقدم ، ورائد الفلاح لكل أمة تزيد ان تربى بنفسها تكون خاملة الذكر ، أو تكون مع الماكلين .

التربية الاخلاق والشهود

التربية المنزلية

خير التربية ما كان يرضع مع الين ، فمن ترئي التربية المطلوبة وهو في سن الطفولية ، نشأ و الأخلاق الناضلة خاتق فيه ، وصحبة الرأي وصدق العزيمة شديدة له . لذلك يجب ان يعيقى بالولد الاعتناء اللازم منه يرى نور الحياة الدنيا . فيعود كرم الاخلاق والشجاعة وحب الخير ، وغير ذلك من الفضائل والحمد . ومنى كان كذلك فرجى من الناشيء ان يكون عضوا صحيحا في جسم الامة ، يبذل روحه ودمه في خدمة اوطانه ودولته ، لانه يكون بمقتضى تلك التربية بغيرا مقهورا على اداء الواجب نحو الامة (او و كان في ذمن حرية القول والعمل) اذ ليس منشأ ذلك الاجبار او القهر السلطة الاستبدادية ، لأن هذه السلطة تكره كل من يقوم بأعباء الخدمة الوطنية ، واثقال منفعة الامة . وليس منشأ من قوم يأمرونه بذلك ، فيفعل حياء او رداء — ولكن ما هو منشأ ذلك ؟

صحيحة في امة من الامم ، رفعتها من وهاد التأخر إلى ذروة الفلاح . والعكس بالعكس . وعلى مقدار التربية تكون تحillة الأقوام في مضمار هذه الحياة . فما من امة وجدت التربية الحق في قلوب ابنائها متسعا الا بلغوا ما يأملون من رفاه العيش وسعادة الحياة . وبقدر التربية يكون في الامم الرجال المفكرون الذين يبتلون وسuum ، ويفدون مجدهم ، لرتبة امتهن وأوطانهم .

خذلية امة من الأمم الراقية اليوم قبل اليوم ، تجد انها قد تقدمت وبلغت ما بلغت من الظلمة والمدنية ، بواسطة أناس تربوا تربية صحيحة ، فعرفوا الخطاط امتهن وتأنقرها ، فضحوا كل من شخص وغالب حتى ارواحهم ودماءهم ، في سبيل تخلص امتهن من مجال الظلم والاستبداد ، والأخذ بأيديها ونشلها من مهاوي الجهل والفساد ، حتى أفاقوا بها على يقان الحرية وذروة المدنية . والامثال على ذلك كثيرة تكاد لا تخفي ، والتاريخ طافح بها ، وهناك مثلا من ذلك — الامة العربية :

— الامة العربية وما أدرك ما هي ؟ تلك الامة الرفيعة الشأن ، البعيدة الصيت التي بلغت من المدينة وال عمران شأوا بعيدا لا تزال آثاره نافذة شاهدة على ما كان لهم من العظمة في الملك والسلطان وامتداد السلطة . تلك الامة التي مدت جناح ملوكها على الحجاز واليمن والشام والعراق وفارس وافريقيا والاندلس وقسم من اوربا ، ووصلت موافر خير لها الى قسطنطينية وبارييس . تلك الامة التي نشرت العلوم والمعارف والصناعات ، وبذلت في اوجاء المعمور انوار الحداية لسلوك مناهج العلم والفضيلة . تلك الامة التي لم تزل اوربا اليوم تتعذر لها بالتقدم وتقول انها تلميذ لها ، وعنهما تلقّلت العلوم والصناعات التي كانت لها نوراً أوصلاها الى ما هي عليه الان من التقدم والبراعة في كل شيء .

تلك الامة التي هذا شأنها ، ماذا اصابها حتى اصبحت الان ضعيفة ، متاخرة في كل شيء ؟

— من نظر اليها بعين التروي والبصرة نظر النقد الشير ، يعلم ان ضعف التربية وفساد الاخلاق هو الذي أوصلها الى هذه الحال من التأخر — فسدت اخلاق الناس بفساد اخلاق الملك : « انت الملك اذا دخلوا قرية افسدوها

فأشدتك الله هل امثال هؤلاء المتعلمين سوى أعضاء أشلاء في جسم المجتمع؟
وهل تنصلهم على أولئك الاخيار الاطهار، أصحاب القلوب النقية البيضاء، والأخلاق
الكريمة السمححة ، الذين لم يسعفهم الحظ بالجلوس وراء مناضد المدارس ؟؟

ليس القصد من التربية أن تكون الآلة بين النوع الانساني فقط ، بل الامر
أعلى من ذلك وارفع ، وأشرف وأنبل ، فان الغاية التي تقصد اليها ، والضالة التي
تندشها ، هي ان توجد بواسطة التهذيب والتربية في نفوس النشء شعوراً طيفاً
وعاطفة شفافة ، يحيواه على القيام بالواجب فهو الامة والوطن والناس اجمعين .
وذلك لا يكون إلا بتعويذ الاحداث مكارم الأخلاق واحسان الاعمال منذ
نشأتهم ، وبذلك تكون قد خدمتنا الوطن والانسانية أجل خدمة تذكر فتشكر
فتغوي الاحداث على العمل بالواجب منذ الصغر يرثي في نفوسهم تلك العاطفة التي
نويدها ، وبذلك الشعور الذي تناطبه . فال التربية في الصغر كالنعش في الجمر .
الولد لا بد ان يشب على خلق حميد أو ذميم ، لأنّه جسم القسر والطبيعة
مفطورة على اكتساب ما يسمى به او يراه من خير أو شر ، فنعم او ضر ، فهو بالقياس
إلى ما يسمعه كالصدى « الفونغراف » وبالنسبة إلى ما يراه كناقل لمفهوم
« الفونغراف » فكما ان الاول يحفظ في اسطوانته ما يلقى إليه من الانفاس ، والثاني
ينطبع في زجاجته ما يكون امامه من الاشباح والهياكل ، ثم يديي كل منها ما
اكتنه وانفهاء ، إن « خيراً فخير » وان شرًا فشر ، ففكذلك الولد ينطبع في مرآة
عقله ما يراه من الاعمال ، وينتش في صفات ذهنه ما يسمعه من الاقوال ، ثم يديي
ذلك للناس ويعاملهم حسب ما رأاه وسمعه .

فمثل قلب الولد مثل الشمعة ، قابلة لكل نقش وصورة ، فالحذر أنها الرجل أن
نقش في فؤاد ولدك وقلادة كبدك ما يكون وبالا عليه وعلى امهه في مستقبل
حياته . قال الامام الغزالي :

« ان الولد امانة عند والديه ، وقلبه الظاهر جوهرة نفيسة خالية عن كل نقش
وصورة ، فان عود اخيه وعلمه نشأ عليه ، وسعد في الدنيا والآخرة ، وشارك
في ثوابه ايواه وكل معلم ومؤدب ، وان عود الشر وأهل شقي وهلك ، وكان

ـ منشأ الاجيال على القيام بالواجب ، هو تلك العاطفة التي ربّاها النبي «
وعمل على احيائها العلم الصحيح - الا وهي الضمير .. هنا الضمير او تلك النفس
الظاهرة هي التي تجبره على خدمة وطنه وامته ودولته ، ولا تحصل تلك العاطفة
بغير التربية الصحيحة . فال التربية جماع الخير كله ، واساس الفضائل بأمرها . فربوا
ابناءكم وبناتكم ، واردوها في نفوسهم تعاليم القوية ، وابذرموا في قلوبهم تلك
البنور الطيبة ، وتهذبوا أنفسكم بباء الفضائل ، ولا تدعوا السلطان الاوهام
وآخر افاف على عقولهم سيلما . وبذلك يحيون حياة طيبة ، ويكونون أبناء المستقبل
يهدموه بكل صدق وأمانة وإخلاص .

التعاميم أمر عظيم جليل القدر ، عظيم القائدة ، ولكن التربية أشرف وأنبل ،
وأعظم وأجل . فان العاقل الخير ، والنافق البصیر ، بري من نفسه ارتياحاً لقوه
حسن تربيتهم ، ونبلاً أخلاقهم ، وكرمت نفوسهم ، ولو كانوا غير متعلمين .
ولا يرى هذا الارتياح وذلك الانس بقية من المتعلمين ، ليس عندهم من التربية
الصحيحة ما يرغّب الناس في مخالطتهم والأنس بهم . وهذا مشاهد بالعيان « لا يحتاج
في صدقة إلى برهان . وقد ورد في الحديث الشريف : « خير الناس من يألف
وينهُل » .

وليس المراد بما قدمناه إِنْسَاكَ مَذِيَّةِ الْعِلْمِ وَالْتَّعْلِيمِ . حاشا لله أن أكون من
الجاهلين ، فالعلم من أقوى دعائم المدنية ، وأقوى أسباب الرقي في معارج الحضارة
والعمران . ولما القصد ان التربية والأخلاق ومعرفة الواجب ، خير من العلم
المجرد عن التهذيب والآداب والأخلاق الفاضلة ، وهذا أمر لا ينكره عاقل ، وما
احلامها إذا اجتمعا في المرء .

كم رأينا من شبان درسوا ما درسوا ، واغترروا من بحر العلوم ما اغترفوا ،
ولكنهم في فساد الأخلاق غارقون ، وفي حمأة الشور منغسون ، لا ينفعون
الأمة والوطن ، وليس مرادهم إلا « ربي وسعدى وهندا » وغيرهن من دواعي
السرور وأسباب الحبور ... غير انهم لو علموا العاقبة لقالوا : انها شرور وأية
شرور .

ومن آكـد الوجـبات في هـذا الدـور أـن يـترك الوـالدان كـل خـصـام وـجدـال ، وـيـنـبـدا كـل «حـلـقـيـ» يـؤـدي إـلى التـفـور ، وـذـلـك بـأن يـعـرـف كـل مـن الرـوجـين مـا لـاحـدـها عـلـى الآخـر مـن الـحـقـوق فـيـوـدهـا . وـالـكـان خـصـامـهـا وـتـغـافـلـهـا ضـرـبة قـاضـية عـلـى الـبـيـنـ وـالـبـنـاتـ ، لـأـنـمـ يـحـفـظـونـ مـنـ الـآـبـ وـالـأـمـهـاتـ روـاـيـاتـ سـيـئـةـ يـتـلـوـنـهـا مـتـىـ بـلـغـواـ بـلـغـ الـحـيـةـ الـرـوجـيـةـ .

ولـيـعـمـ ان تـرـبـيـةـ الـوـالـدـ بـيـنـ ظـهـرـانـيـ أـسـرـتـهـ «ـعـائـلـتـهـ» هـوـ خـيـرـ لـهـ وـأـلـوـلـيـ مـنـ دـفـعـهـ إـلـىـ الـرـبـيـاتـ ، يـتـصـرـفـ فـيـهـ بـسـوـءـ الـخـلـاقـهـ وـشـرـ عـادـتـهـنـ وـإـنـاـ لـنـرـجـوـ مـنـ السـيـدـاتـ انـ يـتـحـلـمـنـ تـلـكـ مـشـقـةـ ، مـشـقـةـ التـرـبـيـةـ وـالتـهـذـيبـ بـأـنـهـمـنـ ، فـيـ الـحـقـيـقـةـ رـاحـةـ وـحـسـنـ مـسـقـبـلـ لـأـلـوـادـهـنـ .

التـرـبـيـةـ الـمـدـرـسـيـةـ

هـنـاكـ دـورـ ثـانـ «ـوـتـرـبـيـةـ ثـانـيـةـ» ، وـهـوـ دـورـ التـامـدـةـ وـالتـرـبـيـةـ الـمـدـرـسـيـةـ . وـهـوـ دـورـ يـحـبـ الـاهـمـامـ بـهـ كـاسـبـتـهـ ، لـأـنـهـ نـتـيـجـةـ مـاـ تـعـلـمـهـ مـنـ أـبـوـهـ ، وـمـاـ اـخـتـبـهـ مـنـ اـخـلـاقـهـ وـاـخـلـاقـ اـسـرـتـهـ . فـاـنـ كـانـ مـنـ حـسـنـ حـظـهـ اـنـ وـجـدـ فـيـ مـدـرـسـةـ مـسـتوـنـاـةـ الشـرـوـطـ ، مـنـ حـسـنـ التـرـبـيـةـ وـالتـهـذـيبـ ، فـتـلـكـ سـعـادـةـ فـوـقـ سـعـادـةـ . وـاـنـ وـجـدـ فـيـ مـدـرـسـةـ فـسـدـتـ اـخـلـاقـ طـلـابـهـ وـالـقـائـمـينـ بـاعـبـاـهـ ، فـهـنـاكـ الطـامـةـ الـكـبـرـيـ ، وـالـبـلـيـةـ الـعـظـمـيـ ، اـذـ هـنـاكـ يـتـصـرـفـ طـلـابـهـ بـأـخـلـاقـ بـعـضـهـمـ وـالـعـلـوـنـ بـأـخـلـاقـ تـلـامـيـزـهـمـ .

وـلـاـكـانتـ المـدـرـسـةـ مـنـزـلاـ ثـانـيـاـ لـلـنـاشـيـهـ وـجـبـ اـنـ تـكـوـنـ كـمـزـلـهـ الـاـصـلـيـ ، مـعـهـدـاـ لـلـاـخـلـاقـ الـكـرـيـةـ وـالـسـجـاجـيـاـ الـفـاضـلـةـ . وـإـلـاـكـانتـ ضـرـبةـ قـاضـيةـ عـلـىـ الـتـلـيمـ ، بـلـ شـرـأـ عـلـيـهـ مـنـ الـأـفـعـيـ وـالـوـلـحـشـ الـضـارـيـ . لـهـنـاـ وـجـبـ عـلـىـ الـاـبـ اوـ الـوـليـ اـنـ يـخـتـارـ لـوـالـدـ اوـ لـقـمـ عـلـيـهـ مـنـ الـمـدـرـسـ اـسـمـاهـ تـرـبـيـةـ وـارـقـاهـ تـهـذـيبـ . وـذـلـكـ هوـ اـولـ ماـ يـحـبـ اـنـ يـقـمـ بـهـ حـيـنـ يـرـيدـ اـدـخـالـهـ فـيـ مـدـرـسـةـ . وـاـمـاـ اـمـرـ الـتـعـلـيمـ فـهـوـ شـيـءـ قـاتـيـ بالـاـخـافـةـ اـلـىـ التـرـبـيـةـ .

المـدـرـسـ كـثـيرـةـ فـيـجـبـ عـلـيـنـاـ اـنـ نـسـعـيـ لـاصـلـاحـهـ ، وـبـذـلـكـ الجـهـدـ لـاجـيـادـ رـوحـ الـفـضـلـةـ وـالتـهـذـيبـ الـعـالـيـ فـيـ كـلـ حـجـرـ مـنـ اـحـجـارـهـ ، وـكـلـ خـشـبـةـ مـنـ اـخـشـابـهـ . وـبـذـلـكـ نـضـمـنـ مـسـقـبـلـ اـبـانـتـهـ .

سعـادـةـ الـوـطـنـ - مـعـشـرـ أـبـانـهـ - اـنـ نـدـأـبـ فـيـ تـهـذـيبـ الـاـحـدـاتـ ، وـتـرـبـيـةـ الـصـيـبـانـ قـبـلـ اـنـ يـأـتـهـمـ بـهـ يومـ لاـ يـنـفـعـ فـيـهـ مـالـ وـلـاـ بـنـونـ ، وـهـوـ يومـ الـجـهـادـ الـاـكـبـرـ فيـ مـعـتـرـكـ الـحـيـاةـ الـمـسـتـقـبـلـةـ . فـالـتـرـبـيـةـ لـاـ تـؤـثـرـ إـلـاـ اـنـ كـانـتـ مـنـ الصـغـرـ كـاـمـدـنـاـ . وـاـمـاـ تـرـبـيـةـ الشـيـانـ بـعـدـ اـنـ تـأـلـصـ فـيـهـ شـأـفـاتـ الـجـهـلـ وـفـسـادـ الـاخـلـاقـ فـيـ عـدـيـةـ . وـأـعـسـرـ مـنـهـاـ تـأـدـيـبـ الـكـهـوـلـ وـالـشـيوـخـ ، وـهـوـلـاءـ قـدـ يـنـفـعـهـمـ التـعـمـدـ بـالـوـعظـ وـالـاـرـشـادـ مـنـ حـيـنـ اـلـآـخـرـ :

قدـ يـنـفعـ الـاـدـبـ الـاـحـدـاتـ فـيـ صـفـرـ

وـلـيـسـ يـنـفعـهـمـ مـنـ بـعـدـ اـدـبـ

إـنـ الفـصـوـنـ إـذـاـ قـوـمـهـ اـعـدـلـتـ

وـلـاـ يـقـوـمـ لـوـ قـوـمـهـ اـخـشـبـ

تـلـكـ هيـ التـرـبـيـةـ الـأـوـلـيـ فـيـ هـذـاـ دـورـ : دـورـ الـطـافـلـوـلـ اوـ دـورـ التـهـذـيبـ الـتـنـزـلـيـ اوـ الـأـسـرـيـ . وـهـوـ دـورـ يـحـبـ التـنـبـهـ لـهـ اـشـدـ التـنـبـهـ ، اـذـ عـلـيـهـ مـدارـ وـحـيـ الـآـمـالـ .

الـتـرـبـيـةـ الـمـلـزـلـةـ خـيـرـ وـاسـطـةـ لـبـثـ الـمـبـادـيـهـ القـوـيـةـ فـيـ نـفـوسـ النـابـتـةـ ، وـأـفـضلـ سـبـبـ يـرـقـيـهـمـ فـيـ سـلـمـ النـجـاحـ وـالـخـيـرـ . وـفـيـ اـبـلـهـ فـتـأـيـرـ الـأـسـرـةـ «ـالـسـائـلـةـ» فـيـ طـبـاعـ الـنـاسـيـنـ وـعـقـوـهـمـ اـمـرـ لـاـ يـنـكـرـ . بـلـ اـنـ طـبـاعـ الـأـبـاءـ رـبـاـ تـنـقـلـ فـيـ بـنـهـمـ بـطـرـيقـ الـأـرـثـ ، حـتـىـ ذـكـرـوـاـنـ بـعـضـ فـلـاسـفـةـ الـأـمـيرـكـانـ (ـأـولـيـقـيـهـ وـبـنـدـلـ هـلـسـ) سـُـئـلـ عـنـ مـيـدـأـ تـرـبـيـةـ الـطـلـلـ فـقـالـ : «ـتـبـتـدـيـهـ تـرـبـيـةـ الـطـلـلـ قـبـلـ اـنـ يـوـلدـ بـيـانـةـ سـنةـ» يـوـيدـ بـذـلـكـ اـنـ تـرـبـيـةـ قـوـاتـ يـرـثـيـهـ الـوـالـدـعـنـ آـبـانـهـ ، كـاـمـدـ فـيـ الـحـدـيـثـ الشـرـيفـ : «ـالـرـخـاعـ يـغـيـرـ الـطـبـاعـ» - فـاـنـ لـمـ تـمـسـنـ اـخـلـاقـ الـوـالـدـنـ وـالـوـالـدـاتـ اـثـرـ ذـلـكـ فـيـ اـلـوـادـهـ ، لـهـنـاـ يـحـبـ عـلـيـهـ الـرـبـيـنـ وـالـمـرـبـيـاتـ اـنـ يـتـكـلـفـوـ اـخـلـاقـ الـحـسـنـةـ - وـاـنـ لـمـ يـكـوـنـوـاـ مـنـ اـهـلـهـ - حـتـىـ تـنـطـعـ فـيـ مـحـيـةـ الـوـالـدـ صـورـ السـجـاجـيـاـ الـحـسـنـةـ ، وـهـيـاتـ اـلـاـخـلـاقـ الصـحـيـحةـ .

من يُهُنْ يسهل الهوان عليه ما جرّح بيت إيلام

الثانية الصحيحة التي جاء بها الشرع ، واقر عليها العقل ، ودل علىها الاختبار ، وأمر بها علماء التربية والنهذيب ؛ تكون تعوييد النشء الفضائل ، وارضاهم الحامد ، وتنديتهم بما يثير الذهن ، ويوسع نطاق العقول ، مع ابن القندية ودروس العلم ، بلا مخوف ولا اهانة ولا ضرب ، بل بالترغيب والتشجيع ، وتمثيل الفضائل بصورها الكاملة ، ومستقبلاها الحسن ، وتمثيل الرذائل والأخلاق السافلة والكسل بصورها القبيحة ، ومستقبلاها السيئة .

وهناك أمر مهم في التربية ، وهو ان لا يتكلم أحد بحضوره الاطفال والنشءين بما ينافي التربية القوية من الناطق الخشن والبذاء ، وكلمات التحفيظ والتوبيل ؛ كالسبع والجن والعفاريث ، وغير ذلك مما يحدث في نفوس الناشئة أثراً سيئاً لا يجوزه كروء الاعوام ، ولا مرور الزمان . لأن ما ينطبع في الناشئ لا ينفع إلا ببناء جسمه ، ولا أدرىي ان كان يصاحب روحه بعد موته أيضاً .

أما ما يفعله بعض من لا خلاق لهم : من بث جرائم الفساد في أولادهم؛ وذلك لأن يتكلموا أمامهم بكلمات السفاهة ، وعبارات الواقحة ، فهو مما لا يجد بالاعتراض السكتون عنه إن رأى مثل ذلك ، لأنه من باب المكر الذي تجحب إزالتها بأيّة وسيلة من الوسائل .

ال التربية العملية

متى تم للناشئ هذان الدوران : دور التربية المنزلية ، ودور التربية المدرسية ، ينتهي إلى دور ثالث هو أشد الدوار وأجرارها بالاعتناء ، إلا وهو دور الجهاد في معركة الحياة ، دور الجسد والعمل ، دور السعي بلا ملل . وهو نتيجة الدورتين السابقتين . فان كانا حسنين فهو حسن ، والضد بالضد . غير أنه يلزم التنبه لامر عظيم . وهو انه لا يكفي ان تكون التربية الاولى والثانى ساميتين فقط . بل يجب ان يكون دور الجهاد متزهاً ومقدساً . وإلا خاع التعب الماضي 'سدى' ، لان

نصلحها باصلاح القاعدين باعبيها ، وذلك بأن نحمل روؤسها على ان يختاروا لها الاكفاء من المعلمين والمربين ؛ وأن لا ينتخبوا لها إلا من هو ثقة معروف بأدائه وأخلاله ، لأن التلاميذ أمة بين يديه . وذلك بأن لا يكون النبي أحق ، أنا ، وسخ الذيل . بل يكون طاهر السيرة والسريره وقوراً ، بحسباً للتفتح ، وأن يكون من أصحاب الدين والوجودان . ولست أقصد أن يكون النبي شيخاً أو كاهناً ، كلما ، وإنما أعني بذلك أن يكون متابعاً لل الحق . بحسباً للغير والسلام ، ذا وجдан صحيح ، واحلائق فاضلة ، وعواطف شريفة ، يسير بتلاميذه نحو مَا يعود عليهم بالسلامة والنجاح . فإن فعلنا غير ذلك فعلى مستقبل النابتة السلام .

وسائل التربية في دوسي الإسراء والمداومة

مختلف وسائل التربية وأسباب التهذيب باختلاف مشارب المربين :

فمنهم من يرى أنها لا تكون إلا بالقصوة والشدة والضرب ، وغير ذلك من الوسائل التي كانت محظورة في أيام الاستبداد ، فأحررها أن تكون كذلك في أيام الحرية والعدل .

النهذيب على تلك الصورة من الاعمال الوحشية ، وهو بقية من بقايا الممجيئ ، لأنها تفقد الناشئ ذلك الخلق الكريم ، وهي الشجاعة التي هي ملاك كل فضيلة . ولست أعني بالشجاعة أن يكون وحشاً يستثنى مدته أو مسدسه عند افل طاريه كلما ، وإنما أريد بالشجاعة تلك الروح التي تحفز المرء للدفاع عن وطنه بقلمه أو ماله ، بل بسلاحه وروحه ؛ ان طرأ على البلاد طارئ اجنبي يريد بها شرماً (لا قدر الله ذلك) .

ومنهم من يرى ان التربية يشم النشء وسهامهم وتخويفهم ، وذير ذلك ما يرمي في نفوسهم الذل وأهوان الصغار . فال التربية على هذه الصفة تفقد الناشئ كل شعور وإحساس ، وتتزعزع عنه كل صفة من صفات الخير والكمال ، وتجعله عرضة لكل مؤثر ، وآلة صماء بيد كل مدبر ، فلا يتحرى لأمر ، ولا يتأثر من

الحكومة لا تقدر ان تمنع الشخص من عمل يضر نفسه لا غير . بل هي مفروضة في منعه من كل ما يضر به وبغيره . الا توى انها لو رأت احداً يريد ان يقتل نفسه فعل تدعه يفعل ما يشاء او تمنعه من ذلك ؟ لا شك انها تمنعه ، فكذلك لو رأته يعطي القهار والشلل فهي تمنع منها ، فان لم يكن المنع حباً بنعاعطي هذه الامور ، فهو لحرص على ان لا يراه غيره فعمل مثل عمله ، اذ لو تركوه وشأنه ، فعمل غيره بعمله ، يصير الضرر عاماً لا خاصاً .

⑤

وصنوفة القول ان التربية الصحيحة للأخلاق والشعور ، هي أساس الفضائل ونباس التقدم ، وسلم الترقى ، وروح النجاح . وان ترقى المجتمع والامة ، إنما يكون بحسب الهم ومقدار العزائم ، ولا تكون العزائم القوية ، والهم العالية ، إلا بتصحیح المبادئ ، وتقویم الأخلاق . وذلك يكون بزرع بذور المكالات الصحيحة في عقول النابتة ، وتعويذهن الفضائل منذ نشأتهم ، حتى يكونوا رجال المستقبل . مع ملاحظتهم في دور الجهد والعمل الى ان يؤمنون بجانبهم .

ويعجبني في هذا المقام قول الفيلسوف الظوايراني :

« كل جيل من البشر هو عنوان ما قبله ، ومقدمة ما بعده ، وشيان كل عصر كبار آتيه وصغار ما فيه . فكيفما كانت مقدمات الأعمال في أمة ، كانت نتيجة الأعمال فيها » .

هذا الدور الثالث دور اجتماع شرة الجهد والتجدد والتربيتين اللتين تقدمتا له . فان لم نحسن اقتطاف هذه الشهارات تتدلى شجرة الحياة .

كيف تكون التربية في هذا الدور ، دور الجهد والعمل ؟ وكيف تجنبني تناقضها ؟

ـ تكون التربية في هذا الدور كسابقها بالحافظة على الآداب الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة ، والسعى وراء تنمية القوى العقلية والادبية ، بالاختبارات والمشاهدة والمطالعة ، وغير ذلك من وسائل ترقية النفس وإذكاء نار الحميم .

وهناك امر مهم جداً وهو ان يتعد الشاب عن اقوام فسدت اخلاقهم ، وخيست خيائاتهم ، ليس لهم إلا الفساد وتدنيس شرفهم واغراضهم بقادورات المؤاخذ والحاديات واليسير « القوار » .

واني لاعلم طائفة من تربوا تربية حسنة في دور الاصحرة « العائلة » والمدرسة ، ثم خرجوا منها الى دور العلم والجهاد ، فأحاط بهم قوم فسدو اخلاقاً ، والخطوا آدآياً ، فأفسدوا عليهم أخلاقهم وشرفهم ، وغمسوهم في حمأة الشلور والمحكرات ، ففسروا اموالهم وعقولهم واجسامهم وثقة امتهن لهم . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

يجب ان تلتفت الى هذا الدور النقائص متيقط حاذق حذر . والتربية في هذا الدور هي لاجحات أكثر منها للآباء . فيجب على القوة الحاكمة ان تبحث عن الشلور واصحاجها ، وتندب عن مواضع قتل العقل والشرف ، واهلاك الاجسام ، وانلاف الاموال ، فقتلها . وان لم تفع ذلك ، ضاع مستقبل الشبان ، ورجعوا بخزيٍّ حذرين بعد عناء التربية .

أيتها القوة الحاكمة لا غذر لك في اهال الشبان ، وعدم النظر إلى تحسين احوالهم : بنعمهم بكل ما يضر بدينهن وهنفهم واجسامهم وعقولهم ، فاحرصي على تخلصهم مما هم فيه من الفساد والفحوج . ولا تتوهبي ان القانون يبيح امثال هذه الشلور والمحكريات ، كلام ، ان القانون اباح الحرية الشخصية بشرط ان لا يتعدى ضررها الى الغير . وافعال الشبان متعد ضررها الى غيرهم . ولا يطان ظان ان

لأنانية وحب الذات

خلق الله الانسان ، وأعطاه من الافرak ما يستعين به على مكافحة اهوال هذه الحياة ، ومصادمة المصاعب التي تحول بينه وبين جر ما ينفعه ، ودرء ما يضره . وهداه التجدين ، وأوضح له الطريقين ، وسن له من النظمات ما لو اتبعه لكان سعيداً في حياتهين . أرسى له الرسول ؛ فأبان له على أسلنته السبيل . وعرض عليه الامانة التي أبىت ان تحملها السماوات والارض ، إباءً طبيعياً لعدم الاستعداد لذلك لأنّه لم يودع فيها ما يجعلها أهلاً لتلقي التكاليف التي يتربّع عليها الثواب والعقاب ، ويحملها الانسان ، وتلقّتها بما يُخص به من جوهر العقل ؛ وسداد الرأي وسلامة النظرية : اذا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال ، فذرين ان يحملها ، وأشققون منها ، وحملها الانسان «فخذن الله في امانته »، واضاع ما اخذه عليه من العهود والمواثيق «إنه كان ظالماً جهولاً » طغى وبغى وترك النهج السُّوى ، طمعاً في إرضاء الموى ، والنفس الامارة بالسوء . فسُدّت أبواب السعادة الحقيقة في وجهه ، وسوف يندم على ما فعل ، ولات ساعة مدمٌ .

ما السبب الذي دعاه إلى ذلك يا ترى؟ وما العلة التي قعدت به عن الطيران في
مجاهد الفضائل، إلى السفيف^(١) على حضيض الرذائل، وحادثة به عن سلوك الصراط
المستقيم، إلى الرتم الوخيم؟

— لو دققنا الفكر وأمعنا النظر ، لرأينا ان السبب لذلك ، والصلة الكبرى لاقتحامه هذه الملك ، هو حبّ الذات على غير وجهه ، والاستئثار بالمنفعة دون غيره ، والأفانية التي تتصحّب به من مهدّه إلى قبره . وعن ذلك تتشاءم سائر الوسائل المقصودة ، والأخلاق المندهومة .

حسب الذات يطلق على معينين: أحدهما مذموم والآخر مدحور مقبول معقول.

سنت ایکٹریور مارٹینی ووجہ اور مس .

— ६४ —

- 64 -

أراني قد جنبت بعامل التصور ، ومررت في عالم الخيال ، فأستجديك أياها
القراء عندها .

نعم ، ولو لا حبِّ الذات لما قام الدينِ قافلة ، بل ولا عبد الله في أرضه ، ولا
سمعت للكرام اسمًا ، ولا رأيت للشجاعة والمرودة رسمًا . فلو ان حقًّا وعنترة
والسموأ ، لم يكونوا من يحبون أنفسهم ، بل من هم كأغون مجدهم ، لما أبلسوا
أرواحهم توبًا من المدح لابليه اولى الدهر وتاجًا تمنى التريا ان تكون في مجده لولا
حبِّ الذات وبقاء الذكر المخلد المسطر على صفحات الكون ، لما دعَت الاول
نفسه الى ان يوجد بهما في بعض الاختيارات ، ولما خاض الثاني العسام ، ورغبت في
عنق الاسمر الخطوار ، ومصاحبة الايض البثار ، غير مبال بالکوارث ، ولا
مهتم بالحوادث ، يستنقى بسيفه ان اظلم الليل ، ويستصبح بستان رمحه انت
اختلطت حنادس الخطوط بظلالات الليل . ولو لا حبِّ الذات ، وطيب المدح ،
وعظمة الفخر ، لما جاد ثالثهم بولده وفلذة كبدته ، وآخر حبِّ الشهرة والتقويم على
روح وله . وما كان لو سلم تلك الدروع ، لو لا ما قدمناه من حبه لذاته ، ليقال
انه امين ، صرف دون حظٍ ما ائتم من روح نجله .

وهناك قوم ليسوا في العير ولا النغير ، فشرعوا حبِّ الذات على غير الوجه
الذي فسره به أصحاب الرأي الاول والثاني ؟ فأدّى بهم حبُّهم لذاتهم ان تعاكلوا
على ابناء جنسهم ، واحتقروا من سواهم . فظنوا ان الله لم يخلق غيرهم ؛ وأن ما
عداهم خيالات وأوهام ، او حيوانات عجم لا يستحقون الاعلام ، فهم كالانعام ،
او عبد لهم والسلام . وحسبيهم انهم بذلك محبوبي لذاتهم مكرمون لها ، ولو عدوا
انهم بفهتم هذا أغضبوا الخالق والخالق ، بل لو دروا ان هذا ليس من حبِّ
الذات في شيء ، بل هو من بغضها وكراهية اطهير لها ، لأنقعوا عن ذلك ، ورجعوا
عن العبور في هذه المسالك ، التي توصل إلى المهالك .

من كان هذا دأبه مع ابناء جنسه ، وتلك فعلته حين هو منهم ، فقد فتح لهم
طريقاً ليس لكوا في هجوده واللذ فيه ، ويتبعوه الاحتقار حيث مال ، والنشور منه
في الحل والترحال ، وهو غافل عن الغلام ، يظن لفڑط جهله والاذانة وعجبه
بنفسه ، ان كل امم كأمة مدح ، وفعلمهم جله تعظم وتبجيلا .

يناله من عائدة ، بل لانه حلق عليه مرة في عمره ، او اصابه منه أذى ولو لا يعيها
به . ولا أبويه كثروا منا من هذه الوصمة ، فان البعض اذا حصل بينه وبين احد
نفور ما تراه يزور القول ويختلق الاكاذيب ، لاثبات ذنب على من بينه وبينه
حزارة او نفور ، تشفيًا منه وانتقاما ، ولكن الحق لا يخفى ولو ستر بأسجاف
الباطل الكثيفة ، وسائل الوهابيات الغليظة ، فلا يثبت ان يزول هذا الغطاء ،
وينتهك ذاك الرين ، فتبدي الحقائق بأجلٍ ظاهرها ، وأبغيٍ خلتها وحملها .

نعم هذه حالة الناس اليوم : كلٌ يجرُّ النار الى قرصه ، ويطلب الماء الى غرسه .
ولو علموا ما في الآية بذلك من الفرد المبين ، لا لفروا عنه ثائين . ومع ذلك
فهم يظهرون خلاف ما يطعون ، ويقولون ما لا يفعلون .

واما حبِّ الذات بالمعنى الثاني : فهو ان يسعى المرء لما يعود عليه بالنفع
بشرط ان لا يتحقق بغیره ضررًا . فهو بهذا المعنى يندو طلوب ، بل فضيلة عليها
قيام امرٌ المدنية وعماره هذا الكون ، اذ من الحال ان يجعل احدٌ عملاً لا ترجع
له فائدة دنيوية او أخرى . ولو ان هذه الثانية امرٌ وهي ، يخرج من الافوار ،
فيحصل على الجنة الموعودة ، فيجاير في النساء ؟ كالنساء والشأن .

انقلان ان اصحاب هذه المعامل العظيمة ، والاختراقات الجسيمة ، لو لا حبِّهم
لذاتهم ، هل اتوا بغيرات هذه المدينة التي شاهدواها بابصارنا ، ونحكم باستحسنانها
اجلاً بيصيّرنا ؟ . وهل كنا قد رأينا الواخر تختصر بباب البحر ، تقل ما عليها
من الانقلاب والسفار ، الى بدمٍ يكُون بالغيه الا بشق الأنفس ؟ . وهل كـ
ابصرنا القطار ، يقطع السهوب والسفار ؟ ، قد اخذ سبيله في البر سهلًا وسرًا ،
فأراها امراً جيّداً ، فان ارادته وقد أطاق له العنان ، فلن تستطيع له طلبها . قارة
يصوّب وطوراً يصعد ، وأخري ييدي زفيرًا وشهيقًا ، وآونةً يبكي لفقةً مشوقةً
وآناً تستولي عليه الدّعة والحمل ، فيدخلُ الى السكون وقطع العوبل . يسير الى
حيث يُراد به لا كـ هو يريد ، وهذا هو شأن المشتاق العميد :

وما هو الا كاشوق حداده غرام افاته جنوب الجبائب
وهذه بخارات الجوى ودخانه ونيرانه في الصدر تحت التراب .

يُعلَنُ هذَا الجاَهِلُ العَبَّابَمْ ؟ وَمَنْ هُوَ عَلَى شَاكِلَةِ مِنَ الطَّغَامْ ، أَنْ هَذَا مِنْ بَابِ تَكْرِيمِ النَّفْسِ ، فَمَنْ اتَّصَفَ بِهِ فَهُوَ ذُو نَفْسٍ أَبْيَةٍ ، وَرَبِّا يَنْشَدُ : « وَمَنْ لَا يَكْرِمُ نَفْسَهُ لَا يَكْرِمُ » وَيَقُولُ بِعَنْهُ التَّرْوِيعُ عَنِ النَّاسِ وَالْتَّكْبِيرُ عَلَيْهِمْ وَاحْتَقَارُهُمْ : إِمَّا لِيَخَافُوا بِأَسَهْ وَشَدَّتْهُ ، أَوْ لِيَخْسِعُوا لِجَاهِهِ وَثَرَوَتِهِ . لَا يَوْقُرُ كَبِيرًا لِسَنِهِ ، وَلَا عَالَلًا لِضَلَالِهِ ، وَلَا يَوْحِمُ حَفِيرًا لِضَعْفِهِ .

حُكْمِيَّ أَنْ مَطْرُوفَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ الشَّجَرَةِ نَظَرَ إِلَى الْمَهَابِ بْنِ أَبِي صَفْرَةِ ، وَعَلَيْهِ حَلَّةٌ يَسْجِمُهَا وَيَئِسِيُّ الْحَيَّلَاءِ ، فَقَالَ : يَا لَيْلَهُ أَنْهَا مَا هَذِهِ الْمَشِيشَةُ الَّتِي يَيْضَضُهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ فَقَالَ الْمَهَابُ : أَمَا تَعْرِفُنِي ؟ فَقَالَ : يَلِي أَعْرِفُكَ .. اولَيْكَ نَطْفَةً مَذْرَةً ، وَآخِرَكَ جِيَةً قَدْرَةً ، وَحَشْوَكَ قَبَّاهَا بَيْنَ ذَلِكَ بُولَ وَعَذْرَةً . فَأَخْذَ ابْنَ عَوْفَ هَذَا الْكَلَامَ فَنَظَمَهُ شِعْرًا فَقَالَ :

عَجِيبٌ مِنْ مُعْجِبٍ بِصُورَتِهِ وَكَاتِبٍ بِالْأَمْسِ نَطْفَةً مَذْرَةً
وَفِي غَدِّ بَعْدِ حَسْنِ صُورَتِهِ يَصِيرُ فِي الْحَدَّ جِيَةً قَدْرَةً
وَهُوَ عَلَى تَيْهِ وَنَفْوَتِهِ مَا بَيْنَ ثَوْبَهِ يَحْلِلُ الْعَذْرَةِ

وَكَانَ الْمَهَابُ أَنْفَلَ مِنْ أَنْ يَخْدُعَ نَفْسَهُ بِهَا الْجَوَابَ الْغَيْرِ الصَّوابِ ، وَلَكِنَّهَا زَلَّةً مِنْ زَلَاتِ الْإِسْرَاسِ وَخَلِيلَةً مِنْ خَطَايَا الْأَدَالَةِ .

وَشَوَّاهَدَ ذَلِكَ كَثِيرًا بَيْنَنَا الْيَوْمَ ، فَأَدَرَ طَرْفَكَ فِي هَذَا الْعَالَمَ ، وَأَخْتَصَ بِهَا الْحَكْمَ بْنِي آدَمَ ، تَرَأَ صَدْقَ النَّتْيَاجَاتِ ، مِنْ هَذِهِ الْمَقْدَمَاتِ ، يَفْعَلُونَ كُلَّ ذَلِكَ اعْتَادَهُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ يَابِ تَكْرِيمِ النَّفْسِ وَالْإِبَاءِ . الْمَيْدَرُ هُؤُلَاءِ الْمَجْبُونُ بِأَنْفُسِهِمْ أَنْ مَعْنَى تَكْرِيمِ النَّفْسِ ، هُوَ أَنْ يَحْلِلَهَا عَلَى مَعْلَمِ الْأَمْرِ ، وَيَجْهَدُهَا لِلصَّبْرِ تَحْتَ أَعْبَادِهِ ، وَيَسْدِي الْأَجْلِيلَ إِلَى النَّاسِ ، وَيُعْنِي عَنِ زَلَاتِهِمْ مَعَ الْقَدْرَةِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ . وَإِنْ يَبْذِلَ جَيْدَهُ وَطَاقَتِهِ دُونَ اِيَّاصَ الْحَيْرِ الْيَهِيمِ ، وَدُفعَ الْمَضْرَةَ عَنْهُمْ .

هَذَا مَعْنَى حُبِ الدَّازِنَاتِ وَتَكْرِيمِ النَّفْسِ . فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْقَ الْإِكْرَامَ مِنْهُمْ ، وَرَفَعَ الْمَزْلَةَ بِيَنْهُمْ ، وَإِنْ تَكُونَ لِهِ الْكَلْمَةُ الْعَلِيَّةُ ، وَالْأَمْرُ النَّافِذُ يَقُولُونَ أَنْ قَامَ ، وَيَقْعُدُونَ أَنْ قَدَّ :

(١) الانكاث : الالبة البالية التي تتعذر التنزل ثانية و مفردها انكاث

وَمِنْ يَكْبِلُ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ يَفْرَهُ وَمِنْ لَا يَقِنُ الشَّمْ يُشْتَمِ
وَمِنْ يَكُنْ ذَا فَضْلٍ فَيَبْغِلُ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنِيَ عَنْهُ وَيُنَذِّمُ
وَمِنْ يُوْفِرُ لَا يُنَذِّمُ وَمِنْ يُهْدِ قَلْبَهُ إِلَى مَطْمَنَ الْبُرُّ لَا يَتَجَبَّجُ
وَإِنْ فَعَلَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَسَاءَ إِلَى نَفْسِهِ وَنَبِيِّ جَنَسِهِ . وَيَكُونُ قَدْ أَصْرَ بِنَفْسِهِ
مِنْ حِيثُ لَا يَشْعُرُ ، وَجَنِي عَلَيْهَا مِنْ حِيثُ لَا يَدْرِي . فَيَكُونُ « كَالِيَّ نَقْضَتْ
غَزَّهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ الْإِنْكَاثَةِ » هَذَا إِنْ كَانَ لِهِ غَزَلٌ ، وَقَدْ يَنِي يَدِي سِيَّاشَتِهِ
حَسَنَاتِهِ .

حُبُّ الدَّازِنَاتِ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا سَافِلُ ، سَاقِطُ الْمَرْوَةِ وَالدِّينِ ، نَاقِصُ الْعُقْلِ ،
مَفْتُونُ بِالْأَذْيَلَةِ . بَلْ هُوَ عَيْنُ الْأَعْجَابِ الَّذِي أَنْكَرَهُ اللَّهُ وَالْمَقْلَاءُ ، وَشَدَّ الْوَعِيدَ عَلَى
مِنْ تَرْدِي بِرَدَائِهِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْقَدِيمِ : « الْكَبِيرُوْرَهُ رَهَانِي وَالْعَظَمَةُ اَزَارِي
فَنَنْ نَازِعِي فِيهَا هَصْمَتَهُ » وَكَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَخْرَى . « ثَلَاثَ مَهَلَكَاتٍ شَحُّ مَطَاعِي ،
وَهَوَىًّ مُسْتَعِنٍ ، وَأَعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » وَالآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ تَكْفِي مِنْهَا بِقَوْلِهِ
تَعَالَى : « وَلَا تَقْعُشُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجَيَالَ
طَوْلًا » وَلَا تَقْعُشُ خَدْكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَقْعُشُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، أَنَّ اللَّهَ لَا يَجِدُ كُلَّ
مَخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصَدَ فِي مُشَيْكَ ، وَأَغْضَضَ مِنْ صَوْتِكَ ، أَنَّ اَنْكَرَ الْأَصْوَاتَ
أَصْوَاتَ اَتَيَّرِ .

وَمَا الْإِبَاءُ الَّذِي يَفْسُرُونَهُ الْأَعْجَبُ وَكُبُورُ ، وَجَرُّ لَذِيَّلُ الْفَخْرِ الْبَاطِلُ ، وَالْأَبْدُ
الْوَهْمِيُّ ، فَيَمْثُلُونَ نَقْيَصَ الْأَعْجَابِ ، تَحْتَ سَائِرِ الْأَمْتَانِعَ عَنِ الضَّمِّ ، وَاسِمُ الْإِبَاءِ
الْمَحْمُودَ . وَمَا الْإِبَاءُ وَالْأَمْتَانِعَ عَنِ الضَّمِّ ، إِلَّا أَنْ تَلْبِسَ مَطَارِفَ الْفَضْلَةِ ، وَتَنْزَعَ ثُوبَ
الرَّفِيلَةِ ، وَتَبْيَعَ الْحَقَّ إِيَّاهَا كَانَ ، وَتَنْذَلُ النَّفْسُ فِي طَلْبِ الْكَبَالِ ، وَتَنْبِهَا تَحْتَ عَبَهُ
الْأَبْدُ ، اِتَّنَالَ بِذَلِكَ عَزَّةِ الْأَبْدِ وَفَخَارِ الْأَمْدِ . وَلَا اَقْصَدَ بِتَنْذِيلِ النَّفْسِ وَاهَانَهَا إِنَّ
يَكُونُ الْإِنْسَانُ خَائِعًا تَحْتَ زَيْرِ الْأَغْيَارِ . يَصْفُعُ فَلَا يَعْتَبُوْرُ ، وَيُوْسِقُ بِسَهْمَ
الْأَكْرَمَاتِ ، غَيْرَ مُبَالِيٍّ بِمَا يَعْتَرِضُهُ مِنْ الْعَقَبَاتِ ، وَلَا عَالِيٍّ بِمَا يَحْوِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَقْصَدِ
مِنْ الْخَوْفَاتِ .

هذا هو حب الذات ، وهذه هي فضيلته ورفيلته ، فأعيد قومي بالله ان يكونوا مع من فسروه على غير وجهه ، ولم يدركوا حقيقة كنهه .

أحبوا أنفسكم واسعوا لنفعة ذواتكم ، وترغوا عن القائئن وقرىء السوء ، لكن لا تدعوا الآليبس بغضِّ الغير والضرر بهم سبلاً يجوزه ، ولا لواسوس النفس الأمارة بالسوء طريقاً تعبره ، فتأمركم باحتقار سوابكم ، والترفع عن ابناء بنفسكم الهم لا ان يكُونوا ان عرضاً بنقض الدين والعقل ، ونساد الاعراق ، والمثل ملتكارات الأخلاق . ومع ذلك فلا ينبغي احتقارهم والازدراء بهم لأنفسهم . بل ان الترفع عن افعالهم ، والابتعاد عن شائن افعالهم ، كافيان في احتقار ما هم فيه من فاسد احوالهم .

وإياكم ان تدعوا للعجب والكبور على عقولكم سلطاناً ، فقد قال بعض الحكماء : « عجب المرء بنفسه احد حساد عقله » وأعيدكم بالله ان تكونوا من الحاسدين .

جذوا واجتهدوا وتقدموا ، فقد كفانا ذلك الخول الطويل ، والسبات الذي كاه يُدعى بالدائم او دعى ، وحسينا ذلك الانحطاط الذي جعلنا آخر الأمم بعدان كنا القابضين على نوادي العلم ، والجالسين على منصات الفضل . والنها يرجع في المشكلات ، وعليها يعتمد في المهمات ، وبنا شناط الصناعات ، وفيها محل المكرمات . ترکنا ذلك الهدي الواضح ، والعقل الراجح ، ولمنا عن تلك المنهاج الى هذا الجهل الفاضح ، وسلكتنا مقاوزة مظلة الارجاء ، وطريقاً يصل فيها الى حرثيت^{١١} ونبذنا العلوم والفنون والصناعات ، والأخلاق وتحسين العادات ، تقليداً لالهوا ، وهوى للتقليد . وما هذا أمنا ، ولا لذلك خلقنا . وقد حل علينا من جراء ذلك :

اعباء هم من ثقال الآسى لو حلتها الشم لم تستطع
ولو بدت للشمس في أفقها ارزاؤنا الدهماء لم تستطع
ولو رأتها الطير في وكرها آمنة عيمت ولم تسجد
فلننطرح عننا تلك الأخلاق والعادات ، ولنتمسك بما يوصلنا الى غاية الغايات ،
ورفع الدرجات . والا فلاري ولا نجاح ، ولا صلاح ولا اصلاح . فسلام على من
يسعى لاحياء الوطن بإعادة جرائم الأخلاق الضارة ، ونشر العادات السليمة ،
والعلم وال التربية الصحيحة .

(١) الحرثيت : الدليل الحذق

رجال الاصلاح

اختلف الباحثون في أحوال النوع الانساني من حيث جبلته على ثلاثة اقسام : قسم يعتقد انَّ الانسان مغفورٌ على الشر وارادة السوء ، وأنَّه لا يكتبُ الخير ولا يعتاده الا بعد عناء طويلاً يُعرف في تهذيبه وتعويذه الصالح . وقسم يعتقد أنه مغفورٌ على الخير والفضيلة ، واغراً يسرقه عنها دواعي السوء واسباب الشر . وقسم يقول : انه يطلق غير ميالٍ إلى الخير ولا إلى الشر ، بل هو مستعد لها مما ، فإن وجد له اسباب تدفعه إلى الفضيلة ، وتصدق به عن الرذيلة ، فهو ذلك ، والعكس بالعكس .

وعلى كل حال ، فهم وإن اختلفوا في المبدأ ، فهم متتفقون على أنَّ الانسان تؤثر فيه التربية والبيئة والارشاد لما فيه سعادته في الدارين . فان أهمل شأنه يصدأ فكره وتغلو بصيرته غشاوة ، وتغلب عليه الاخلاق السافلة ، وتأسره الرذائل . وان هذب ورثي التربية الحق وتعهده الاعظون والصلحون بالارشاد الى السبيل القويمة والطريق السُّوى ، فذلك ينزع ما فيه من فساد ، ويروا به ان يسير في غير منبع السداد .

وإني مع القوم القائلين بأنَّ المرة مغفورٌ على الفضيلة . وذلك أنَّ النفس التي أودعها الله سبحانه في الانسان هي من جوهر صافٍ نقى ، لأنَّها هبطت الى هنا الهَـكل الانساني من مكان مقدس رفيع ، ليس فيه سوء ولا رفقة ، وإنما يكتسبها من البيئة التي يوجد فيها ، كما أنه يزداد لطافة وطهارة من بيته إن كان أهلاً منها من الأصناف الاطهار . فالنفس كالبلور النقي الشافيف يبقى محفوظاً من الدنس والارساح انْ مُنْعَنَ عنه الغبار والطواريء التي تربيل بهجهة وصفاته . ويزداد صفاء ورونقها ان زيد على ذلك تعهده بالصدق والتنظيم . ثم إنَّه يعدم تلك الهجهة وذات الصفة ، ان ترك عرضة لكان حارِي يطأ عليه ، وربما تأتيه صدمة شديدة تحطمه تحطيمًا .

تبنيه اذا عرفت الواجب ، وما لها من الحقوق ، فيتساوى معها ، والظالم يبغض المساواة ، وذلك كان شأن رؤسائنا في الدور المأسي البائد ، ونرجو ان لا يكون رجال اليوم كرجال الأمس .

وهنالك قسم ليس في العبر ولا النفي : فهو يعرف من أين تؤكل الكتف ، وكيف يكون الاصلاح ، فيحضر نفسه في زمرة المصلحين ويشعر الناس أنه من اكابرهم وخيارهم ، غير أنه لا يقصد من وصف نفسه بذلك الامر بيسعى وراءه غاية يقصدتها ، فهو يليس رداء الاصلاح ، ونفسه عدوة له . وقد يقصد الاصلاح والنفع الذاتي معاً ، لكن الاصلاح متزوج بنفع الذات يكون شيئاً قليلاً الثانية . وكثيراً ما يتغلب طلب النفع على الاصلاح ، وربما كانت النتيجة شراً بختنا .

من الطالب بالاصلاح ؟

الطلابون بالاصلاح خمسة :

و رجال الدين : وهو لاء عليهم أن يقوموا بوعظ الشعب والنصح له ، وإفهامه واجباته نحو الخالق والملائكة والحكومة ، وتهذيبه تهذيباً شرifaً عالياً . وتعليميه الدين كما أنزل . خالياً من كل بدعة وخرافة . فمتي قاموا بهذا الواجب تحلى سلطان الدين على قلوب العامة ، وصرفهم عن الشر إلى الخير ، وجعلهم ينقذون لما فيه خيراً لهم وسعادتهم . غير أن علماء الاديان قعدوا عن هذا الفرض ، وأهلوا الوعظ والارشاد ، فخافقوا بالامة ما نحن مشاهدوه من الفوضى والتآخر وعدم سلوك الطراط المستقيم .

و رجال المال : وهو لاء عليهم أن يدوا يد المساعدة لافتتاح المدارس وإنشاء المعامل والمصانع ، وتشييد صروح عالية للصناعات الوطنية . ومنذ ذلك بقيت أموال البلاد محفوظة فيها ، فتنستعنى بأذى ذلك عن الآجانب الذين يبتزون أموالنا بل دماءنا ، ونحن عن ذلك ساهون لاهون .

نحن في حاجة شديدة إلى المال لأنّ به نوال كل مرغوب ، وتحصيل ما فقدنا

ادأ ثبت هذا وأن جبلاً الانسان - على اختلاف الآراء فيها - تقصد بالاعمال وفساد البيئة ، وتصلح وتترقى بالارشاد والوعظ والتصائح ، فلا بدّ ان يكون في كل أمة قوم يقرون حياتهم ، وبينهم جهدهم لصلاح الفاسدين ، وزيادة خير الحتيرين . واولئك القوم هم الرجال المصلحون الذين ما وجدوا في أمة الا كانوا سبب رفها من وهاد التدلي الى اوج الترقى ، ووسيلة تقدمها وعلوها بعد التأثر والانحطاط .

وبقدر عدد المصلحين في الامة يكون ترقهم وبلوغها مبلغ الحياة العالية ، والمدينة الرافية ، وبنسبة قلتهم يكون تأخرها وتقهرها . لذلك يجب السعي الشديد وراء تحرير رجال عظامه : يعرفون الداء وموضعه ، فيعملون على ملاسنة وتطهير جسم الامة والمجتمع منه .

المصلحون اقسام : قسم يبذل الجهد لتنمية الامة مما لم يجز لها من الامراض ، لا لغاية يسعى وراءها ، ولا لمصلحة يتطلبها . واولئك هم الذين يرجي منهم النفع الصحيح ، وعليهم تعلق الآمال بترقية الشعب والنہوض به من كبوته إلى صحوة النجاح . وهذا القسم قليل في كل امة . وهو على قلته يفعل ما لا تفعله الكثرة التي مزجت غايتها بالاصلاح . وهذه القلة قالت الامم حررتها ، ووصلت إلى ما ترجوه وتحطمه من المدينة والرق ، وقد تفعل القلة ما لا تفعله الكثرة .

و قسم يريد الخير ولكنّه جاهل طريق الاصلاح ، وقد يكون ضرره اكبر من نفعه وهو لاء كثيرون في الامة . وأغرب من ذلك أن اكثربم يدعى المعرفة والمقدرة على العمل ، ودماغه أفرغ من فؤاد أم موسي ، غير أنه يعيش العادة بهذه الدعوى ، ويسلط على عقوفهم ، فينقذون اليه صغارين ، في sisir بهم الى هوة الجبل ، ويركبهم متون الغباوة والحسران .

و قسم قادر على الاصلاح ، وعارف وجوه المخلل والاسباب الخطة بالامة الى الدرك الاسفل ، غير أنه لا يريد خيراً لها ، ولا كشف رعن الجبالة عن قلبه ، ولا ازاله برفع الأوهام عن بصائرها وأبصارها . وذلك لأن في خيرها اخاعة مصلحة له على زعمه ، كضعف سلطتها ، وذهب أجهته وعظمته ، لأن العلم والاستبداد لا يحيطون . فهو يسعى لابقاء الامة في ليل من الجبالة بهم ، كيلا

يا رجال الحكومة أصلحوا أنفسكم ، وعوّدوها العدل بالقانون ، قبل أن يأتكم يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون . إلا من كان مخلصاً في أعماله ، جارياً في سنته العدل ، سالكاً سبيل الحق ، ونصرة العدل بين الرعية . ولا ظلموا أن الفوضى تدوم ، فما هي إلا سحابة صيف عن قليل تقشع ، ثم تض محل وتذهب « فأما الزيد فيذهب بجفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

والقسم الخامس من رجال الاصلاح هم رجال دار النّدوة الذين انتخبتهم الأمة لينبوا عنها بما يلزمها من الاصلاحات ، وما نحتاج اليه بما يرثى بها في معارج المدينة . وهؤلاء عليهم من الانزلة والقوانيين التي توعدى الأمة والبلاد بالخير . غير أننا نرى بعضهم أخاع ثقة الأمة به ، وعمل بما يختلف مقصدتها ، وأخاع وقته الشين بالسكتوت ، أو بالكلام الذي لا طائل لمحته ولا نتيجة .

مجلس الأمة عليه قوام حياة البلاد ، وسعادة العباد . فهو يحتاج إلى اتفاق أعضائه واتحادهم ليصلوا عالياً ينفذ الوطن . وان مجلسنا النبوي هو أشد احتياجاً إلى الاتحاد والوئام من كل المجالس النبوية في العالم . لأنه يضمُّ في ردهته أعضاء مختلفي الأديان والمذاهب ، فإن كان كل أهل دين ينظرون إلى غيرهم نظر الاحقار وبشاروؤنهم في كل ما يطلبون - ولو كان وراءه نفع عظيم - فهناك ضياع الأموال الأمة اليوم كلها جسم واحد ، فيجب أن يسعى النواب في كل ما يعود على الجميع بالخير ، من غير نظر إلى دين أو مذهب . فإن بذلك إنها الصفة الأمة ورقبيها .

فهل كل من رجال الاصلاح ، أن يتجرد عن كل غاية ، ويسعى السعي المثبت لصلحة الوطن ، ويعمل كل وسيلة لبشر كل عضو فاسد . والله لا يضع أبداً المحسنين .

من المدنية والتقدم ، وهو الذي يعيينا على افتتاح المعامل ، وإنشاء المدرعات وإحياء مدينة أسلافنا الكرام ، التي بنوها بجهد واجتهاد وسعفهم وراء تحصيل العلوم والمارف وتعلم الصناعات .

وأصحاب البرائد والاقلام : وهو لاء عليهم ان يتجردوا عن كل غاية سافلة ، ويتحموا عن ذكر ما يوقع الأمة في الاختلاف والتفرق ، أو يجلب عليها هواجس وأفكاراً سيئة . وهي في حاجة الى ما يطيشن بها ويسكن جائشها . وعليهم ان لا يذكروا الا ما كان خيراً يغلب عليه الصدق ، او مقالاً يفيد الأمة ، ويبعث فيها روح الجد والسعى الى ما ينبع منها من كبوتها ، ونقيلها من عنترتها . فرجال الاقلام هم قادة الشعب . فإن احسنوا القيادة ، أو صلواه الى الغاية الحسنة والعاقبة الحميدة . وإن أسوأها كانت عاقبتها الاصحاح والدمار وغایتها السوء وخراب الدار . وقد كنا نظن أن صاحبنا تخرج منهياً حسناً ، فإذا كثير من اولئك لم يقصدوا بانشائها الا غاية غير مشكورة ، فلم يودعوا فيها الا ما هو شار بالامة والوطن ، ولم ينشروا الا ما ينقضى عليه الدنائر : كالرسائل المأجورة التي ملؤها السفاهة والوقاحة والطعن في اعراض الناس والتسيفي منهم . نعم أنها لا تذكر ان كثيراً مما يطعن فيه مم مستحقون لذلك ، بل لما هو اعظم منه ، غير ان طائفة من الصادقين في خدمة البلاد الذين لا ذنب لهم الا انهم احرار يبذلون جهدهم لتوسيع العدل والانتصار للظلم وردع الظالم عن ظلمه . قد جرتهم قافية أصحاب الامضاءات المكذوبة والرسائل المأجورة ، فاختلط الحال بالتأبل والبريء بالجهنم . فاقروا الله يا أرباب الاقلام ! وتقذروا يا أصحاب البرائد ! ولا تدعوا الاصرف الرنان يسيطر عليكم فتشروا الاكاذيب والطاعون الشخصية . فانقتو الله في هذه الامة ، وخدنوها بأيديها الى ما ينديها ، وانشووا لها ما ينبع منها فانكم رعاة لها ، « وكل راعٍ مسؤول عن دعيته » .

و رجال الحكومة : وهو لاء هم روح البلاد وملح الأمة . فتى فسدوا فسدت الامة وتأخرت البلاد . ومن وظائفهم حفظ الامن ورقة المفسدين والاشقياء ، واحقاق الحق وإبطال الباطل ، والانتصار للظلم من الظلم ، وغير ذلك مما يجعل البلاد واهلاها سعداء .

الارادة

اجل صدق الصوفي الحكيم بقوله : « ان الله عباداً متى أرادوا اراد » فإنه صحيح معمول ، لا يدفعه ولا ينفيه إلا من ليس له معمول . وهذا القول الحكيم مبني على تلك القاعدة الجليلة الثابتة – نظام ربط الأسباب بالأسباب .. وذلك أن الله أمر الانسان بالعمل الذي هو سبب سعادته وروح حياته . ولا يمكن عمل الا بالنية والعزم والارادة . وإلى هنا أشار النبي عليه السلام بقوله : « لما الاعمال بالنيات ، ولما لكل أمرٍ مانوي » فمن أحسن النيّة، وتوجه لها عمل بقلب ثابت ، وأراده تأديجه، فإن ما أراده من الاعمال كائن البتة ، خرورة وجود المسبب عند وجود السبب . فالرجال الذين يريد الله إذا أرادوا ، هم أولئك العظائم ، أصحاب العزائم العظيمة ، والنفس الكبيرة ، والمهم التحساء ، والإرادة الشاهة . أولئك الذين إذا أتوا أمرًا أو عزموا شيئاً ، توجهت إرادتهم إليه ، وبذلوا ما في وسعهم دون تنفيذه واجراه . وحيثما تعلق إرادة الله سبحانه به أن يكون ما أرادوا ، لأنهم بذلوا الجهد ، واستعملوا الأسباب التي أرشدهم إليها للحصول على ما يسعون وراءه . وحاشا لله أن يحبب قوماً نجحوا النجاح القوي ، وأنصبوا النفوس ، وعملوا الأسباب الممكنة في سبيل تحقق أماناتهم وإرادتهم .

رب قوم يقولون : أنا نرى كثيرون يريدون ان يفعلوا ، غير انهم لا يجنون من ارادتهم سوى خيبة المسعى ، فلو ان الإرادة تعلم ، لكان الناس في رخاء وهناء ، وسعادة وارتقاء .

ـ نقول ان هؤلاء القوم الذين تعنونهم ، هم احمد رجلين : رجل ضعيف الإرادة بليد العزم ، فهو ان خطط له عملٌ ما يريد ان يعمله ، يكون بين الخوف والرجاء ، ويعتبره عاماً للآدم والاجمار ، فتارة يريد ، ثم يعرض له فكر اما صحيف او خطأ ويرجع عن ارادته ، فهو يقدم رجلاً ويؤخر اخرى ، بين تلك العوامل التي تنتبه من كل الجهات ، فكأنه المعنى بقول القائل :

فصرتْ كائِنَيْ بَيْنَ شَقَيْنِ مِنْ عَصَا

حَذَارَ الرَّدِّيْ أَوْ خَيْفَةَ مِنْ زِيَالِكِ

فأُبَدِّرُ بَيْنَ كَانَ كَذَلِكَ أَنْ يَقَالُ عَنْهُ : أَنَّهُ لَا إِرَادَةَ لَهُ ، وَمَنْ لَا إِرَادَةَ لَهُ فَهُوَ

عَنِ الْعَمَلِ بَعْزَلٌ . وَالرَّجُلُ الثَّانِي هُوَ رَجُلٌ صَحِيفُ الْعَزْمِ ، قَوِيُّ الْإِرَادَةِ ، غَيْرُ أَنَّهُ

قال السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المغار في خطبة له :

ـ « ان هذا الفرض الذي تطالبون به عظيم ، ولكن قوة الإرادة في الإنسان تصغر كل عظيم ، وتسهل كل عسير . فإذا وجهتم عن انكم إلى ذلك بالأخلاص ، فإنكم تصاون إلى الغاية بإذن الله : وكل من جد في أمر يجاوره واستعمل الصبر إلا فاز بالظفر

ـ يرى بعض الفلاسفة ان الانسان لا ي Prism ارادته بأمر يمكن إلا وينفذ . وكان الأستاذ الامام على هذا الرأي ، وقد قال في غير مرة : انه لم ي Prism اراداته بطلب شيء جزءاً تماماً لا تردد فيه إلا وحصل . وقد كان حكماء الصوفية على هذا الرأي ، وعيرون عنه بعضهم بقوله : « ان الله عباداً إذا أرادوا أراد » اي اذا صاح توجهه ارادتهم الى شيء تعلقت ارادته الله تعالى به ، وما تعلقت به ارادته الله نفذ حتماً . فعلى الانسان ان يعرف قيمة نعمة الإرادة فهو جها الى خدمة وطنه ، جازماً بأنه أهل « لأن يريد » وهو بهذا يكون اهلاً له ، منها كانت معارفه . فان تفاصيل الناس بالإرادة فوق تقاضاهم بالمعرفة . فما كل عالم ينفع ، وكل من اراد ان ينفع فإنه ينفع على قدر استعداده » .

•

ـ ذلك ما قاله السيد الأستاذ الرشيد . وهو من خير ما قيل في هذا الموضوع الجليل . وانه على ايجازه و اختصاره ، جمع المعاني السامية ، والاراء الصائبة . ولو عمل به ، بل يجزء منه ، لبلغنا الدرجة الرفيعة والغاية القصوى بما تتطلبه من الاصلاح ، وما نفكري فيه من رفع الامة من تدهورها ، وسقوطها بين بواسط الجهل ، ومخالب الاصحاح .

والفضل البافش ، الا بالهم من الارادة العظيمة والذئب الكبيرة . ولكننا أضعننا ذلك السعي ، فبُوتنا بجزي الابدوعار الدهر . وذلك عار علينا عظيم ، لا يحيوه من لوح الوجود الا الجد والاجتهد ، لراجع مفاخر الاجداد ، وتجهيزه العزم الاكيد والارادة العالية ، لاقتباس العلوم وانشاء العامل والمصانع ، والسعى الحيثيث وراء كل امر نافع ينهض بالوطن وبنيه .

رب قائل : ان انفاذ الامر واجاد العمل يتوقفان على الارادة ، ولا ارادة عندنا ، فأنت تطلب المستحيل .

أقول ان الارادة عندنا ثابتة ، غير اننا صرفناها الى ما يضر ، لا الى ما ينفع . والدليل على ذلك ان أحدهنا متوجه عزيمته الى أمر من الأمور السافلة ، فإنه يبذل جهده وراء تحقيقه حتى ينساه ، ولو تحت شفار السيوف وصليلها ، ورخاص المسدسات والبنادق . ونحن لا نطلب من اصحاب الارادة والعلماء والاغنياء أن يصلوا الى هذا الخد من الخطأ . واما نطلب من العالم أن ينشر عالمه ، ومن الغني ان يبذل ماله ، ويسعى الكل بإرادة واحلاظ لتخلص الوطن من محالب الجهل .

فليكن عندنا رجال ارادة وحزم وعزيم ، يصرفونها في الخير ، حتى ننال المراد ، فإن الله رجلا اذا أرادوا أراد .

يقدم على العمل قبل او انه ، وي يريد ان يحيي الممرة قبل نضجها ، فلا ينقدر الشيء الى إبانه ليقطف فائدته . فعلمه اذن عمل مبتسرا « سابق او انه » ومن اراد عملاً مبتسراً ، فهو كالرجل الأول من حيث انها يجتمع في عدم نجاح عملها وسقوطه .

وهناك رجل ثالث وهو وسط الرجلين ، ليس عنده تقلب الاول ولا عجلة الثاني ، بل هو ثابت الجنان رابط الجنان ، لا تغيره الحوادث ، ولا تنهنه الكوارث ، يأخذ للأمر عدته ، ويجيء له الأسباب ، ويتحسن الفرص لانفاذ ما يريد ، فإن رأى انفاذ الأمر خيراً ، انفذه فكان ناجحاً فيه ، وإن رأى تأخيره أولى ، آخره ووقر الأوان الذي يبدأ بتنفيذ فيه . ذلك الرجل ، هو صاحب الارادة السذج يعنيه السيد الرشيد في مقالة ، وي يريد ذلك الصوفى المظيم في عمارته . أما التهور في الأمور وانفاذها قبل ان يأخذ المرء للشيء عتاده ، فهو من الخطأ والجهل بأسباب بلوغ المراد :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستجل الزلل

امتنا خير الأمم وشعبنا خير الشعوب ، فسان الذكاء النظري الذي منحنا إياه طيب المناخ وطبيعة الاقليم ، ليس له مثال في جميع بقاع الأرض ، غير اننا صرفنا ذلك الذكاء الى تعاطي الشر والاستعمال بالغيث . في حين ان غيرنا من الأمم الاوروبية بعد ان صحووا من سكرتهم ، وأفاقوا من غفلتهم ، أجهدوا نفوسهم ، واتبعوا عقوفهم ، حتى وصلوا الى ما نراهم عليه الآن : من المدينة الباهرة والتوفيق المدهش .

بلغ سلفنا من العلوم والمعارف شوطاً بعيداً . فقد كانت لهم اليد الطولى في جميع العلوم والفنون وكل ما يسمونه العلوم الكونية او المصرية . وكانت لهم مدينة زاهره ضربت بها الأمثال ، وقوة لا تبارى أخضعت لهم الامم ، وملك عظيم مد جناحه على قسم عظيم من المعمور ، ولا تزال آثارهم العلية والفنية ، وبنادقهم الضخمة النجمة ناطقة بما كان لهم من الرقي والعمران . وما حصلوا بذلك الجهد العلوي

الألقاب والرتب

غير ان الناس في طلب ذلك وتقديره على مراتب ومذاهب ، بعضها حميد وبعضاً قبيح، وهم كلهم متتفقون في المبدأ وهو نيل الجد والشرف ، غير انهم مختلفون في الغاية التي ينصلبون لأجلها ؛ لاختلافهم في تفسير معاناتها .

قسم راقية عقول ذويه ، قد عرفوا الجد الحقيقي فدلقوه عليه ، والشرف الصحيح فضوا عليه بالتجاهد . وهؤلاء يعتقدون ان الجد والعلى في التمسك بعالي الامور ، والتخلق بالأخلاق الفاضلة ، والسعى بكل ما في الوسع لاكتساب العلوم وتحصيل المعرف ، وان يعملا كل عمل يرجع على الوطن وبنيه بما ينهض به الى اوج النجاح ، وان يسعوا كل السعي الى ما يفدي الامة ويرفع عنها أعباء الانحطاط وهو لاء لا يهمهم رتبة ولا وسام ، ولا لقب من ألقاب التعظيم ، لأنهم اثما يعملون خدمة الوطن والأمة ، غير ناظرين الى مقصده سواه .

والقسم الآخر تصر عن تلك الرتبة – وهو أن يكون له جد باذخ ، وفخر عال ، ومكانة سامية في نفوس قومه – فلم يجد واسطة لذلك سوى السعي وراء تحصيل رتبة وطلب وسام . وهو لم يعلم ان الرزء بأدبه وعمله النافع ، لا يرتبه وسامه . فان ابره الذي لم تكن اخلاقه واعماله وسامات يُيزِّن بها صحبة حياته وتاج مروعته ، فلا ينفعه وسام ، ولا تعلية رتبة .

فانسخ جميعنا إلى طلب الجد والشرف الصحيحين من طرقها الشريرة ، ووسائلها التنبيلة ، وذلك بتحصيل العلم ، وإنشاء المدارس والمعامل والعمل النافع . فإن هذا هو الفخار الحق ، والجد الصحيح ، و « مثل هذا فليعمل العاملون » .

الميل الى الجد ، والرغبة في الشرف ، والسعى وراء النفوذ ، يخلق من اخلاق الانسان ؛ وشهوة من شهوته ، يضحي كل ما في وسعه بالحصول عليها . وقد يؤدي به ذلك الى افذاذ ما لديه من المال ، ولو بقي صفرَ اليدين . أو إلى بذلك منه دون الوصول إلى مبتغاه . وأما الذين لا يعبأون بهذا الأمر ، فهم قوم صغار النفوس ، ضعاف الهمم ، خامدو العزة ، لا يستطعون حيلة يحتالون بها ، لينالوا ما يسعى إليه أصحاب النفوس الكبيرة ، والمدارك السامية ، وأهم القسماء . وإن طلبوه بأن يسعوا إلى الجد ، ويجدوا وراء العلي ، تعلّموا بما هو معروف عنهم : من رغبتهم في الانقطاع عن مظاهر هذه الحياة ، وعدم الالتفات إليها ، وقولهم هذا – لو عامت ريا و مداهنة ، وأحبولة يصطادون بها عقول السنج من العادة . وهم لو كان عندهم عزيمة صارمة ، وهبة لا تعرف الملل ، لسعوا الى ذلك سعياً حثيثاً ، وحصلوا ما حصلت غيرهم . ولكن حبَّ الراحة والميل إلى الدعة والأخلاق إلى التكسل – كل ذلك يدعوهم إلى الاستكانة ، فهم كمن :

ظنَّ دين الله في ترك الدُّنْيَا ورأى الاعراض عنها أنفعها
وهو لو جاءته منها بدرةٌ طلاقَ الدنيا وعاف الورعا
 فهو لا زهدًا بها عنها نَأى لكنَّ الجدُّ يُنْبِيَ الأَخْلَامَ
خافَ ان يسعى فيديمي رجله فرأى الراحة فيها صنعا

فالجد في سبيل الجد ، والتعب في ارتقاء مرافق العلي ، حملة حديدة ، وخصلة يجدر بكل ذي أدب أن يتخلق بها ، ويجثم في جهالها ، ويستميت في ميدان الجد لأجلها .

وتوردها مواد السداد ، فالمهمة في نشر المعارف مبذولة في كثير من البلدان ، والساعون في هذا العمل الجيد – على قلة عددهم – باذلون من الجهد اقصاه ، ومن الاجتهاد منتهاء ، والأمل أن يوفّوا إلى ما يقصدون إليه في أقرب مدة ، اذاً لم يتم الاغنياء ، وساعدتهم العقلاء ، وسهلت الحكومة لهم السبيل .

وإن أعظم من تطلب منهم المساعدة ، أرباب التراث والغنى في كل قرية ومصر فإن على المال المعول في كل شأن من الشؤون ، ولا نرى أغنياء إلا فاعلين إن شاء الله .

النهاية منها كانت عظيمة ، ومما بلغت من القدم ، فإنها لا ترقى بالحاجة ، إذا لم يكن في الأمة قادة كبار المتعلمون التعليم الراقي ، وعارفون أصول التربية والتعليم الحديثة . لذلك يجب على الأمة أن تختار من أبنائها من هم أهل فضلة وإقدام وأخلاق شريفة ، وتقدّم لهم إلى مدارس الغرب ، حيث ينالون منها قسطاً وافراً بما يحتاج إليه . ثم يرجعون إليها وقد خذلوا من العلوم والفنون وتطبيقات العلم على العمل بسباق ، على شرط أن يعودوا أكمل ذهباً : من غير أن تؤثر في نفوسهم عادات الغربيين وأخلاقهم التي لا تمتزج بعاداتنا وأخلاقنا . فليس كل ما يأبه الغربي بنا ينفع لنا ورب عادات لأولئك القوم يدعونها من أصول المدينة ، ونعدّها من فساد الأخلاق ، والتلوّح الذي لا يطاق ، فإن العادة تختلف حسناً وقبحاً باختلاف الأمة والبيئة التي تقطنها .

إن بعض من يرحل إلى الغرب تؤثّر في نفسه عادات أهله وأخلاقهم رسماً استثنى . فإذا رجع إلى قومه ، أخذ يجدّهم بارآء ، وربما استحسن كثيراً بما نراه حالاً لما لأخلاقنا وعاداتنا وما نظرنا عليه من التعامل الدينية ، وبالطبع ليس ما استحسننا بما ن Bhar نفعاً ، أو يدرأ ضرراً ، وإنما هو بما نراه مدةً ما تهتك ، وبجلة فساد الأخلاق ، وبرأة الغربيون من نقاء المدينة ولوائح المدن . والسر الذي يدعون بعض الراحلين إلى الغرب إلى استحسان ما قدمنا ، هو أنهم لم يتربوا منذ نشأتهم تربية شرقة ، ولم يتعودوا الأخلاق الصحيحة ، ولم تقرّ في نفوسهم أغراض الدين حتى تكون طبعة من طبائعهم ، ولازمة من لوازهم . وهذا نقص كبير في مدارسنا وبيوتنا يجب أن يتتبّعه إليه الآباء والمعلّمون ، وربما سبب ذلك نفرة

حلّيث مع النابتة

إذا أردت ان تستدل على مستقبل أمة من الأمم ، و تستعرف ما ستؤول اليه حالاتها الاجتماعية والمعبرانية والسياسية ، فابحث عن أخلاق شبابها ، ونقّب عن أحوال ذابتهم ، فتختلط النتائج من هذه الالامات . لأن نشوء كل أمة عن ذات مستقبلها ومادة ترقّيها ، فإن رأيت نبتاً مهدباً ونشأً متعلماً ، فأبشر بآتٍ حميدٍ ومستقبل زاهر ، ويشعرها بأن ستكون أمة حية ، تنال طلباتها ، وتفوز بريغاتها . وإن وجدت شباباً جاهلين ، ونابتة فاسدة الأخلاق ، سافلة المبادئ ، فاقرأ عليها آية التأثير ، ثم انذرها بالحراب ، وحقّق لها أن ستكون نهباً مقسماً ، تعبر بها إيدي اللاعبين ، حتى تكون عبرة الآخرين ، وذلت سنة الله في العالىين .

تلك سنة الله وإن تجد لسنة الله تبديلاً ، فقد حكم – وهو أحكم الحاكمين – إن الأرض يرثها عباد الصالحون ، وينتزعها من لا يقدرها قدرها ، ولا يهتم في مذاكرها مشيّة من يحسن استمارها ، ويستورد خيراتها ، فالصالحون في هذا المقام هم من يعرفون كيف تؤكل الكتف ، ويدرون من أساليب العبران ما يؤهّلهم لارت يكونوا ورثاء الأرض .

فالأمة التي يكثر متعلموها والمهابون من شبابها ، هي الأمة التي ستكون وارثة الأرض ، والملكـة زمام استمارها ، والقابلة على صولجان الامر والنفي فيها . والأمة التي لا تكون كذلك ، ستكون قيـدة الذل ، وتبقي خادمة لغيرها من هي أهل الاستعمار وجديـرة بالحكم . والشواهد على ذلك أكثر مما يحصـيه القلم ، ويجـيط به الإيهـان .

واني ارى في الأمة العربية نوراً ضئيلاً ، يبشرنا بأن سيكون شمساً ساطعاً ، يلأنورها المشارق والمغارب ، وأشـهد نهضة مباركة ، ستسلك بها سـبيل الرشـاد ،

حيث يحقر ونهم ، فإن ذلك لا ينتهي إلا التنازع ، وهو يضيئ الفائدة المبتغاة من ذهابهم إلى الديار الأجنبية للتلقى العلوم .

الناس وأضعاف كثيرةً من الفوائد التي تتواءلها من الشبان الذين يهجرون ديارهم لتحصيل العلم .

وهنا أحب أن أفارضهم بمحدث هو من الهمة بالمكان الذي يستحقه كل أمرهم ، وهو أن بعض من أتكلم عنهم يرجون وقد علق في نفوسهم شيء مما يتعلق بالأديان ، فتراهم يتكلمون غير مبالين بما ينجم عن ذلك من قرون الشر . وأنا أعتقد أن كلامهم ليس عن إلحاد ، وإنما هو عن سبب بعدهم إزالتها ، قد أثرت في أذهانهم بسبب ما يسمعونه من الملاحدة أعداء الأديان . وهذا ليس مختصاً بالآخرين إلى الغرب ، بل هو شامل بعض ما يسمون أنفسهم متورين . فعلى هؤلاء أن يدرسو أسرار الدين وحكمته ، ويتقواه عن أهل العارفين بتاوينه وفلسفته . وإن هر بخطفهم شيء من الشبه ، فعليهم أن يسألوا أهل الذكر والافتخار ، لأن يشدووا بذلك أمام من صغرت عقولهم ، وضولت نفوسهم ، فإن ذلك مداعنة التنازع وبطبيعة التبادل .

إن أرادت ثانية الأمة أن تنهض وتسير بقوتها في السبيل القويمة ، فعليها أن تحافظ على الأخلاق والعادات التي تورّداتها ، وأن تكون متدينة صالحة . فلا رقى للشرق إلا بالعلم والأخلاق التي تناسبه ؛ خصوصاً بالدين الذي ينذر الأخلاق ، ويهاتر الأعرق . فإلى العلم والأخلاق والدين أيتها النابتة الكريمة .

أنا لا أعتقد كي يعتقد الكثير ، بأن هذا القسم من النساء شيء الاعتقاد ، أو لا اعتقاد له بالمرة ، أو أنه يكتب أهانة الدين . وإنما اعتقد أنه ذو اعتقاد صحيح ، وغيره على الدين عظيمة . لكنه منتقد بعض ما لا دليل له في الدين ، وليس من أصوله ولا صحيح فروعه . اعني أنه يتمكّن على أحداته المبندة من المزارات والبدع ، قالوا : هذا من عند الله ليشرعوا به ثم قليلاً ألا ساء ما يعملون . فإذا سمعه العامة يلفتون أنه يطعن في الدين ، وما طعنه إلا في الزوائد التي ليست من الدين شيء ، إن هي بما يجب على مصالحي العلماء أن يسعوا وراء إزالتها ومحوها ، حتى يبقى الدين خالصاً من كل شائبة ، نقياً من جميع الأدران .

نعم ليس عندي من شك بان المهمة التي يستعملونها في إنقاذ البدع شديدة

ان من نسلهم إلى الغرب ، لا نسلهم لاكتساب أخلاقي لا تتفق مع عاداتنا الشرفية ، وأخلاقيات الملة ، وإنما يبعث بهم لعلم المجرد لاكتساب ما ينفعنا في حياتنا الدنيا لا غير . لأن ما لدينا من الأخلاق العالية ، والعادات الشريفة ، هو خير لنا وأفعى لبيتنا ، ويجيب أن نحافظ به كل الاحتفاظ ، وندونه عن حيائنا بكل قوانا ، لأن الأمة التي لا تحافظ على عاداتها ولا تدافع عن أخلاقها ، لا ينتهي عليها حين من الدهر حتى تكون كاملاً الدبور :

ولما أقام الأخلاق ما بقيت فإنهم ذهبوا

وليس ذهابهم وإنذارهم هو نحو مجموعهم المحسوس من لوح الوجود ، وإنما هو ازداجهم في الأمة التي يتخالقون بأخلاقها ، ويستعيدون عاداتها ، فذهابهم هو ذهاب قوميتهم وإنها أخلاقهم ، وإنذار لغتهم ، كما حصل لكثير من الأمم التي دامت عاداتها وأخلاقها ، وتطورت بأطوار الام الجاورة لها ، والتي تلقت العلم عنها ، أو ترلقت إليها . ومما ذلك إلا ضعف الأخلاق فيها ، أو لرض الارادة التي هي سبب قوي لنهوض الأمم . فإذا أراد الشبان الراغبون إلى أوروبا أن يعيشوا أمتهم ويعيشوا قوميتهم ، فيلتحقونا كما يفعل البعض منهم . ولا تخالهم فاعلين ذلك . وإذا أحبو أن يحفظوا أمتهم ، ويعيشوا قوميتهم ، فلينذدوا عن أخلاقها ، وليدرأوا عن عاداتها . ولا نظمهم إلا فاعلين ان شاء الله .

إذا شاهد الأجانب الذين يأتون بلادنا سائحين أو مستوطنين ، محافظين كل الحافظة على عاداتهم وأخلاقهم ، مفتخرین بالمحافظة عليهم . ولذلك نراهم مهباً قطنوا بلادنا ، أولى حفاظ شديد على ما تربوا عليه . بل نراهم عاملين بكل قوام على نشر مبادئهم وأخلاقهم بين أهل بلادنا .

نحن لا نطلب الآن من شبابنا أن ينشروا عاداتها وأخلاقها بين القوم الذين يتلقون عنهم العلم : بل غاية ما نطلبهم منهم أن يظلوا محافظين على أخلاق قومهم ، وأن يرجعوا إليهم كما ذهبوا ، حتى يمكنهم الالتحاظ بهم ، وبث المباديء العالية والعلم الصحيح فيهم . والشرط كل الشرط أن لا يروا أنفسهم أرفع من قومهم :

كثيرة على العلم والدين ، سببها تهور البعض ، وتهافت الدين ، تقليد المحدثي اوروبا ، ليقال انه غير مقيد ، وما هو الا مقلد مقيد ، يقول ما لا يعلم ، ويدين بما لا يقوم عليه برهان صحيح ، ولا دليل راجح .

أنا اعرف رجالاً متدينًا منور الفكر ، له ثلاثة أولاد قد قذف بهم الى المدارس العالية ، وهو يتكتّم مصروفاتٍ ظظمة ، فضلاً عن تحمله آلام بعد عنهم . وقد سمعته منذ مدة يقول : يتربّج عندي أن لا أرساهم بعد الآن الى المدارس ، بل سأرمي بهم الى المزارع . فسألته عن السبب فقال : خير لي أن يبقوا متدينين متسلّكين بعقائدهم ، من ان يكونوا فاسقة علماء ، وليسوا على شيء من الدين ، كما نشاهد بعض المتعلمين كذلك . فقلت له : يا هذا ! ليس العلم هو الذي يقلل الدين بل هو مما يعيّن الدين ، ويكون سلاحاً بحرب به الاخاء . وافا الذنب على الآباء الذين لا يربّون اولادهم تربية دينية راقية ، بل يرسلونهم الى المدارس العالية قبل ذلك ، ولني آمنُ من اولادك فلا خوف عليهم ولا بأس .

ان عمل هؤلاء المنطوفين ، وانتهاكم حرمته الدين ، سيكونان - ان لم يتنهوا - وسيلة لمنع الناس ابناهم من التعليم العالى ، وخربيه تاختية على العلم والامة معًا . فهل أدركوا مقدار الضرر الناجم عن تهورهم ، وهلا عرفوا الى أية هاوية هم سا loroون بأنفسهم وأمتهن .

ان مثل هؤلاء المفسدين يجب ان يتنهوا الى هذا السر ، فإن تعقلوا وأنا برأفيها ونعمت . والا وجب على الامة - وخصوصاً الفتلة المتعلمة منها - ان يتندوهم نبذ التواه ، لأنهم اعداء العلم ، اعداء الترقى ، بسبب ما يعلموه من الاعمال التي تتفق الامة من العلم .

هذه كلامات وجيزة أرسلها الى البعض من النشء الجديد المتشددين ، لعلها تكون واعظاً ومذكراً لقوم يهلكون .

تفجر السامع ، وتدعّ في نفسه الشك من حال المعتقد . فلو استمعوا التؤدة في اظهار الحقيقة ، وتورووا في الانتقاد ، واستشهدوا على مدعاهما بوارد في الكتاب والسنة الصحيحة ، لأدفعن الحمم اذعاً ، وبهذه الوسيلة لا يتركون في نفس المعتقد عليه شبهة ولا خساطرة تمُّ في ذهنه فتثير فيه التعصب الذي يحمله على سوء الظن من مجده .

وربما تهادن بعض النابتة بعض الفروض الدينية ، لا عن كفرٍ ولا حساد ، اواما الداعي الى ذلك الكسل ، فيرميهم بعض الجهلة بالاحاد ، ويصمهم بالمرور من الدين . ومن الغريب ان كثيراً من هؤلاء الذين ينسبون الى غيرهم الكفر لتهادنهم في بعض الاموال ، هم انفسهم متهدون بها أو بأعظم منها فارمياً تهادن بعض النشء ببعض الاعمال الدينية ، بل ثابروا على أدائها وواطبوها على الآيات بـها ، لقطعوا بذلك أنسنة الآخرين الذين يقولون انهم كفار او ملحدون من جراء ترك بعض الفروض .

أجل ربما وجد أفراد لا يعبأ بهم ، قد فسدت عقيدتهم ، فهم يزرون بـها لا يعرفون ، ويتطلّبون بالكلام الفارغ الذي لا يفيد الا انفه ولا يجدي غير تفرق الكلمة . ولو سألت هؤلاء أن يبينوا لك موضعـاً واحدـاً من القـدـ ، لما استطاعوا الى ذلك سيلـا ، لأنـهم مقلـدون لم يدرـسوـا من اصول الدين ولا فروعـه شيئاً ، اوـغاـ فـرأـواـ فيـ بـعـضـ كـتبـ المـلـحـينـ منـ الـاـرـوـبـينـ وـمـنـ نـخـاـنـوـهـمـ ، فـعـاقـتـ فـيـ نـفـوسـهـ شـبـهـةـ ماـ قـرـأـوهـ ، لـأـنـهـ اـتـهـمـ وـقـدـ قـدـفـتـ فـيـ قـلـبـهـ مـتـسـعـاًـ ، فـضـرـبـتـ أـطـنـاهـ . فـلـوـ انـ هـؤـلـاءـ درـسـواـ مـنـ الـدـيـنـ مـاـ يـكـفـيـمـ مـؤـنـةـ مـاـ يـرـدـ عـلـيـهـمـ منـ الشـبـهـ وـالـذـرـاءـ ، لـأـخـسـنـوـاـ صـنـعـاـ .

ان هؤلاء المقلـدون هـمـ اـعـدـاءـ الـعـلـمـ ، اـعـدـاءـ تـرـقـةـ الـأـمـةـ ، وـانـ كـانـواـ يـزـعـمـونـ انـهـمـ منـ أـنـصـارـ الـعـارـفـ . وـرـبـماـ يـجـبـواـ مـنـ هـذـهـ النـسـبـةـ الـيـهـمـ لـأـنـهـمـ تـلـصـصـواـ مـنـ الـدـيـنـ لـأـجـلـ الـعـلـمـ يـزـعـمـهـ . فـأـقـولـ هـمـ لـاـ تـعـجـبـواـ رـمـقـ ظـهـرـ السـبـ بـطـلـ الـعـجـبـ . انـكـ باـظـهـارـ فـسـادـ عـقـيـدـتـكـ ، وـتـظـاهـرـ كـمـ بـاـيـنـيـ الـدـيـنـ ، تـنـفـرـونـ النـاسـ مـنـكـ وـمـنـ الـعـلـمـ . لـأـنـهـ يـطـنـونـ انـ الـذـيـ اـفـسـدـكـ هـوـ الـعـلـمـ ، كـمـ صـرـحـ بـذـلـكـ كـثـيـرـ مـنـ الـنـاسـ . وـمـنـ رـسـختـ هـذـهـ الـقـيـدـةـ فـيـ نـفـوسـ كـانـتـ حـائـلـاـ عـظـيـلـاـ دونـ اـرـسـالـ الـقـومـ اـولـادـهـ مـلـحـدـونـ مـعـهـ . وـهـذـهـ جـنـاهـيـةـ

الانتقاد ومسارب المنتقدين

الانتقاد يُخص الحقائق ، ويثير الأذهان ، ويوسع نطاق العقول ، ويزيل الحقيقة من خطايا الوجود بآبهى حلتها وأجل برودها . تتجلى للرأي كالغزلة عند الطلوع ، فتعشو عن ذلك عيون المكتابين ، فيرتد بصرهم خائساً وهو حسيراً .

ليس شيء كالانتقاد مظراً للعيوب كي تجتنب ، وميئناً لخطأ ليصلح ويعزّز الصواب من الخطأ « فاما الريد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

ليس من أمة سخطت عنها أعباء الكسل ، ورمت باهملها إلى أقصى مكان ، إلا كان الانتقاد هو الداعي الكبير ، والسبب الأقوى في تقدمها . ولذلك نرى أن مقدار ارتقائها إلى أوج السعادة في المعرفة والمدنية ، يكثرة عدد المتقدين فيها ، واقتدارهم على معرفة مواضع النقد ليظهروها ، وخذفهم بحال الصلة فيخرجونها . وما المتقدون إلا كالاطباء ، يرون العلل وأسبابها ، فيعانون على تطهير المدين منها ، ويصفون لهم العلاجات والأدوية مما يكون عاملاً على إخراجها ، ورارحة الجسم من أذها . هذا إذا كان الطبيب نظرياً حاذقاً ، يقيس الشياه بالأشياء والظواهر بالظواهر ؟ وليس فهو ؟ فاكثرأ على ما درسه ، وإلا فيكون ذردها أكبر ؟ وخطبه أعظم .

وكذا المتقدي يحب أن يكون ذكياً عالماً بمكان العلة والزمان الذي لا تخرج إلا فيه ؛ حكيمها بكيفية وصف الدواء وطريقة الانتقاد ، يخاطب كل انسان على مقدار عقله وحسب ما عنده من الاستعداد . فلا يطويّ بسانه أو قوله إلى غير الغاية التي من أجلها نصب نفسه متقدياً ، ولا يكن بذنيه للإنسان متور الفم . فأن فعل ذلك فقد ضلّ الغاية وحرّم ثمار النتيجة . وأولى له حينئذ أو ينتقد نفسه ، ويحملها على ساوه طريق الأدب .

كل انسان يروم أن يكون كلامه فصيحاً ، ورأيه صحيحاً ، ولكن من أين له أن يتحقق ذلك من نفسه قبل أن يحكم به جهود العقلاء مع التجدد عن الغوايات السليمة ؟ . لعمري لا يمكنه ذلك لأن العقل الإنساني كثير الخطأ وأفر الخطأ ، لا يقدر أن يستقل بمعرفة كثير من الأمور ، فلا يعرف المرء صحة رأيه من فساده إلا بعد ان يتتصب فريق المتقدين ولنفيف المرشدين ، فيهدوه لاصواب ، ويرشدوه

السعي وراء الحقائق دأب كل عاقل يربأ بنفسه ان يزيد موارد الاوهام والظنون ، وشنسته المرة الذي لا يحمد الا التنقيب عما هو حقيقة راهنة لا تقبل الابهام . فهو فدح الحقيقة واستطلاع شؤونها غایة ما يتطلبه العقول ، ومتى ما يسعى لاسله الأدباء .

وقد زعم قوم ان لحقيقة في الوجود . وهذا قول صادر عن لا روية له ولا تقبل ، ان تصد به نفي الحقيقة . وقد يكون له وجه من الصحة ، ان اراد بذلك ان الحقيقة مستورة مقتضعة بباطل المبطلين ، واستار المتهوين ، الذين يرون الحق أبايج ، غير انهم يعدلون عن الجهر به لغرض لهم : كغوف من مستبد او خجل من الاقرار بالخطأ ، وغير ذلك . فإن كان المدعى من هذا القسم فهو من يمكن اقناعهم او جاعهم الى الوجه الحق بالبراهين والادلة التي لا تقبل الارد .

ومعنى ثبت ان في الوجود حقيقة راهنة ، فلا بد من السعي ورعاها ، وذلك أدب من تحركت في جسمه عاطفة الأدب ، وجرى في جهاته دم النبل . غير ان معرفة هذه الحقيقة صعبة على من لم يخلص الدهر اشطره ، ويعرف حلوه ومره ، لأن تحصيل هذه المعرفة يتوقف على اذ كاه نار الجد ، وايقاد جذوة الطلب والاجتهد ، والباحثة والمذاكرة ، والرد والاعتراض ، والمناقشة والانتقاد .

عرف فائدة ذلك العقلاء ، فدرجوأ عليه ، وتحققوا فوائده ، فالخندوه أساساً لاعمالهم ، ورائداؤهم في امورهم . حول نظرك الى تاريخ من تقدم من سلف العلماء فترى ان مجالهم كانت تغص بالادباء ، وتوج بأمواج العلماء ، هذا يفيد ، وذلك يعترض الآخر ينقد . ووجه الكل واحد ، وهي نصرة الحق ، واظهار الصحيح من قواعد العلم . اللهم الا ما شدَّ عن ذلك ، وهم قليل لا يعبأ بهم ، ولا يلتفت اليهم .

للمجتمع الحق ، وبذلك تُقال عثراته ، وينجو من الزلل

لولا الانتقاد لما بعث الله الأنبياء ، وعلم العلامة ، وأمر الناس باتباعهم ، والاسمع
لنصائحهم ، إذ الغاية من إرسال الرسل انتقاد العادات والأخلاق ، ليرجع الناس
عَمَّا أَنْفَوْهُ مِنَ الْبَاطِلِ ، واتبعوه من العقائد الفاسدة ، والأخلاق الكاذبة ، وبذلك
تُصلح حالم ، وتستقيم سليم ، فيكونون سعداء الدارين .

الأمن بالمعروف والنهي عن المنكر للذان أمرنا بالعمل بها على لسان الأنبياء ،
هـما فرعان عن الانتقاد ، أو هـما الانتقاد بعينه . لأن النبي عن المنكر يجوز أن
يُعتبر به عموم اللفظ ، فـيُـصـحـ حـيـنـئـاـنـ يـوـادـ ماـكـانـ مـنـكـرـاـ فـيـ الدـنـ ، وـمـاـكـانـ
مـنـكـرـاـ فـيـ شـرـيـعـةـ الـهـلـمـ ، فـإـنـ رـأـيـنـاـ أـحـدـاـ يـفـعـلـ شـرـاـ نـهـيـنـاهـ هـنـهـ وـأـمـرـنـاهـ بـضـدـهـ .
وـكـذـاـ لـوـ رـأـيـنـاـ أـحـدـاـ يـقـرـرـ مـسـأـلـةـ فـيـ الـحـلـمـ خـطـاـ ، عـلـىـ مـاـ صـحـتـهاـ وـنـهـيـنـاهـ عـنـ الـاجـقاـدـ .
هـيـاـ خـطـلاـ .

مشابه المتقىين

مشابه المتقدين شـيـخـتـافـ بـاخـتـالـفـ أـخـلـاقـهـ ، وـتـبـانـ أـذـواـهـ ، وـقـدـقـيلـ :
الـإـسـانـ تـرـجـمـانـ الـقـلـبـ ، وـالـقـلـمـ أـحـدـ الـإـسـابـينـ . فـيـسـتـدـلـ عـلـىـ طـيـبـ أـخـلـاقـ الـمـتـقـدـ ،
وـلـطـافـةـ طـبـعـهـ ، وـحـسـنـ قـصـدـهـ ، بـاـ يـرـزـهـ عـلـىـ لـسـانـهـ أـوـ قـلـبـهـ مـنـ الـأـلـفـاظـ وـالـبـلـ ،
وـالـمـكـسـ بـالـمـكـسـ .

فـنـهـمـ مـنـ بـسـتـعـلـمـ التـؤـدـةـ وـالتـائـيـ ، وـلـاـ يـتـسـرـعـ فـيـ الـانـقـادـ إـلـاـ بـعـدـ أـنـ يـهـبـ
الـمـنـقـدـ عـلـيـهـ خـبـرـةـ تـامـةـ بـوـيـفـكـرـ فـيـ قـالـهـ تـفـكـيرـاـ . ثـمـ بـعـدـ ذـلـكـ يـشـرـعـ فـيـ تـقـولـهـ
أـوـ فـعلـهـ ، مـتـسـلـاحـاـ بـالـأـدـبـ الـتـامـ ، وـالـلـطـافـةـ فـيـ التـعـيـيرـ ، عـادـلـاـ عـنـ الـأـلـفـاظـ الـتـيـ تـقـرـ
الـمـنـقـدـ عـلـيـهـ . وـيـقـارـعـ بـقـويـ "ـبـرـهـانـ وـمـتـانـةـ الـحـجـةـ ، وـغـایـةـ مـنـ ذـلـكـ إـظـهـارـ
الـحـقـ ، وـتـبـانـ الصـحـحـ مـنـ الـفـاسـدـ ، لـيـسـ إـلـاـ ، فـلـاـ يـتـصـدـ مـنـ الـمـجـادـلـةـ تـسـيـهـ رـأـيـ
الـمـنـاظـرـ ، وـلـاـ فـضـحـةـ بـيـنـ النـاسـ بـاـظـهـارـ جـمـهـ وـعـيـوبـهـ ، لـاـنـ ذـلـكـ مـاـ حـرـمـهـ الشـرـعـ
وـالـعـقـلـ . فـنـ خـاـهـ هـذـاـ النـسـخـ مـنـ الـخـدـالـ فـوـرـ جـلـ أـفـانيـ مـتـجـرـفـ ، يـبـحـ أـنـ يـطـرـحـ
فـيـ زـوـيـاـ الـأـهـمـالـ ، وـاـنـ لـاـ يـنـظـرـ إـلـاـ بـعـنـ الـاحـتـارـ وـالـأـزـدـرـ ، لـاـنـهـ اـخـذـ الـحـقـ
ذـرـيـعـةـ لـلـتـشـفـيـ مـنـ النـاسـ وـفـضـيـحـهـ . فـهـوـ لـاـ يـطـلـبـ الـحـقـ لـذـاتهـ بـلـ لـأـغـرـاـضـهـ السـافـلـةـ

اتباع الحق متى وضح

متى وضح الحق وظهرت آياته ، وجب على المنصف أن يتبعه ويقو بخطاه أيـاـ
كان المناظر أو المتقى ، لأن الحق أحق أن يتبع . وقد ورد في الحديث : « خـذـ

الصواب واظهار الحق » ، وارشاد من حاد بتفكيره عن منهج السداد ، أو أسلوبه رأيه عن منصات الشاد . وإذا كان الغرض كذلك ، فالازدراء بالمناظرة ، والحط من كرامته ، يحولان دون الوصول إلى المطلوب ، ويعن الخصم من الاعتراف بالحق ، أيًا كان الحق . وقد ورد في الحديث : « من أمر بمعرفة ، فليكن أمره معرفة » أي من نسب نفسه لوعظ الناس وارشادهم وانتقاد عاداتهم وإلقاءهم ، فليستعمل التزدة والتلبي والمعرف من القول : فلا يتهور بلسانه أو قوله ، بل يجعل الحكمة في النصيحة تنصب عينيه .

الثاني : كل دعوى لم تكن مقتنة بالدليل ، فهي ساقطة عن درجة الاعتبار ، فلا تدع دعوى قبل أن تقتل البرهان عملاً .

الثالث : لا تستعمل الحدة في كلامك ، وإن كنت أديباً في الفاظك ، فالحدة لا تنتج المقصود ، بل ربما اذهبت المطرب .

الرابع : يقول علماء الجدل وآداب البحث والمناظرة : « إن كنت مدعيًا فالدليل ، أو فألا فالصحة ». أي ان كلامك دعوى من قبيل نسقك . فاجعل البرهان سلاجًا لما يمنع الدليل ، وبحبًا يدفع نبال المناظر ويفتح المسادل . وإن كنت فألا لكلامك عن كتاب ، فثبت ذلك النقل وصحح ما نقلت .

ذلك أصول أربعة إذا اعتمد بها المناظران ، وتقسما بأهدابها ، وصل كل منها إلى ما يريد من اظهار الحق .

هذا ما أردنا إيراده موجزًا قام الإيجاز لأن القام طويلاً الأذى واسع الارдан فعنى أن نسير جمِيعاً في هذه السبيل : فلنفوز بما نزوم من القصد ، فالحقيقة بنت البحث والله أيا وفق لاصراب .

الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت » وطالما ان القصد من المناظرة او الانتقاد هو إحقاق الحق وإبطال ماده ، فيجب على كلا الطرفين ان يذعن له من يبدأ بالأدلة التي لا تقبل الريب . ولا تخدع الإنسان نفسه بأن قبوله للحق فيه شيء شين له واظهار عيوبه ، لأن الاقرار بالحق هو عين الصواب ، وفخر ان كان له عقل ، ونحو منجي أولي الفضل الصحيح . قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : « إذا سُئل أحدكم عن شيء لا يعلمه ، فليقل لا أدرى رحم الله امرءاً أهدى إلى عيوبي »

هذا ، وان المترد بالخطأ تكون له السكانة السامية في قلوب الناس ، ويجلتونه منتهي الاجلال ، لأن اعترافه بذلك يدل دلالة صريحة على انه رجل حزن صادق لا يخاف في الحق لغاف ، والعكس بالعكس . قال الإمام الشافعى : « ما أوردت الحق والجنة على أحد قبلها مني إلا بهته واعتقدت موته . ولا كابر في أحد على الحق ، ودافع الجنة إلا سقط من عيني ورفضته » .

تلك فائدة الانتقاد الحق ، وهذه مشارب المتقدين ، فاختبر أينما شئت » بعدما يتنا من يأكلان الفريدين .

خلاصة شروط الانتقاد

للانتقاد شروط وأداب ينبغي للمنتقد مراعاتها والسير في جادتها . والمنتقد عليه شروط كذلك . ففي راعي كل منها ما وجب عليه من الأصول التي يلزم منه اتباعها ظهر الحق ، ووضح الأمر ، وبطل قول زيد وعمرو . فسكان كل منها واتعافاً في بحبوحة الصواب ، آئمماً من العثار في حقبات الأكدار ، والتزوع لسم العداوة والاحقاد .

واما ذاكرون شيئاً من تلك الآداب والقواعد التي يحدى بالمنتقد والمنتقد عليه ان يجعلها تنصب أعينها . ولا يجعلها طرفة عين .

الأول : مناظرك نظيرك . فلا يجوز احتقاره ولا الازدراء برأيه ، منها كانت سافلاً أو خطأ ، بل يجب ان تلطفه وتجامله ، الى ان تقرى ببرهانك القاطع رأس رأيه الفاسد ، وتثير بدللك الساطع غياب فكره المظلم . اذ ليس المراد من الانتقاد نقد الشخص نفسه ، او اظهار انه فاسد ، من حيث انه فاسد . ولما القصد تبين

سعادة الحياة

١ - مقدمة

التبذير والشح : بحسب يصرف المال في حاجةٍ وراءها نفع مشروع له أو لغيره من عيال الله . فإن خاف ذلك لأمر ، وطرق باب البخل ، عاش في الدنيا كثيراً كاسف للمال مُتعيناً ضيق القدر . وإن صرف أمواله جزأاً ، فلا ينفي عليه زمن الا ويصبح صفر اليدين ، فارغ الصندوق ، فيندم حيث لا ينفعه الندم ، فهو في كلتا الحالتين من الأخرين اعملاً الذين خل سعيهم في الحياة . إما أن يقي محفظاً على سلوك الطريقة الوسطى ، فهو سعيد في حياته لعدم وجود ما يكدر صفوه من الوسائل التي تذهب بأمواله ، وتدعه في حرج عظيم . فخراف الأوّلين عن النهج القويم أذهب بسعادة حياتها ، واعتصام الثالث بحب الفضيلة وعدم الميل إلى طرفي الامر إبقاءه في سعادة دائمة وعيش رغد .

هذا اذا نظرنا الى جهة السعادة والشقاء من حيث النعم بالمال وغيره ، وان نظرنا اليها من حيث صحة العقل والجسم ، والسعادة بالمنزل والأهل والاصحاب أو عدم ذلك ، نجد أن القاعدة العبرانية المقدمة وهي التوسط في الأمور تمشي مع هذه الاشياء كما قمت مع سابقاها :

نرى شخصاً سليم العقل ، صحيح الجسم ، حميد الصفات ، فلا يرى عليه زمان حتى تراه شاحب اللون ، ضئيل الجثة ، فلليل الفهم ، مذموم الحصال . فيعتبرنا عند ذلك اجفال وخيارة ودهشة ، ولم نعلم لذلك سبباً . ولو تأملنا في حالتنا وأختبرناه اختباراً صحيحاً ، نرى أنَّ إفراطه في شهواته ، وتغريبه في جنب الاعقاد على ما أمره به الله سبحانه من الترفع عن الدنيا ، وعدم الانغماس في حماة الشهوات والشروع ، وعدم مراعاة قوانين الصحة . كل ذلك كان سبب شحوبه ، والتخلط في عقله ، وبعده عن الآداب الصحيحة ، والمزايا الحميدة . فلو ان مثل هذا الرجل لم يجد عن الصراط المستقيم ، ولم ينحرف عن جادة الحق ، لعاش سعيداً في جسمه وعقله وآخلاقه . وقس على ذلك السعادة بأهلها وأسرتها وأصدقائها . فان اتباعه لقواعد التي تعرّفه كيف يسير بالأهل والأسرة والاصدقاء والناس أجمعين ، يجعله سعيداً ما دام حافظاً عليها ، وتشققه في حياته ان حدّ عنها .

يشكوا كثير من الناس شقاء الحياة وبؤس العيش ولو عملاً بالواجب عليهم فهو الحياة لم يشكوا منها . غير أن خلام عن النهج السوي ، وابتعداً عن خيراً لهم وسعادتهم ، يسكنان بهم طرقاً تضل ، ويجعلنهم اثلاً ترهق الانفس .

الحياة ثروة للرء ، فاما أن يحتفظ بها ، ولا ينفرط فيها ، ولا يصرف منها شيئاً إلا عند الحاجة . وإنما ان يبتدر ويجد بها لأقل سبب ، سواء كان مخدوماً أو مذموماً ، ضاراً أو نافعاً ، جائزأً أو محظوظاً . وبحسب احفاظه بثروته وادخارها إلى وقت الحاجة اليها تكون سعادته فيها واجتنابه الفوائد منها .

خلق الله الانسان ، ووعده السعادة والخير ، إن هو سار في السنن التي سنها . وأوّل عده الشر ، إن هو حاد عن طريق المدى ، ولم يتمتع الطريق السوى . وإنما له الأساليب وعرفة المسبيات . وأنواع له انه حق لسعادة وانه لا يسلبها عنه مادام منهجاً سنتها ، معتمداً بمحبها . وتلك الأساليب التي عرفها اهلها ظاهرة لكل ذي عقل سليم . غير ان اتباع الموى ، والليل على الشهوات ، والسعى وراء المنفعة الخاصة . كل ذلك يصرف المرء عن النظر في شؤون الحياة الحقيقة ، ويصف به عن الميل إلى ما فيه سعادة حياة ، وهناء معيشته .

بينما نرى احد الناس ذا ثروة طائلة ، وعيشة راخصة ، وقصور فخمة ، وأثاثٍ ورياش ، وخدم وحشم ، وغير ذلك من وسائل الوفاه وأسباب النعم ، اذا هو أصبح فقيراً لا يملك نقيراً ولا قطميرأ ، فيخدم بعد أن كان مخدوماً ، ويعمل للناس بعد ان كانوا يعاملون له . ولو بحثت عن أسباب فقره بعد الغنى وبؤسه بعد النعم وهذه بعد العز ، لرأيت ان الأساليب كلها ترجع إلى شيء واحد ، وهو العدول عن سنته الله في خلقه ، وعدم اتباع المناهج التي انتهجها ، ليسلكها من اراد أن يكون سعيداً في حياته .

صاحب الثروة والغني امره الله ان لا يكون بخجل شحيحاً بحسب لا ينتفع بجزء من ماله أو لو الفاقة والفقير ، كما امره أن لا يكون مبذراً يذهب الأموال ويجهودها لأمر غير مشروع ، أو عمل غير مبرور . بل أوجب عليه أن يكون وسطاً بين

شأن الأشياء المحسوسة ، فإن تعاصت عن الأدراك فمنها ، فلا بد أن تطبع
وتكون رهن الحواس . وليس الشأن كذلك في الأمور المعقولة ، لأنها تكون
من قبيل الأمور الفيضة التي لا تقع تحت الحواس ، فهي كثيرة ما تقتضى حتى
على المفكرين واصحاب المقول الواجهة والاحلام العظيمة ، فيختار كل منهم
رسبيلا نسلكها ظاناً أنها الضالة المشودة التي توصله إلى ما أرجده عقله واتبع فكره
الاجله . وتراء ينماض اهل المذهب الآخر ويناقش اربابه بكل ما يستطيع وما
يلكمه من القوى العقلية التي اودعها الخالق سبحانه فيه :

كل يدعى وصلأ بليلي ولily لا تقر لهم بذاك

والتناقض في الأمور المعنوية لا يقتصر على امر دون آخر ، فإنك لا تجده امراً معقولاً الا ويجده بإذنه من الآراء والمذاهب ما يدع المرء حماقاً لا يلوي على شيء غير أنَّ القائل البصير يدرس جميع ما يواه من الآراء درساً صحيحاً ثم يختار ما يظهر له انه الحق ، كلٌ على حسب استعداده واجتهاده ، وان خالف في ذلك كثيرون من الناس .

على ذلك درج الماء ، وفي هذه السبيل مشي الفلسفة ، المتقدمون منهم والتأخرنون ، كل له رأي وفكرة ، فهم لا يكادون يتقيرون ، غير أن كلاً منهم اختلط لنفسه خطأ مشي فيها ، وحسب نفسه سعيداً باتباعها .

ولما كانت السعادة من الامور المعنوية المعقولة ، اختلف الناس فيها اختلافهم
في غيرها من الامور التي لا دخل لاجس فيها .

يحسب البعض أن سعادة المرأة في نفسه تكون بالتعلي عن هذا العالم الفاني
والتخلص بالعالم البالغ مع احترام كل ما في هذا الوجود من المذات، وما انطوى
عليه من الفظاهر ففي فعل الإنسان ذلك كان بعيداً في نفسه، لا يشعر بما
ينزل به من المصائب، ولا بما يلم بجسمه من المتاعب، ولا تسميه المسنة، ولا
تطفيفه الصهباء، ولا تسقذه الاوتار، ولا تغريد الاطيار، او حيف الاشجار،
او كما لا تخونه النباتات، ولا تشجعه النباتات ولا الشارفات فسواء لديه الحياة
والموت، فنعم هذه الحياة وبؤسها لديه سواء، اذا يستوي عنده النقاء والبغاء،
وعلى ذلك اكثر الفلسفه وكثير من رجال الدين والصوفية المقيمين، فهم

فهـم لـذلـك يـنـدـيـونـ سـوـهـ حـظـهمـ وـيـشـكـونـ مـنـ حـيـاتـهـمـ ،ـ وـلوـ أـخـمـ أـقـلـعـاـنـ عـنـ الـهـوىـ
وـأـتـبـعـاـ سـبـيلـ الـهـدىـ ،ـ فـرـمـواـ بـالـشـهـوـاتـ وـالـنـفـغـةـ الـوـهـيـةـ جـانـبـاـ ،ـ وـلـمـ يـعـمـلـواـ الـاـ
يـاـ بـارـاقـ سـنـ اللـهـ وـالـاسـبـابـ الـقـيـمـ ،ـ وـضـعـمـاـ عـبـادـهـ ،ـ لـاعـشـواـ عـيـشـهـ رـاضـيـهـ .ـ غـيرـ اـتـ
الـعـادـاتـ السـافـلـةـ ،ـ وـالـاخـلـاقـ الـدـينـيـةـ ،ـ مـنـ تـكـثـيـنـ مـنـ الرـاءـ تـعـيـيـنـ بـصـرـهـ ،ـ وـتـعـشـيـ
بـصـيرـتـهـ ،ـ فـلـاـ تـدـعـهـ يـرـىـ بـعـقـلـهـ وـقـلـبـهـ مـاـ يـكـونـ السـبـبـ الـوـحـيدـ لـجـاهـاتـهـ وـخـلاـصـهـ ،ـ وـلـاـ
تـكـثـيـنـ مـنـ النـظـرـ لـسـنـ اللـهـ فـيـ الـاـكـوـانـ ،ـ وـلـاـ مـنـ مشـاهـدـةـ اـنـوارـ الـحـيـاةـ السـعـيدةـ
الـقـيـمـةـ الـعـالـيـةـ ،ـ وـلـاـ مـنـ تـرـفـعـهـ عـنـ مـرـتـبـةـ الـحـيـوانـ .ـ

أما الأسباب التي تجعل الرءوسعيدأ في حياته الجسمية والمالية والمهنية والأهلية وغيرها، فهي كثيرة ومتى عمل الإنسان بها وصل إلى ما يتطلبه من سعادة الحياة، فيجد بكل امرأة كان له ذرة من الفلق، أن يتبع تلك القواعد، ويعمل بهذه الأسباب حتى يبلغ ما يريد، ويحصل على حالة المنشودة. وستنكلم على تلك الوسائل والأسباب في المقالات الآتية.

سعادة المولى في نفسه

اختلفت مذاهب الناس في تفسير هذه السعادة بخلاف ميولهم ومشاربهم ، فلما تكاد تجده اتفاقاً في المعنى المراد منها ، شأن الناس في تفسير كل معقول . ذلك لأن العقل لا حد له ، فهو حر لا يقبل التقيد ، ولا التخوم لأية سلطنة كانت . وأما بعض العقول التي نراها خاصة متقدمة بسلاسل الارواه او الاستبداد في عقول فاسدة طرأ عليهم من الأحوال الخارجيه ما جعلهم أسييرة مستكينة لكل طارويه . يدل ذلك على ذلك أنه متى رفع عنها ذلك الضغط ، وُجِّهَت بمحلاه الحقائق ، وهنك سيف البرهان الصحيح تلك الفرشاة التي تخلصها قائمتها عن مشاهدة الحق ، رجعت إلى أصلها ، وتحللت لها الحقيقة فلم تتبع سواها .

قلنا : ان العقل حُرٌّ يأبى ان يكون أسيراً ، ولذلك اختلفت العقول في تفسير المعاني والمعقولات . أما الامور الحسية فلا تكاد تجد في تفسيرها اختلافاً كبيراً كاماً في الامور المعقولة ، لأن ما يقع تحت الحس يدرك بلا تعلم ولا مشقة شديدة ، فهو أسيـرٌ أو عبدـق لا يتمكـن من مخالـفة سـيده أو الـذـي أـسـره ، ولا يـسـطـعـ أن يـفـرـ أو يـأـبـقـ ، فإنـ اـبـقـ فـنـ السـهـلـ انـ يـقـضـ عـلـيـهـ مـوـلاـهـ . وكـذـلـكـ

يرغبون عن هذا العالم المملوء بالمصاب والزخارف إلى ذلك العالم البالى الذي لا ينفع ولا شقاء، بل كله سعادة وهناء.

وهناك قسم آخر يقابل هذه الطائفة، يزعم أن سعادته المرء في حياته تناقض هذا مناقضة تامة، ويقولون إن ما زعه هذا القسم من السعادة هو خطأ صراح، وجبل بوج، ولو دروا ما درينا، وعلدوا ما علمنا من الحياة وسعادتها، لعدوا عن هذا الزعم الفاسد ورموا به جانباً، وترعم هذه الطائفة من الناس أن السعادة هي أن يتمتع الإنسان بما تحت هذا الفلك الدوار: من المطعم والشرب، والتنقل من ملئ إلى آخر، والنلذة بكل مرأى جبل، ووجه صحيح والنعم بالملائس الشائرة والمركيبات الجميلة والحياة الطيبة، وتنطبع الأوقات في جمع الزيارات، وتضيع الساعات، بين الفانيات، والأنس بسحر أحاديذهن، وسفك دم الحياة عندهن، إلى غير ذلك مما يسمى عند هذه الطائفة بالمدينة الجديدة.

وهناك قسم وسط بين الطائفتين، اخذ مارأه حسناً عند كل طائفة منها واحتفظ به، وقال: إن ذلك هو الحياة الحق، وهو السعادة التامة لامرأه في هذه الدنيا.

و قبل أن نبين آراء هذه الطائفة الوسط يجب علينا أن نصب العقل الصحيح حكمـاً بين القومين الأولين، لنرى أيها أقرب إلى الحق، ثم نبين رأي القوم الآخرين.

ـ من تفكـر مليـاً في مذاهب أهل التجـرد عن هذا العالم والاحتفاظ بالرغبة عنه، يجد أنهـم أنصـنوا فيـ كثير من الأمـور التي جنـحـوا إلـيـها، فـإن التجـرد عنـ هذه المـذـرات الـوهـمـية وـعدـم اعتـبارـها مـبدأ شـريفـ، غيرـ أنـ الـافـرـاطـ فيـ هـذهـ المـذـراتـ الـوهـمـيةـ غـيرـ مـحـمـودـ، فـإـنـ اللهـ سـبـحانـهـ لمـ يـخـلـقـ إـلـيـهـانـ فيـ هـذـهـ الدـنـيـاـ الـحـكـمـةـ سـاميـةـ، وـلـمـ يـجـعـلـ لهـ هـذـهـ المـذـراتـ الـوهـمـيةـ كـدـلـكـ، وـلـمـ يـأـمـرـهـ بـالـاعـتـصـامـ بـالـأـمـالـ الصـالـحةـ الـتـيـ تـؤـهـلـهـ لـالـعـالـمـ الـبـالـيـ الـحـكـمـةـ أـسـمـيـ وـارـقـيـ، فـإـنـ اـخـذـ المرـءـ بـطـرـفـ وأـهـلـ الـطـرـفـ الـآـخـرـ، فـقـدـ اـسـاءـ التـصـرـفـ فـيـ خـلـقـهـ اللهـ لـهـ، وـمـاـ خـلـقـهـ لـاجـلهـ.

ـ إنـ اللهـ يـخـلـقـ الطـيـبـاتـ عـشـاـ، وـالـطـيـبـاتـ معـنـىـ عـامـ شـامـلـ، يـنـدـيـجـ فـيـ كلـ مـا تـرـاجـعـ إـلـيـهـ النـفـوسـ وـالـأـجـسـادـ، سـوـاءـ كـانـ مـنـ الطـيـبـاتـ الـمـعـقـولـةـ أوـ مـنـ الطـيـبـاتـ

وخلامة القول . إن سعادة المرء في نفسه ، هي أن يكون مقتضداً فيها يتقاضاه منه العقل والجسد ، وإن يرجع في كل أمر معقول أو محسوس إلى سنت الله في الأكونان ، وما أتى به من الشرائع بواسطة أنبيائه المكرمين ، فلا يطلق للروح السراح ، فتعرض عن الدنيا البتة ، ولا ي Roxhi للجسد الفنان ، فينهمك في الملاذ التي تعود عليه بالشمران في دنياه ، والشهاء في عقياه . فان من سار في منهج وسط أمن العثار ، في هذه الدار وتلك الدار . « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

(١) سعادة الماء في أهله

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل
« بينكم مودة ورحمة . إن في ذلك لآيات لقوله يتفكرون »

«قرآن کریم»

افتضحت حكمة الله سبحانه أن يوجد النوع الانساني اظهاراً لقدرته ، واقتضاء
لمشيئته . فأوجد الانسان الاول ، وخلق له زوجاً يسكن اليها ، ويائس بها ،
وأودع فيه تلك الغريرة ، وذلك الميل ، ليتمكن الازدواج ، ويكون من وراء ذلك
تكميل النسل ، وزيادة عدد هذا المخلوق . وجعل بينها عاطفة الوالدة لتتمكن حبال
الانفحة وسكنون كل منها الى الآخر . وغرس في نفوسها شجرة الرحمة لتشير
الصفح والاغفاء ، فيما لو شجر بينها خلاف في بعض الاحيان ، او قصر احدهما فيما
يجب له على الآخر . وان في هذا آية واضحة ، وحكمة سامية ، وعلامة ظاهرة ،
لا يدور كها إلا من اوتى عقلام مفكراً ، واعطى دماغاً كبيراً .

لو خلق الانسان على غير تلك الحال ، لما كان لهذا النوع اليوم بل قبل اليوم وجود ، بل كان في عالم الخفاء . لأن الرجل أو المرأة ان لم يكن يبنها الله ومودة ورحمة فلا يمكن ان يتأسس احدهما بالآخر ، وادام يكن انس فلا ميل ، وادام يكن

(١) الأهل الزوجة . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لاهله و انا خيركم لاهي » .

إلى ما يضر به، بحيث يكون دافعاً نشيطاً، في مأمن من العمل والاضطرار
تتمكّه وتجعله عرضة لكل طارىء من الأدواء.

أباحت له الطيبات من المأكل والشرب من غير اسراف ولا تبذير، ولاتضييق
ولا تقدير، كما قال تعالى: «كُلُوا وَاشْرِبُوا وَلَا تَسْرُفُوا»

أباحت له أن يستعمل أعضاء فيها خلقت لأجله، ولكن عند الحاجة والأمر وهو
أسي مما يظنه أهل الشهوات.

أياحت له أن يلبس ويتسم ، ولكن بشرط أن لا يصل به ذلك إلى درجة
الختونة ، ويخرجه عن دائرة الزوجية ، إن كان رجلاً ، وعن دائرة الأدب ، إن
كانت اذنها .

أباحت له الواحة والتنقل في أرض الله الواسعة ، والمتزهات الجليلة ، ولكن
بشرط أن لا يعتاد ذلك فيتمكن منه ، فيجد فيه الكسل وبغض العمل ، والميل
إلى الواحة ، وحب الدعوة والأعمال . لأنه متى تمكن من نفسه هذا الأمر ، كانت
حياته كهاشماءه وعناءه .

هذه آراء الطائفة الثالثة ، وهي آراء حميدة ، وأفكار سديدة ، فقد أخذت من كل شيء وأحسنته : أخذت من الأولى تطهير النفس وحملها على معالي الأمور ، وأخذت من الثانية النظر إلى ما يطلبه هذا الجسد من التغذية والماذو لكتنها بهذه تهذيباً يجعلها ملائكة موقعة فلم تتعجل لذلة الفعل ولذلة الجسد لأنها رأت أن لكل منها حقاً يطالب به ، وحيث في أن ينقاذه ، فسلكت الطريق الوسط ، لأن حب التناهى والفلو غلط . وقد جاء في الحديث الشريف : « إن لربك عليك حقاً ، وإن لنفسك عليك حقاً ، وإن لا هلك عليك حقاً ، فاعط كل ذي حق حقه » .

غير أننا لو دققنا في كلام ذهبي الطلاقتين الاولين ، وأراد ميريد أن ينحو منحي اتجاهها لا غير ، يقول له ان اتجاه منهج الاولى هو خير وأيقى وأسلم في الآخرة والابدية . هذا ابن لم نقدر على أن نحمله بالبرهان على سلوك أو وسط المذاهب : وهو أن يعطي لاعقل والروح حقهما ، ولاجلس حلقة كذلك .

مثل ما اعطي ايوب على بلائه ، ومن صبرت على سوء خلق زوجها اعطتها الله مثل ثواب آسمة امرأة فرعون » .

قال الامام الغزالى في كتاب الاحياء : « واعلم انه ليس حسن الخلق مهما كف الاذى عنها ، بل احتمال الاذى منها والحمد عند طيشها وغضبها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت ازواجاً تواجهنـ الكلام ، وتهجـهـ الواحدة مـنهـ يوماً الى الليل » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أكمل المؤمنين ايماناً احسنـمـ خلقـاً وأطـفـهمـ بـاهـلـهـ » وقال . « اتقوا الله في الضعيفين : المرأة والرقيق » .

ولـنـظـنـ انهـ متـىـ حـصـلـ التـسـاهـلـ منـ الطـرـفـينـ يـبـقـيـ هـنـاكـ نوعـ مـنـ الوـحـشـةـ اوـ المـغـورـ ، بلـ يـكـوـنـ كـلـ مـنـهـ مـجـبـراًـ اـذـ ذـاـكـ عـلـىـ السـكـونـ إـلـىـ الآـخـرـ وـالـمـلـىـءـ .

نعم ربـاـ يـكـوـنـ هـنـاكـ اختـلـافـ كـبـيرـ فيـ الاـخـلـاقـ ، اوـ تـبـاـيـنـ منـ حـيـثـ جـمـالـ الـبـاطـنـ اوـ الـظـاهـرـ ، فـجـيـنـدـ يـصـبـ اـذـلـافـهاـ وـيـتـعـذـرـ انـ يـكـوـنـ سـعـيـدـينـ فيـ حـيـاتـهـاـ . وـالـأـوـلـىـ هـاـ اـذـ ذـاـكـ يـتـفـقـاـ انـ كـانـاـ مـنـ اـصـحـابـ الشـرـائـعـ الـتـيـ تـجـيـزـ ذـاـكـ .

وانـ مـنـ خـطـأـ الـآـبـاءـ وـالـمـهـمـاتـ انـ يـزـوـجـ اـوـلـادـهـاـ مـنـ رـجـلـ اوـ اـمـرـأـ قـبـلـ انـ يـخـتـبـرـ اـرـادـهـاـ وـمـيـلـهـاـ . وـانـ اـكـثـرـ مـاـ نـاهـ منـ شـفـاءـ حـيـاةـ الزـوـجـينـ نـاتـجـ مـنـ اـهـمـ هـذـاـ الاـخـتـيـارـ ، وـاجـيـارـ الـوـلـدـ اوـ الـبـيـتـ عـلـىـ الـاقـرـانـ بـنـ لـاـ نـوـدـهـ اوـ لـاـ يـوـدـهـهـاـ . فـيـجـبـ الـاـهـمـاـتـ هـذـاـ الـاـمـرـ اـهـمـاـمـاـ ظـيـلـاـ ، وـالـاـكـانتـ العـاـقـبـةـ شـرـاـ عـلـىـ الزـوـجـينـ وـعـلـىـ اـوـلـادـهـاـ .

سبـبـ سـقـاءـ الزـوـجـينـ وـشـقـاقـ بـيـنـهـماـ ، اـمـاـ انـ يـكـوـنـ مـسـبـبـاـ عنـ كـرـاهـيـةـ اـحـدـهـاـ الـاـخـرـ لـاجـلـ جـمـالـ الـخـلـقـ اوـ جـمـالـ الـخـلـقـ . فـفـيـ الـحـالـةـ الـاـوـلـىـ يـجـبـ انـ لاـ يـقـرـنـ الـاـخـرـ بـاـمـرـأـهـاـ الـاوـصـافـ الـتـيـ يـرـيدـهـاـ ، حـتـىـ لـاـ يـكـوـنـ عـدـمـ جـهـالـهاـ دـاعـيـاـ لـلـمـغـورـ فـيـهاـ بـعـدـ . وـمـعـرـفـةـ جـهـالـهاـ يـكـوـنـ بـالـنـظـرـ إـلـىـ الـلـهـ قـبـلـ الـعـقـدـ ، وـذـلـكـ جـائزـ شـرـعاـ ، وـقـدـ نـصـتـ عـلـيـهـ الـاـحـادـيـثـ الـتـبـوـيـةـ وـالـكـتـبـ الـفـقـهـيـةـ . قـالـ الرـسـوـلـ عـلـيـهـ السـلـاـمـ : « اـذـ اـوـقـعـ لـهـ فـيـ نـفـسـ اـحـدـكـ مـنـ اـمـرـأـ فـلـيـنـظـرـ بـيـهاـ فـازـهـ اـخـرـىـ اـنـ يـؤـدـمـ (ـيـوـلـتـ)ـ بـيـنـهـاـ » اـيـ انـ النـظـرـ بـيـهاـ قـبـلـ الـعـقـدـ جـدـيـدـ بـاـنـ يـكـوـنـ وـاسـطـةـ لـلـأـلـفـةـ بـيـنـ الزـوـجـينـ . وـكـانـ بـعـضـ

هـذـاـ يـجـبـ عـلـىـ كـلـ رـجـلـ وـانـثـىـ اـنـ يـتـلـقـنـ دـرـوـسـ التـبـرـيـةـ وـمـعـنـ الـحـيـةـ الـزـوـجـيـةـ قـبـلـ انـ يـكـوـنـ كـلـ مـنـهـ زـوـجـاـ ، حـتـىـ اـذـ بـلـغـ ذـلـكـ الـمـلـأـ وـاقـتـونـ كـلـاـهـاـلـاـلـاـخـرـ ، يـكـوـنـ عـارـفـنـ وـاجـبـاتـهـاـ وـالـسـبـابـ الـتـيـ تـبـثـ دـعـامـ الـاـلـهـ وـمـكـنـ عـلـىـ الـمـوـدـةـ . وـالـاـكـانتـ عـيـشـتـهـاـ شـقـاءـ ، وـكـانـ الـمـاـتـ خـيـرـاـ مـنـهـاـ . هـذـاـ اـنـ لـمـ يـشـتـدـ الـبـغـ وـيـقـوـ النـفـورـ عـلـىـ درـجـهـ عـدـمـ الـمـلـطـقـ ، فـانـ وـصـلـاـتـ الـهـذـىـ مـنـ الـوـحـشـةـ وـالـشـجـنـهـ فـهـنـاكـ انـقـطـاعـ النـسـلـ وـخـرـابـ الـعـرـ ، وـضـيـاعـ تـلـكـ السـعـادـ الـتـيـ مـاـ اـفـتـنـاـ الـاـلـجـهـاـ . وـاـنـ ذـاـكـ الشـقـاءـ لـاـ يـقـتـصـرـ عـلـىـ زـوـجـهـاـ ، بـلـ اـنـ يـتـجـاـوزـهـاـ اـلـىـ اـوـلـادـهـاـ . اـنـ كـانـ لـهـ اـوـلـادـ . وـالـىـ مـنـ سـاـكـنـهـاـ اوـ جـاـوـرـهـاـ بـجـمـعـ الـعـدـوـيـ .

فـإـنـ اـرـادـ الـرـجـلـ اـنـ يـكـوـنـ سـعـيـدـاـ فـيـ زـوـجـهـ ، بـعـيـداـ عـنـ التـزـاعـ وـكـلـ مـاـ يـعـلـمـ صـفـوهـ مـكـدرـاـ ، فـلـيـتـعـدـ عـنـ كـلـ مـاـ يـكـوـنـ سـبـبـاـ لـلـشـقـاءـ ، وـوـاسـطـةـ لـلـشـجـارـ . كـمـ يـجـبـ عـلـىـ الـزـوـجـهـ كـذـلـكـ اـنـ اـرـادـتـ اـنـ تـكـوـنـ سـعـيـدـةـ فـيـ حـيـاتـهـاـ . وـذـلـكـ يـكـوـنـ بـحـلـ اـحـدـهـاـ عـنـ دـعـبـ الـآـخـرـ ، وـتـغـاضـيـهـ عـنـ سـيـئـةـ حـصـلـتـ وـتـجـاـوزـهـ عـنـ خـطـأـهـ فـمـ بـهـ حقـ وـاحـدـ مـنـهـاـ . فـانـ عـفـاـ الـزـوـجـ عـنـ زـلـةـ اـمـرـهـ ، وـاـغـفـلـتـ الـزـوـجـهـ عـنـ ذـنبـ زـوـجـهـاـ ، تـشـتـدـ بـذـلـكـ اـسـبـابـ الـاـلـهـةـ وـالـمـاـوـدـةـ ، وـتـمـوـ عـاطـفـةـ الـحـبـةـ وـالـرـحـمـةـ . وـهـذـاـ يـكـوـنـانـ سـعـيـدـيـنـ فـيـ حـيـاتـهـاـ .

وـانـ الـرـجـلـ هوـ اـوـلـىـ مـنـ اـلـزـأـةـ بـهـذـاـ الـعـنـوـ وـالـاـغـضـاءـ وـالـلـوـحـمـ ، اـلـىـ عـقـلـهـ اوـ جـجـ وـصـدـرـهـ اـرـحـبـ ، وـاـخـلـافـهـ اوـسـعـ . فـيـجـبـ عـلـيـهـ اـنـ يـصـبـ وـيـرـحـمـ وـيـعـفـوـ وـيـسـمـحـ ، اـنـ رـأـيـهـ مـاـ يـوـجـبـ سـخـطـهـ وـغـضـبـهـ . وـلـيـنـضـحـ لـهـ وـيـعـظـهـ ، وـبـيـنـ هـاـ خـطـأـهـاـ وـسـيـئـتـهـاـ بـالـظـفـرـ وـالـاـحـسـانـ وـالـقـوـلـ الـمـعـرـوفـ ، وـالـمـوعـنـةـ الـحـسـنـةـ وـالـخـطـابـ الـلـيـنـ ، وـبـذـلـكـ يـمـلـكـ قـابـهـاـ وـيـسـتـعـوـذـ عـلـيـهـاـ ، حـتـىـ تـكـوـنـ لـهـ طـبـيـعـةـ كـاـبـيـدـ .

فـقـالـ اـللـهـ تـعـالـىـ : « وـعـاـشـ وـهـنـ بـالـمـعـرـوفـ فـانـ كـرـهـتـهـوـنـ » فـعـسـىـ اـنـ تـكـرـهـوـاـ شـيـئـاـ وـيـجـلـ اـللـهـ فـيـهـ خـيـرـاـ كـثـيرـاـ » قـالـ الـبـيـضاـويـ فـيـ قـسـيـرـ هـذـهـ الـآـيـةـ : « اـيـ فـلـاـ قـفـارـقـوـهـنـ لـكـرـاهـهـ الـنـفـسـ ، فـانـهـاـ قـدـ تـكـرـهـ مـاـ هـوـ اـصـلـحـ دـيـنـاـ وـاـكـثـرـ خـيـرـاـ » ، وـقـدـ تـحـبـ مـاـ هـوـ بـخـلـافـهـ . وـلـيـكـنـ نـظـرـكـ مـلـىـ مـاـ هـوـ اـصـلـحـ الـلـدـنـ وـادـنـىـ الـخـيـرـ » . وـقـالـ الرـسـوـلـ عـلـيـهـ السـلـاـمـ : « مـنـ صـبـرـ عـلـىـ سـوـءـ خـلـقـ اـمـرـأـهـ اـنـطـهـ اللـهـ مـنـ الـاـجـرـ .

والتعلم وليكن ذلك هو غاية ما يسمى به ، ثم يبحث عن المجال الظاهري ، حتى اذا فقد هذا فلا يسبب وحشة او تفورة ، بل يكتفى كل منها من صاحبه بما اودعه الله فيه من الاخلاق النافذة والتربية الصحيحة وحسن السيرة – جاء في الحديث الشريف « تنكح المرأة بجلالها وما لديها وحسبيا فليلك بنات الدين قربت يداك » اي ان من يرغب في نكاح امرأة فانما يرحب فيه لأمور : اما لماها ، او حسبيها ، او جمالها ، او دينها . فالرسول محمد ان ينكح الانسان غير صاحبة الدين ، لأن الدين جماع الاخلاق الفاضلة ، ومصدر الكلمات الصحيحة ، فإن المجتمع مع ذلك الحسب وبجمال والمال ، فذلك نعمة فاضلة . اما ايشاد الزوجية او صاحبة المال او الشرف على المرأة الصالحة ذات الشامة والدين ، فذلك خطء كبير .

الحقوق الزوجية

ان للزوجية فوائين واضولا يكون بها هذه الزوجين وحياتها الطيبة ، فللزوجة على زوجها حقوق مقدسة ، وللزوج على زوجته واجبات شريفة كذلك ، ففي راعي كل منها ما لصاحبه على الآخر من الحقوق ، كانت حياتها سعيدة ، لا يشوجهها شائبة من الشقاء او الشقاء . غير ان كثيراً من الازواج والزوجات لم يراعوا تلك الواجبات ، بل ان الزوج يستبد بزوجته ، والزوجة لا تواعي حرمة زوجها ولا درجة غناه وكسبيه ، فتجز عن ذلك ما جعل حياتها تعسة غير صالحة . وقد ملئت بطول الكتب السماوية والمؤلفات من تلك الحقوق التي يجدر بكل عاقل أن يتبعها ولا ينجد عنها قيد شير . فجدا لو ان رجال الدين والأخلاق والكتبة والشعراء يسلكون هذه السبيل ، ويروضون هذه الواجبات ليعرفها كل احد . وبحذا لو ان مدارستنا على اختلافها : سواء كانت للذكر أو الإناث تتبع في برنامج دروسها الصنوف العالية والمتوسطة درساً يبحث فيه عن هذه السائل التي عليها مدار الحياة

(١) تربت يداك : هذه من الكلمات التي جاءت عن العرب صورتها الداعمة على الإنسان وليس المراد بها ذلك . بل المراد بها الحث على التقوى والتحريض عليه : وأصل معنى تربت يداك : لصقنا بالتراب . ويفكر بها عن الفقر

الورعين لا ينكح كرامه الا بعد ان ينظر اليهن من اراد خطبهن ، دفماً لغدوره . فربما تزوجت المرأة من لا يعرف من صفاتها شيئاً ، فيكون سبباً للاكراهه والبغض . نعم ان العادة اليوم تمنع من رؤية المرأة قبل العقد عليها ، غير ان الرجل يمكنه ان يرسل بها ترقى من يريد ان يبنيها ، وهي ترقى له من تجد فيها الاوصاف التي يميل اليها ، وينبغي له ان لا يكتفى واحدة ترقى له تلك المرأة ، بل ليرسل ثانية وثالثة ورابعة حتى يشق قام النقمة ، ثم بعد ذلك يعقد عليها .

وكما ان النظر للمرأة مطلوب ، فالنظر للرجل مطلوب كذلك ، فربما تزوجت المرأة من لا تجب ، فيكون ذلك داعياً لسوء المشرفة ونكد العيش . حتى انه يحرم على الرجل ان يحسن هيئته لترغب فيه المرأة او اهلها ، كما يحرم على المرأة ذلك . فقد روي ان رجلاً تزوج على عدم عمر رفيه الله عنه ، وكان قد خصب فنصل خضافه « اي غير هيبة شعره ليظهر انه شاب » فتحلل المضاب » فاستدعي عليه اهل المرأة إلى عمر وقل لها : عصبتنا شاباً ، فأوسعه عمر خرباً وقال : غررت القوم .

هذا ان كان النفور بسبب المجال الظاهري . اما ان كان بسبب مجال الاخلاق وحسن الطياع ، فيجب على الرجل ان يبحث عن اخلاق اهلها . ويستطيع طياع اهل بيتها ، بأي واسطة كانت . فان كانت كما يريد اقرن بها ، وإلا أهلها ، ولو كانت اجمل اهل زمانها .

هذا وان اشتغل الزوجين قبل العقد لا يفيد في استطلاع احوالها واخلاقها لأن كل منها يجتهد في اظهار احسان الاخلاق ومحارب الصفات ليحبب فيه ، وكثير منهم ومنهن يكون بعزل عن الاخلاق الصحيحة والضرائب الجديدة ، فيكون ذلك من باب الفش والتغريب ، وكلاهما حرام شرعاً وعقلاً .

كثير من الناس يراغعون في الازواج جانب الغنى والجاه والاجد ، ويجملون جانب الاخلاق والعلم والسيرة الحسنة . وذلك مجال اكبر ما نزاه من الشقاء والغفور بين الزوجين ، وان حصل بينهما الفتنة ووهاد فلا يلبي ذلك ان ينزل بزوال غنى احدهما او جاهه او جاهه ، فينقلب أنفسها وحشة ، وسعادةها شقاء .

وان العاقل يبحث بأدبيه ذي بدء عن مجال الاخلاق وحسن التربية والتهذيب

فني لاحظ المرأة ذلك وعمل بالواجب عليه فهو امراته ، ومني قامت المرأة بالحقوق المفروضة عليها ، وعمل كل منها لتفع الآخر وأيناسه ، وووجدت بينها المودة والرحمة ، وسكن كل منها إلى الآخر ، فهناك السعادة الحقيقة ، في الحياة الزوجية .

جـ - سعادة المؤء في ماله

يعتبر المال ثلاثة عوامل: الاسراف والاقتصاد والتقتير . ولا تزال هذه العوامل الثلاثة في مجاليدة ما دام صاحب المال لا يستقر على حاله وأكثر الناس مغلوبون بعامل الاسراف او التقتير . وقليل من يسلك الطريق الوسط الذي فيه السلام وهو « الاقتصاد » .

١ - الاسراف

هو التطرف في الإنفاق ، كأن ينفق ماله على ما يعني وما لا يعني ، وما يلزم وما لا يلزم ، وهو صفة من الصفات التي تناقض النضالية . وهو الآفة التي تجتاح الزوجة ، وتجعل صاحبها فقيراً بعد الغنى ، ذليلاً بعد الغز . فيصبح بعد ان كان طوبى اليد في البذل على ما يجب ويشتهي ، قصيراً اليد خبيث الصدر ، يتنسى الموت فلا يهدى إليه سبيلاً ، ويصدق عليه حديث المثل العامي : « العين بصيرة واليد قصيرة » وذلك انه ينظر الى ما كان قد تعوده من المشتريات والتتوسع في الرفاهية ورغبة العيش ، فيما يده ليتناوله فتقصر عن منوالته . وما هذا الفخر الا قلة المال أو فقده . فلو انه استعمل الحكمة في الإنفاق : بحيث لا يصرف المال إلا فيما يحتاج اليه لعاش عيشة راخيحة ، وهي حياة السعادة .

ومن غريب اموال المسرفين المبذلين انهم لا ينفقون اموالهم الا في سبيل الشهوات ، وتعاطي المذاقات كصرفها على الغانيات ومساكن الاهو والمقماره ، وغير ذلك من الاعمال الخلة بالآداب ، المفسدة للأخلاق ، الامادمة أركان المذينة الحق .

السعيدة . فإن ذلك هو خير من كثير ما يدرس في المدارس .
لا شك ان الرجل قد هضم كثيراً من حقوق المرأة التي أوجبها الله عليه ، وجعلها آلة بيده يتصرف بها كيف يشاء . فحررها من التربية والتعليم ومن كل ما ينبع عنها من وهة القباوة ، ويرفع عنها ستار الجهل . فقد ظن أنها لم تخلق إلا لشهوته ، ولم توجد إلا ليستبدل بها ويسحق عليها ، غير ناظر إلى أن الله سبحانه وتعالى جعلها متساوية له في الحقوق الدنيوية والأخروية ، ومقارنته له في كل شيء إلا في السلطة الشرعية التي منحه الله إياها . وهذه السلطة هي سلطة مسدودة أو دعوه الله بيده الرجل لأنها أقوى جسماً وأوسع عقلاً ، غير أنه قد توسيع في هذه السلطة وأوصلها إلى حد غير معقول ، فتعصت بذلك حالة المرأة ، وتعصت حالتها هو أيضاً تعصاً لعصابة الحال أمرأته . وذلك لأن المرأة التي يضطهدتها زوجها او من له حق الولاية عليها تنظر إليه نظر العدو الألد والأسد الكامر . كما انه ينظر اليها نظر الحياة الضميف المضوم الحقوق . وفي ذلك شقاء الحياة الدائم لكل منها .

المرأة قد خلقت لامر هو اعمى من قضاء الشهوات والذل :
خلقت لتكون قرينة الرجل ، وشريكه له في سعادته وبوسه ، ومعينة له في ترتيب منزله ، وتسهيل الامور التي لا يستطيع ان يفعلها .
خلقت لتكون له انسنة عند الوحشة ، ومستودع اصراره عند الحساوة ، ومحفنة آلامه وصائبته عند الشدة .
خلقت لتكثير النسل ، وتقويته ، وتنديمه ، واعداده ليكون من القوى الذين يقوون باعباء الخدمة الوطنية ، وينفعون امتهم وبالادهم .
وان هذه الشهوات الحيوانية لم توجد الا وسيلة لذلك ، ولو كان هناك واسطة لاستعمال غيرها لكان قد استبدلت بها .
ان الرجل العاقل لا يرغب في الزواج قضاء لشهوته ، وإنما يرغب فيه قضاء لواجب من ايجاد نسل صالح يكون عوناً له وخداماً لأمتة في الدنيا ، ووسيلة للجزاء الاولى في الآخرى . فقد ورد في الحديث الشريف: « اذا مات ابن آدم انقطع عراه الا من ثلاث : صدقة بخارية ، او علم يذتفع به ، او ولد صالح يده وله »

كيف الوصول إلى سعاد ودونها «فأك الجبال ودونهن» حتّى
الرجل حافية وما لي مركب والكف صفر والطريق محظوظ
ومتي استهلل الطريق ، وانفرجت الازمة ، وحصل على مشتها من المال ،
فإنه ينفع في حماة الله ، ويفرق في تيار الشهوات . قال الله تعالى : «كلا ان
الانسان ليطغى ان رآه استغنى » .

ومتي اعتاد المرء التبني في تلك السبيل ، فهو يسلو كل شيء من امور الحياة
إلا ذلك ، ولته يكتف عن غزوته متى نقد ما لديه من المال المتقد ، بل انه يحمد
الله ما عنده من عقار فيبيعه ، وما لديه من تجارة فيجعلها كامس الدابر ، حتى
يصبح صفر الدين ، فارغ الكفين .

واغرب من ذلك انه بالنظر لاستحکام العادات البدئية في المسارين فانهم
لا يكتفون باتفاق المال النقد وبيع التجارة والعقارات؛ بل انهم يلتجأون الى الاستدامة
فيقولون تحت نير الدين ثم لا يتمكنون من ايفائه ، وانى لهم ان يوفوه وهم
ينفقون دون ان يسعوا او يتكلروا في عمل يعلمونه ؟ ومع ذلك فهم لا يتقىكون
ما استعادوه ، وادا قيل لهم في ذلك ، فهم لا يلتوون على القائل بل يلومونه ،
ويضرون بتصريح عرض الحال ، فالكلام معهم صيحة في واد ، او نفخة في
رماد .

لعمري ان من كانت حالاتهم كما شرحنا ، فهم عمي القلوب ، طائشو العقول ،
ضائعوا الاحلام ، لأنهم لم يستحملوا تلك الجوهنة النفسية - وهي العقل - فلما
وضعت لأجله ، ولو كانوا عقلاً لضحكوا فليلاً وبكوا كثيراً ، وافكروا في
حالاتهم ، وفيما تؤول إليه عاقبة شأنهم ومغبة امرهم : فإن من تأمل في العواقب ،
أمن من المصائب .

اما اغتراره باتفاق الاموال تلقاء لذة معنوية - والابولى ان نسميتها بالخيالية او
الوهية - فهو ان يسرف في سهيل الحال وبعد الصيت . وذلك هو الشرف الكاذب
والحال الخادع ، لأن الذي يعظمه ويحترمه لاتفاقه عليه والارتفاع منه ، لا يلبث ان
يُبعِّـج عن موادته ، ويقلع عن احترامه ، متى انقطعت موارده عنه . ومن الغرابة

ولو أجمع هؤلاء المبذرون على اتفاق تلك الاموال الوافرة ، في سبيل تعزيز
الامة ، لكن لنا اليوم اسطولان «مهان» : اسطول محارب به العدو المحسوس ،
واسطول محارب به العدو المعنوي ، وما هذا العدو المعنوي الا الجبل ، وما
الاسطول الذي محاربه يه الا المدارس ، ولكن اين من يسمع فيعقل ، فيعمل بما
يعقل ؟

رأينا وسمينا ان كثيراً من الناس ورثوا ثروة عظيمة عن آباءهم ، ثم لم تلبث هذه
الثروة أن زالت في بضعة أشهر أو بضع سنين ، حسبما تكون من حيث القلة
والكمية ، ثم رأيناهم بعد ذلك وقد أكلات المفوم عليهم وشربت ، ونجحت
عنراكب المفت والذل على رؤوسهم أكاليل الهوان والعيش الت糠 : «واذا أردنا ان
نُهلك قرية أمرنا مُترَّفيها ففسقوا فيها فحق علينا القول فدْمَ رناها تدميرًا» .

أجل إن الترف او كثرة الغنى داعية الفسق والاسراف . ولكن المترف لو
عقل ، ونمّح منيجه العدل ، واتبع سنن الله في خلقه ، فإنه لا يفتر باديه من المال ،
فننفقه كيما اتفق : في امر مشروع وغير مشروع . بل يتخد لنفسه نظاماً ، ويختلط
لها سبلاً لا يحيط عنها :

والدرهم الايض وهو في يدي ينفعني في كل يوم اسود
الاسراف سيبيان يرجعان الى سبب واحد وهو الفرور . فان غرور الانسانت
هو الذي يدعوه الى اتفاق المال دون النظر في مبنية هذا الامر .

والفرور اما ان يكون بأمر محسوس ، وهو السبب الاول ، واما ان يكون
بأمر معنوي ، وهو بالتحليل أشبه ، وتسهيته به أحق .

اما اغتراره بالمحسوس ، فأعني به ميله الى الشهوات والترف وحبه للاموال .
ذلك لأن الانسان ميل بطبيعته الى الشهوات الجسمية ، وتضييع الوقت في العبث
والله ، ولا يمنعه من ذلك الا شيئاً : الاول طهارة النفس ، وهو المغير عنة
باتقوى . وقليل من قننه طهارة - متى كان قادرًا - عن نيل شهواته ، والثاني
شيء ذات يده . وهو الذي يجعل طريقه الى ما يميل اليه وعراً ، وهذا قيل :
«من العصمة ان لا تجد» وقال الشاعر :

وقد رأينا كثيراً من انعم الله عليهم بالاموال ابجده يضنون على أنفسهم ، حتى بأحوج ما يحتاجون اليه . وان دعوا إلى بذل جزء قليل من مالهم لتعزيز أمتهم ، ورفع شأن دولتهم ، فكأنما مستهم طائف من الجن . وان قاما لاعادة مشروع خيري ، فلا يقرونون اليه إلا كي يقوم الذي يخبطه الشيطان من المس .

إلمَ إذن يجمع هؤلاء الناس الأموال ؟ أليأخذوها معهم إلى الدار الآخرة ؟ فانهم لا يأخذونها - لأجل أن يتركوها تراثاً للوارثين لا فنجهن لا نطلب منهم أن ينفقوا على أنفسهم وعلى الأمة كل أموالهم ، وإنما ترغب بهم أن يحسنوا معيشتهم ، وأن ينظروا إلى هذه الأمة المسكينة بعين الرأفة والحنان ، فقد كفاهما تأخراً والخطاطاً .

إذن فهم يجمعون المال الحال ، فهم إذن مجاهين ، لأن العاقل يسعى وراء الشيء لا لذاته الشيء ، وإنما يتوجه ذلك الشيء من الفائدة العاجلة أو الآجلة . والمالي لم يستخدم ويستنتاج منه الانسان فائدة لنفسه أو قومه ، فهو مبتلا بالجبارية ، ذو جمع بدل المال حصى ، ورضعها في صندوقه لتم له ما يريد ، لأن في جمع كلا

الشيئين عدم الفائدة : وأمال مثلك الحصى مادام في يدنا وليس ينفع الا حين ينتقل

فالإسراف والتقتير مذمومان ، لأنهما لا ينيلان المرء سعادة الحياة . وبين هاتين الرذيلتين وسط ، هو الاقتصاد الذي يجعل الانسان سعيداً في حياته ، ذا رغبة وطمأنينة في معيشته .

وأصل ذلك قوله تعالى : « وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فستره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردى »^(١) وقوله عز وجل : « ولا يحسن» الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضلهم هو خيراً لهم بل هو شرّ لهم ، سيطرون ثروة ما يخلون بها يوم القيمة ، والله ميراث السماوات والأرض ، والله بما تملون خير » وقوله : « ومن يبخلاً فاما يبخلا عن نفسه ^(٢) والله الغنى وأنت الفقراء » وقوله : « ان الله

(١) تردى : هلك (٢) ذلك لأن ضرر البخل ونفع الإنفاق عائدان على المرء نفسه .

يمكن ان كثيراً من هؤلاء الم serifin يسعون لاكتساب المال كفيها اتفقاً ، ليسدوا ثغوراً فتحها عليهم تطاحب الشرف الوهي . وكثيراً ما يضعون في رفاههم نيز الدين ثم يجهدون لإيقافها فلما يسيطرون على ذلك سيلـا ، ولا يلبثون ان يقتضي امرهم وينكشف عوارهم ، ويفشل ثوب رياهم عما اختره ، ويبدل نعيمهم بالبؤس ، ويتوثر جاههم الخالـب بمـاء الموانـ، ويـنـاطـخـ شـرفـهمـ الكـافـ بـأـوـحـالـ الذـلـ .

بقي علينا أمر واحد ، وهو ان الاسراف في المبرات و فعل المثيرات ، هل هو من باب الاسراف المذموم ؟ والجواب على ذلك : انه لا خلاف في ان إنفاق الاموال على المثيرات والمبرات ، مختلف باختلاف اصل الثروة ، فرب إنفاق عظيم الذي ثروة عظيـيـ بعد اقتـاصـادـ . ولو انفق المال نفسه وجل ثروته لا يعادل معدـلـهاـ ماـ انـفـقـ ، فإنه يعد امراً بلا شـهـةـ ، ولـكـهـ لـيـسـ كـالـانـفـاقـ عـلـىـ التـمـتـعـ بـالـشـهـوـاتـ ، فـانـ هـذـاـ مـذـمـومـ عـلـىـ كـلـ حـالـ ، قـلـ اوـ كـثـيرـ ، الاـ اذاـ كانـ عـلـىـ شـهـوـةـ مـشـرـوـعـةـ فـيـحـمـدـ لهاـ الانـفـاقـ القـلـيلـ وـيـذـمـ الـكـثـيرـ .

قبل لرجل مشرف : لا نـخـيرـ فيـالـاسـرـافـ » فـقـالـ « لاـ إـسـرـافـ فيـالـخـيـرـ » وهذا جواب حسن لا يأس به من حيث الصناعة الفقهية ، ولكن لو نظر فيه من حيث تطبيقه على قواعد الحياة لكان غير محفول به ، ان لم يرجع الى ما قدمـناـهـ آنـفـاـ ، وهو ان الإنفاق يجب ان يكون بنسبة اصل الثروة .

واصل ذلك قوله تعالى : « وآتـ ذـاـ القـرـبـيـ حـقـهـ وـابـنـ السـبـيلـ ، وـلاـ تـبـدـرـ تـبـدـيـراـ . اـنـ الـبـذـرـيـنـ كـلـوـ اـخـوـانـ الشـيـاطـيـنـ ، وـكـلـ الشـيـطـاـنـ لـرـبـهـ سـكـورـاـ » .

٣- التقتير :

هو التقييد في الإنفاق مع القدرة عليه ، فكما ان التبذير مذموم لانه إنفاق على غير الحاجة ، فكذلك التقتير مذموم لأن فيه تضييقاً على النفس وعلى العيال ، وهو داع لأن يعيش المرء عيشة ضنكـاً ، ويجـيـهاـ حـيـاةـ شـقـيـةـ . فالـعـاقـلـ منـ يـتـمـ لأنـ يـجيـهاـ حـيـاةـ سـعـيـدةـ لاـ يـبـوسـ فـيـهاـ ، لاـ أـنـ يـكـنـ الـأـمـوـالـ فـيـ الصـنـادـيقـ وـالـمـاصـارـفـ (ـالـبـنـوـكـ)ـ وـيـعـيـشـ عـيـشـةـ الـفـقـرـاءـ الـبـائـسـينـ . وـلاـ يـعـمـلـ ذـلـكـ الاـ مـنـ صـفـةـ نـفـسـهـ ، وـأـخـاعـ وـشـدـهـ

٣ - الاقتصاد :

هو فضيلة بين نقتصين . وهو الحد الوسط بين الاسراف وبين التقتير او البخل او الشح . قال الله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملؤماً مسحوراً » و قال عليه الصلاة والسلام : « ما عالاً من اقصد » وقال : « الاقتصاد في النفقة نصف العيشة » وقال : ثلات منجيات : خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الغنى والفقير ^٢ ، والعدل في الرزق والغضب » وقال : « من اقصد أغناه الله ، ومن بذر أفقره الله » .

الفضيلة أمر محظوظ يريده كل انسان ، ولكن الناس كثيراً منهم من خل الطريق الموصى إليها ، فهم يتلمسونها على غير هدى . فنفهم من يظن أنها في المبالغة في الأمر ، ومنهم من يظن أنها في التهاون فيه . فهم على طرق تقىضي و « كالاطراف قصد الأمور ذميم » وقليل من يسلك قصد السبيل ويتمسها في أوسط الأمور ، وقد قيل : « حب التناهي غلط ، خير الأمور الوسط » والوسط فيها نحن فيه هو الاقتصاد ، لأنه يجعل الرء على ان لا يضيق على نفسه ، ولا على عياله ، ولا على أمته التي يكسب من ثمارها ، وبخفي من ثارات أعمالها ، ويسعّن اليه أثر لا ينفع أمواله فيها لا فائدة حقيقة فيه تعود عليه وعلى أمته .

فالعقلاء إذن من يسلك هذه السبيل ، وينظر إلى أمواله نظر المستفي عنها الحاج إليها . فإن فعل ذلك كان سعيداً في ماله ، وعاش عيش الاغتباء ، وحيى حياة السعداء . قال رسول الله ﷺ : أعمل لدنياك كأنك تميش أبداً ، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

الاقتصاد : تدبير معقول يقصد به افباء الثروة ، وهو قسمان : اقتصاد سيفي واقتصاد فدي او شخصي ، فالاول تدبير اجتماعي يقصد منه توسيع الثروة العامة : اي افباء ثروة الامة لتكون في حال حسنة من حيث المعاش والرفاهية ، ولتكون البلاد راقية علمياً وصناعة وتجارة . ومن اتسعت ثروة الامة تصير الحكومة غنية

(١) عال افتقر (٢) اي التوسيط فيها في الانفاق ونحوه

باتناه من الافراد من الفرائب والاعمالات . ومتى صار للحكومة مال نام عظيم فانها تصرفه في ترقية البلاد ، وتحسين زراعتها ، وتوسيع صناعتها ، واصلاح طرقها ، وتلجم ابنائها ، وغير ذلك مما تعود فائدته على الامة بالخير والنجاح .

واما الاقتصاد الفردي او الشخصي - وهو الذي نحن بصدره - فهو تدبير من شخص يقصد به زيادة ثروته ، ليتمكن من أن يعيش عيشة راضية ، وليدفع بذلك عن نفسه وعن أسرته غالفة الفقر وال الحاجة ، في الحال والاستقبال .

والشرط في الاقتصاد أن يتفق أقل ما يكتب ، ثم يعمد الى الباقي فيجعله بحيث يأمن عليه . ولا فرق بين أن يكون الشيء الذي اكتسبه قليلاً أو كثيراً فان القليل يكتنف بـ « حم » اليه قليل مثلاً ، حتى يتآلف منه مع القيمة مع القيمة يسعين بها المقتصد على نوائب الدهر وعادات الزمان . فان « المرأة لا يدرى ما يأتيه به المستقبل ، لأنها يجهل الغيب . فالدهر ابو العجائب » وصروف الايام أنها ، وحالة المرأة بينها ، يدفعها الاول فتلقاها الثانية ، فتبقي حاملها الى ان تتضخم ، ثم هو لا يعرف ماذا تدار له ؟ أحالة رضية أم حالة شومي ؟ فان كان المرض عاقلاً فإنه ينقي صروف الدهر بما يحتظبه من المال ايدفع عنه عوادها .

كثير من الناس استغنووا بعد الفقر حتى صاروا من كبار الاغنياء . وما سبب غناهم الا الاقتصاد في العيشة ، فقد كانوا يقتضدون جزاً قليلاً ما يكتسبون وبعد مدة توفر لهم مال كافٍ ، فتاجروا به وربحوا ، وصاروا من اعاظم الائمة - ومن هؤلاء جهور عظيم من المؤمنين في امريكا واوروبا ، وفي بلادنا منهم ايضاً قسم ليس بالقليل .

غير ان كثيراً من الشبان عندها لا ينتقدون الى هذا الامر المهم ! فهم ينفقون كل ما يكتسبونه ولا يذخرنون للایام القابلة شيئاً . ومن الغريب الذي يكتسي العاقل أنهم ينفقون تلك الاموال على شرب المخدر وبنات الموى والميسر (اللهار) وغير ذلك مما يجلب لهم الامراض وسوء السمعة في الحياة الدنيا ، ويسبب لهم الملت في الدار الآخرة .

والاقتصاد وافباء الثروة طرق كثيرة :

أهلهان لا ينفق على شيء إلا بقدر ما ينتفع منه ، وأن لا يقتني من المأكل والمملبس إلا ما يلزمه ، وأن يعيش عيشة إمالة ، وحسب المكان الذي هو فيه وإن ينفق أقل مما يكسب ، وأن يتبع عن الاستدامة بقدر المكان . فان كانت لا بد من ذلك فعليه أن يبذل الجهد لزيادة الدين في موعده ، وأن لا يستدين إلا أن كان واثقاً من إيفاء ذلك الدين في وقته المعين . فإن عمل بما قدّمنا بإتقان نام فتكتون له بعد حين ثروة بنسبة اقتصاده واعتئاته .

هذا ولا ينبغي في اقتصاد المال أن يكون في درجة البخل والتضييق ، كما يفعل بعض الناس مدعين أنهم يفعلن ذلك خشية الفقر ، لأن عملهم هذا هو عين الفقر ، فهم من خشية الفقر في الفقر ، كما قال المنبي :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مكافحة فقر فالذى فعل الفقر



وخلصة الكلام . أن سعادة المرأة في ماله تكون في سلوكه السهل الوسطى : بان لا يقترب ولا يبتدر ، بل ينفق حيث يدعوه الانفاق ، ويمسك حيث يكتون الإنفاق على غير جدوى ولا يكون منه فائدة فمن سلك هذا السبيل عاش عيشة المناه ، والرفاء ، وحي حياة السعداء .

ووصل ذلك كله قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلوظة إلى عنقك ، ولا تبططها كلها البسط ، فتقعد ملوماً محسورة » وقوله عن وجل : « والذين إذا أتفقوا لم يسرفوا ولم يفتروا ١ وكان بين ذلك قواماً ٢ . »

٥ - سعادة المرأة في ولده

ان للزوج فوائد كثيرة ومنافع جلى . منها إحسان الزوجين وحملها على

(١) لم يسرفوا : لم يجاوزوا حد الكرم والاقتصاد . لم يفتروا : لم يضيقوا تضييق البخل التحقيق .

(٢) قواماً : وسطاً عدلاً . سي بذلك لامتناعة الطرفين .

العنف . ومنها استئناس كل واحد منها بالآخر ، وبشهـ ما يلافيه في حياته من فرح ومرور ، وهم وحزن ، فيسر المبشوـت إليه لسرور صاحبه ، ويسليـه على مصبيـته ، ويكتـف عنه بعض ما في نفسهـ من هموم حـياته .

وان وراء ما ذكرنا وما لم نذكر من فوائـه فـائـة رـبـعاً تعـادـل تلك الفـوـائد كلـها ، الاـ وهي الذـسلـ والـذـرـيةـ . تلكـ التي لمـ يـشـرـعـ الزـوـاجـ الاـ لـاجـلـهاـ .ـ وهيـ الجوـهـرـ والـغاـيـةـ ،ـ وـماـ سـواـهاـ فـهوـ العـرـضـ وـالـوـسـيـلةـ .ـ

والحكمة من ذلك ظـاهـرـةـ ،ـ وهيـ بـقاءـ هـذـهـ الـكـرـةـ عـلـىـ سـطـحـ هـذـهـ الـكـرـةـ إـلـىـ الـأـجـلـ المـحـدـدـ لهـ ،ـ وـالـوقـتـ المـفـرـوبـ لـاـمـتـلـاكـهـ مـرـاقـفـهـ وـمـنـافـهـ .ـ وهـذـهـ هيـ الـحـكـمـةـ الـعـمـانـيـةـ .ـ وـاـمـاـ الـحـكـمـةـ الـاجـتـاعـيـةـ ،ـ فـيـ التـضـامـنـ وـالتـضـاسـمـ ،ـ وـالـسـيرـ فيـ طـرـيـقـ الـاجـتـاعـ وـالـمـلـصـلـةـ .ـ وـالـابـوـانـ أـحـقـ النـاسـ بـهـذـهـ الـمـاـعـونـةـ ،ـ لـسـبـقـ الـفـضـلـ وـسـالـفـ الـعـهـدـ المـغـنوـيـ .ـ

فتـيـ بلـغـ الـوـلـدـ دـرـجـةـ الـعـلـمـ وـالـتـدـمـرـ يـجـدـ بهـ أـنـ لـاـ يـنـسـىـ منـ رـيـاهـ صـغـيرـاًـ ،ـ وـعـنـتـوـ عـلـيـهـ طـفـلاـ رـضـيـعـاًـ ،ـ وـسـهـرـ الـأـجـلـ الـلـيـلـيـ ،ـ وـكـانـتـاـهـ أـهـوـالـ الـأـيـامـ بـلـ يـجـبـ انـ يـفـسـرـ حـقـوقـ الـأـبـوـةـ .ـ وـيـقـومـ بـوـاجـبـ الـنـزـمـ ،ـ وـيـنـهـضـ إـلـىـ أـدـاءـ الـدـينـ .ـ قالـ اللهـ تعالىـ :ـ «ـ وـلـاـ تـقـلـ لـهـ أـفـ ،ـ وـلـاـ تـهـرـهـاـ وـقـلـ لـهـ فـوـلـاـ كـرـيـاـ ،ـ وـلـاـ خـنـصـ لـهـ جـنـاحـ الـذـلـ منـ الـرـحـمـةـ ،ـ وـقـلـ دـبـ اـرـحـمـهـاـ كـارـبـيـانـيـ صـغـيرـاًـ .ـ

وـانـ مـيـتـزـوـجـ لـهـيـ نـسـلاـ ،ـ فـاـنـاـ يـقـصـدـ مـنـ وـرـاءـ ذـلـكـ أـنـ يـجـدـ فـيـهـ سـعادـةـ الـحـيـاةـ وـلـذـةـ الـعـيشـ ،ـ وـلـيـكـونـ لـهـ فـيـ هـذـهـ الـدـنـيـاـ الـلـيـلـ النـاصـرـ وـالـفـوـقـ الـعـيـنةـ .ـ غـيـرـ أـنـ الـأـوـلـادـ لـيـسـواـ كـلـهـمـ سـوـاـ فـيـ هـذـاـ الـعـنـيـفـ الـمـتـصـودـ .ـ بـلـ مـنـهـمـ مـنـ طـبـعـ الـعـقوـقـ عـلـىـ قـلـبـهـ ،ـ وـرـانـ الشـقـاءـ عـلـىـ وـجـانـهـ ،ـ وـأـمـتـالـكـ سـوـءـ الـأـعـمـالـ جـوـارـحـهـ .ـ بـلـ رـيـاهـ كـانـواـ شـرـاًـ عـلـىـ آـبـاـهـمـ مـنـ الـأـعـدـاءـ ،ـ وـأـشـدـ حـسـامـاًـ مـنـ الـأـدـاءـ ،ـ وـهـذـاـ أـمـرـ مـشـاهـدـ مـحـسـوسـ ،ـ فـأـنـ تـلـكـ السـعـادـةـ الـيـنـيـطـلـهـاـ الـمـرـءـ مـنـ وـلـدـهـ لـأـلـ بـلـ أـيـنـ هـذـاـ الـعـيشـ الرـغـدـ الـذـيـ كـانـ يـأـمـلـهـ مـنـ وـرـاءـ هـذـهـ الصـالـةـ الـيـ كـانـ يـنـشـدـهـاـ .ـ

ـ اـجـلـ اـنـ طـافـةـ كـثـيرـةـ مـنـ الـبـيـنـ يـكـوـنـونـ سـبـبـ شـقـاءـ آـبـاـهـمـ وـوـسـيـلـةـ لـنـكـ حـيـاتـهـمـ ،ـ وـأـوـلـىـكـ لـيـسـواـ بـالـأـبـنـاءـ ،ـ بـلـ هـمـ مـنـ الـأـدـاءـ ،ـ كـاـلـ تـحـالـىـ :ـ «ـ اـنـ مـنـ اـمـوـالـكـ وـأـلـاـدـكـ عـدـوـاـ لـكـ فـاحـذـرـوـهـمـ .ـ

لو يوت آباءُهم ليرثوا ما لديم من الاموال فيتبعوا بها على ما اعتادوه من الشهوات وما ألفوه من الرذائل .

حدثني من اثق به قال : ان بعض الاغنياء ولدا كان قد ارخي له العنان ولم يربه تربية صحية ، فنشأ الولد حتى شب مسروفا في سبيل غير الفضيلة كما هو دأب أكثر نابتنا . وكان كلما شب تشب معه عاداته التي استعادها . فاتق ان راه والده واقفا امام صندوق امواله الحديدي ، وهو يناجيه بهذه الكلمات التي تدل على مبلغ التربية التي رباه عليه والده :

« ايها الصندوق الحديدي متى أسلم مفتاحك ؟ ايتها الاموال المودعة فيه متى تطلق يدي فيك ؟ اخربوني متى يموت والدي ؟ ذلك الشيخ الذي افشاه الدهر ؟ متى اشتكى الى صدرى ؟ متى تكونين لي الصديق الحارم ؟ اواه اواه !! » ولم يكدر يصل الى هذا الجدم من الكلام حتى شعر بأن أباه يستمع اقواله . فتجعل ولم ينبع بنت شفة . فقال له ابوه : تبا لك من ولد ، ولا نعمت عيالك من مولود ! - ونحن نقول له : تبا لك من ابٍ أفسد اخلاق ولده ، وأهمل تربيته حتى صار عليه شرًّا من الآفني وأخرى من الضارى .

لو احسن هؤلاء تربية بنיהם ، وعودوهم الفضيلة ، ولم يترکوا لهم العنان لكانوا سعداء بهم ، وكان ابناوهم لهم خير معين .

وقد نرى طائفة عظيمة من الاولاد على غير هذه الشاكلة ، فهم يستميتون لأجل آباءهم ، ويخدمونهم خدمة صادقة ، وما ذاك الا انهم عرفوا مقام الآبوبة منذ صغرهم ، فظعموه في كبرهم .

فعلى الآبوبن الاعتناء بتربية البنين وتهذيبهم وتعليمهم حتى يكونوا لهم عنواناً عند الحاجة اليهم . وهناك يجدون لذة العيش بهم ، وسعادة الحياة معهم .
ورد في الحديث الشريف : « لأن يؤدب الرجل ولدَه خيرٌ له من أن يتصدق بصاع » فهذا الكلام يرشدنا إلى أن تربية الابناء هي خير من الصدقة ، وذلك لأن الولد إن نشأ مهذباً كان نافعاً لأبوه ولناس أجمعين . ف التربية الولد فيها درء للمفسدة ، والصدقة فيها خير ومصلحة للتتصدق عليهم ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

غير أننا لو بحثنا عن سبب شقاء هؤلاء البنين لظهر لنا بعد الاختبار ان السبب الحقيقي هم الآباء ، ولو لم يكن البنون اسعد حالاً ما هم فيه ... والآباء البرهان : ينشأ الطفل فيهمه ابواه ولا يعمسن تربيته وتعلمه ، وإذا رأيا منه خلقاً سافلاً أو عملاً شائناً ، فلا يزجرانه عنه ، ولا يمنعانه عن اتيان مثله خشية ان يمكى أو ينفع من الزجر . ثم يرسلانه الى المدرسة ... هذا إن كانوا على شيء من الادرار - ثم يخرجانه منها وقد قاتل فسما من العلم ، وأكثر من يتخرج من المدارس يبقى عالة على أبيه دون ان يسعوا لايجاد عمل يعنى عليه مستقبل حياته ، فيظل شاباً فارغاً من الاعمال ، مضيماً أو قاتلاً في المأوى . وهذه الحال تتطلب اموالاً كثيرة ، فتفسد اخلاقيه ، ويسير الكسل عادة له كما قال الشاعر :

ان الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

فإن كان أبوه غبياً عاث في ثروته كالبيث الذئب في الغيم . وإن كان فقيراً تكلف من المشقة والنصب ما لا يطاق ، لأجل أن يأتي له بما يطيب به خاطره وتأنس به نفسه لينتفع على شهواته ومذاته . وكلا هذين الآبوبن غير سعيدين في ولديهما ، بل يتمدنيان ان لا يكونون قد وجد .

ومن الغريب الدشـ ان بعض هؤلاء السفلة السفهة من البنين ، كثيراً ما يشتمون آباءهم وامهاتهم ، ويوجهون عليهم من الاعنة والسب ما لو نزل بالجبال لدكـت هولا ورهاه بل قد يبلغ الجهل والساقة باحدـم انه يهدـها بالقتل ان لم يوفقاـه على ما يريد ، ويعطيـه من المال ما يـشتـهي . وكل ذلك من فساد التربية وغضـف ملكـة الأخـلاق . وان الآبوبـن هـما سبـب هـذاـكـهـ ، لـذلكـ كانـاـ غير سعيدـينـ فيـ ولـديـهـماـ .

ان من يحمل تربية ولده ، ويدعه يفعل ما يريد ، ويـسـاـيـرـهـ فيـ يـمـيلـ اليـهـ من الاعـمالـ المـضـرـورةـ والمـزـنـيةـ ، وـيـعـطـيـهـ ماـيـشـاهـ منـ الـأـمـوـالـ الـتـيـ تعـيـنهـ عـلـىـ ذـلـكـ ، وـتـكـونـ سـبـبـ فـسـادـ اـخـلـاقـهـ وـاحـوـالـهـ ، لـجـدـيرـ بـكـلـ تـقـيـصـةـ ، وـحـرـيـ بـانـ لـيـتـقـنـظـ فـيـ سـلـكـ الآـبـاءـ ، لـأـنـ يـسـعـيـ لـحـنـفـهـ بـظـلـفـهـ وـيـبـحـثـ عـنـ مـسـبـبـاتـ شـقـائـصـ بـيـدـهـ . فـهـوـ بـعـلـهـ ذـاكـ قد قـادـ نـفـسـهـ إـلـىـ الـبـؤـسـ ، وـجـرـ ولـدـهـ إـلـىـ عـاقـيـةـ مـشـؤـومـةـ .

وقد دلتـنا التجـارـبـ انـ مـنـ كـانـ مـثـلـ هـؤـلـاءـ الـأـبـوـنـ يـتـمـنـونـ مـنـ صـيمـ اـفـشـتـهـمـ انـ

فأوجهم الرذائل ، ومالوا إلى الحرام . وهذا أمر ظهرت فوائده للعيان ، حتى صار لا يحتاج في ثباته إلى برهان .

قال معاوية : « في لا استعمل سيفي حيث ينفعني سوطى ، ولا استعمل سوطى حيث ينفعنى لسانى ، ولو كان بيني وبين الناس شارة ما انقطعت قط : كنت اذا مدوها أرخيتها ، وإذا أرخوها مدتها . »

وهكذا والد والبرىء ينفعى لها أن لا يستعمل القوة حيث ينفعها شديد القول ، ولا يستعمل شديد القول حيث ينفعها لسته والمعونة الحسنة ، فمن نحنا هذا النجع في التربية ، وسار في هذا السبيل في التهذيب نجح فجاجاً باهراً . وخلص النشء كما هم فيه ، وحملهم على معالى الأمور ; ومثل هذا أمرتنا الشرائع . ولدى هذه الوسائل أرشدنا العقل والاختبار . فأي والد اراد ان يكون سعيداً في ولده ، ويكون ولده عوناً له عند الشدة ، وتسلية عند المخاء فليسع الى تربيته تربية صحيحة . ولتكن تربيته ايام على النحو الذي قدمنا وبالوسائل التي تتقتضي الحال :

٤٢ - سعادة الروع في صحجه

ان صديق الصدق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ربيب الزمان صدعك شئت فيك شمله ليجمعك ١
حياة الانسان في هذه الدنيا تعترفها العوامل المختلفة ، وتكتنفها الاختلال
المتباعدة ، وهو بين خير ذلك وشره يطوى وينثر ، فكانه الغنى يقول الشاعر :
كرة حذفت بصولجة فلتلقها رجل رجل
ولما كان الانسان على هذا النمط من تأثير عوامل الوجود فيه احتاج الى كثير
من الوسائل التي يدفع بها ما يطرأ عليه من العوادى وما ينتابه من المشكلات .
والوسائل في هذا الباب كثيرة منها لهم ، ومنها ما هو اكثرا اهمية — ومن
اهمها اصطفاء الاصداء ، واصطنان الاوداء ، فانه بصفاتهم والاعقاد عليهم يتنفس
كثيراً من كرباته ، ويستعمل ما يصعب عليه من سؤون حياته ، ويقوم بامال
جليلة عامة وخاصة ، لا يستطيع ان ينهض بها منفرداً او معتمداً على غير من يثق
بهم ويؤمن بهم .
والناس في اختيار الاصحاح متباهيون شأنهم في كل امر ، لأن اكثراهم غافل

(١) البيان ينسبان للإمام علي والإمام الشافعى رضى الله عنها .

وقد ورد في الاثر وأظنه لعمرو رضي الله عنه : « أشفق على ولدك من شفتك
عليه » ومعنى هذا ان الرء الذى لا يعنى بتربية أولاده ، ولا يزجرهم عن شان
ال فعل ، ولا يجعلهم على ما فيه خيراً لهم ، شفقة عليهم ورحمة بهم ، لشلا يجدوا في
أنفسهم أو يغاظوا بسبب ذكرهم ، جدير به أن يشفق عليهم ويختلف من سوء
عاقبتهم ، ومحنة تربيتهم الفاسدة ، فإذا شفقة عليهم يجعله على تربيتهم وتهذيبهم
وهو عن الشفقة عليهم والرحمة بهم . وأما الشفقة المجردة عن الآشغال ، الذى يدعوه
إلى التعليم والتهديب ، فليست من الشفقة في شيء ، وإنما هي غش وحبة كاذبة .

ان الولد قطعة من الكبد أو هو الكبد كلها ، فكم يفارق امراعلى كبده ولا يفعل
بها ما يؤذها ، فجري به أن يكون مع ولده كذلك قال الشاعر :

وانما اولادنا بيننا اكبادنا تمثى على الأرض



قد يرغب الرجل في تربية ولده ولكنه كثيراً ما لا ينال امنيته ، وهذا
ناشيء عن جهله بأصول التربية الصحيحة ، والطرق الموصولة إلى البغية ، فيضر به
من حيث أراد نفعه ومصلحته ، فينشأ ابن عاقلاً فاسداً .

وان خير وسيلة لباقي القصد هي تربية ملكة النضارة في نفسه ، وتعويذه
الأعمال الصالحة بالحسنى والكلام اللين ، دون ان يستعمل القسوة والشدة الا عند الحاجة
الماسة . وقد يجرؤ به ان يتغافل عن بعض اعماله ، ويوحيز ان امه او احد اصدقائه
ان ينصح له وينبهه على خطأه ، دون أن يعلم أن الإيه قد علم بذلك . ولا ينفعي ان
يعرف أنه عالم بكثير من سيئاته لثلا تقل هيبته في نفسه ، وينذهب بعض احترامه
واحتجاشمه من قبله .

وقد اعتاد كثير من الآباء ان يضعنوا نفوس أبنائهم ، ويميزوا عاطفة إياهم
ويزعموا اصول الحياة من قواهم . وذلك أنهم يعدون الى التطلع على كل محل
من اعمالهم ، فلا يغادرون صغيرة ولا كبيرة الا أحصوها . ثم ياجاؤن في مجازاتهم
إلى القوة والاهانة والشم والضرر ، وغير ذلك مما لا ينبعي انتظامه للرين .
ولو أنهم اكتفوا من زجرهم بالتصححة والارشاد وعودتهم ذلك ، لنزعتم من

ان الرجال صناديق مقفلة وما مفاتيحها غير التجارب

ومن حسن الاختيار أن يقتاتل من الاصحاب ، ويضيق شرط الاختراط في سلك صدقته ، فإن القليل من الاصحاب والاقتصار على الاختيار منهم أمر ضروري كما قال الشاعر :

عدوك من صديقات مستفادة فلا تستكثرون من الاصحاب
فإن الداء أكثر ماتراه يكون من الطعام أو الشراب

فتق سار البر في هذه الحطة المباركة ، واصطف لنفسه من الاحداث من ي肯 إليه ويعتمد عليه ، كان سعيداً في صحبة ، وعاش عيشة راضية ، ونال هذه وسعادة .

ومتي ظفر بمثل من قدمنا من الاصحاب فليغض عليهم بالتواجذ وليثبت على صحبتهم . ولا يقطع حبال موتهم بالبقاء . ولا يذكر ما وداهم بالأذى ، ول يكن حسن الخلق معهم ، رجياً لهم . فان الألفة نتيجة الأخلاق وفضائلها . ولا تتوطد أركان الحبة والصدقة إلا إذا استحكمت حلقات الخلق الحسن بين المتحابين . كما ان التفرق بين الأخلاقيات نتيجة من نتائج الخلق السيء ، ورذيلة من وذاته .

واعلم ان الصدقة لا تدوم الا اذا كانت خالية من كل شائبة ، ومنزهة عن كل غرض مادي . لأنها معنى من المعاني التي لا تتعلق لها بالنادة . فتق خاطلت بها فسد جوهرها و كدر صفائده . والحب الذي يكون كما قدمنا هو الذي يسمونه الحب الله ، ويتدحونه اشد الامتناد . وقد ورد في الحديث الشريف : سبعة يظاهرون الله في ظلام يوم لا ظلم : امام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله عن وجبل ، ورجل قلب معلق بالمسجد فإذا خرج منه يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعوا على ذلك وتفرقوا عليه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاقت عيناه ، ورجل دعنه امرأة ذات حسب وجمال فقال : اني اخاف الله ، ورجل تصدق بصدقه فأفخفاها حتى لا تعلم شهادة ما تتفق معيه » وجاء في الحديث آخر : « ان وجلا زار أخاً له في الله . فارصد الله له ملائكاً فقال . أين ترید ؟ فقال . أريد أن أزور أخي فلاناً . فقال :

عن سر الصحبة وما تستلزم من النتائج والفوائد ، فهم مساقون إليها بمساق الطبيعة لا بمساقن الفقل ، وسوق الوجدان لا بشوق الحاجة والضرورة . وستان ما بين هذه السوق والاسواق . وهذه توئي الناس لا يبالون بالاختيار الصالح ، ولا يحفلون بانتقاء الصديق ، فهم يصادقون قبل الاختيار ، وإن اختاروا فلا يحسنون الاختيار ، مع ان الصداقة شروطاً ولاصحبة آداباً ، فإن أهل الملة شرعاً منها كانت عافية تلك الصحبة وبالا عليه .

ألا وإن اهم شرط يجب على المصادقين مراعاته ، هو أن يعلم باليقين أن روح الصحبة هي ان يكون كل واحد منها عوناً لصديقة في الفراء ، وأنيسه في السراء ، وأن يموت لواله ويعيش حياته ، وأن يالم لأله ويهش لفرجه ، وأن يساعده عند النوازل ، ويأخذ بيده عند المثارات ، وأن يدفع عنه السوء بالله وجاهه وحياته . وتلك هي الصحبة الحق ، والا فهي رداء وخداع ، ونفاق وتلف . وليس ذلك من دأب ارباب المروءة ، ولا من عادة الاحرار واصحاب الشرف . ان كثيراً من يدعون الصدقة يسقون اليها طمع في جاه المصادق او ماله حتى اذا نفذت امواله ، او حجب عنهم آنذاه ، او سقط من مر كره الذي كانوا يستظلون بظله و « لو » عنه مدبرين ، كان لم يكتنوا يعرفونه ، فهم اذن اصدقاء ماله وجاهه لا اصحاب اخلاقه أو عوامه أو فضائله . ومن كان على هذه الشاكلة فهو عدو في صورة صديق ، ولما جاءه على الصدقة والاخاء ما كان يامله من المنفعة .

ادا العدو أحاججه الاخاء على عادته عند انقضى العدل
إن وجود الاصدقاء ضروري للانسان ، غير ان اختيارهم اشد ضرورة له ، وإن كانوا اخر عليه مالوا عاش منفرداً . فان كان في الخواذ الصحب منفعة لامرء ففي عدم انتقامه ايام خبر كبير . ودوره المقادس مقدم على جب المصالح فأولى له حينئذ أن يعيش فذا مستوحاً ، من ان تتوانى عليه النواذب من لا يقدرون الصدقة حق ذرها .

فوجب اذن على العاقل ان يستخلص لنفسه الا لا مجرمين ، ولا يمرken الا الى المخلصين الذين لا يسعونه عند الشدة بالشن البخس . وأن يحذر كل الخذر من اهل الرياء وارباب الزلفي ، الذين يعرفونه عند الرخاء ، وينكروننه عند الرجاء، وحالوا الضراء . وذلك لا يكون إلا بتجربيتهم قبل الاستخلاص ، و اختيارهم قبل عقد اواصر الصحبة :

من نظر الى ما يقع بين الاصدقاء من الشاقق ، وما تنتجه تلك الصداقة من
النفاق ، يحكم ان سبب ذلك اما لأنهم لم يراعوا حق الصحبة ؟ ولم يبنوا صداقتهم
على اساس مكين . او انهن اصطحبوا على غير ما يفيد ، وتعاهدوا على امور ليست
من المرفوعة في شيء . وأكثر من نزى من الاصدقاء ليسوا إلا ذؤباناً وحوشاً
لبست لباس الصديق . وكثير منهم اتفقوا على المكرات ، وسافل الأخلاق
الأخلاق والعادات ، حتى إذا تلقى مـا أرادوا ، رجعوا متباينين ، وانقلبوا
خاسرين .

وصفة القول : ان من أراد أن يكون سعيداً في صحبة فعليه أن يختار منهم من اجتمع فيه أمور خمسة ، أساسها مشاكله إياه لأن الجنس ميال الى الجنس . وأن يكون ذا عقل موفور فإن الاحتجاج لا يمكن أن تدوم صحته . وأن يكون له وجدان يحمله على فعل الخير ، ويربوا به عن موارد الشر . وأن يكون محدوداً الأخلاق مرضي الأفعال ، مؤثراً لأخير أمراً به ، كارهاً لبشر فاهياً عنه ، فإن مودة المشرير تكسب الاعداء ، وتفسد الأخلاق . وأن يكون في كل من المتصادفين ميل إلى الآخر ، ورغبة صادقة في المواجهة . فإن بذلك كله دوام الصحة ، وأحكام روابط الألفة .

ومن وجد المرء صديقاً استكملاً شروط الصداقة ، فلا ينبغي أن ينقب عن زلاته ، ويبحث عن هفواته ، فإن هذا من دواعي حلّ أواصر الودة . بل يجب عليه أن يتغافل عن خططه ، وأن يُسلِّم المقدرة على ما يفترط منه ، لأنَّه إنسان والإنسان بطبيعته يخاطيء ويصيَّب ، وأي امرئٍ ليس فيه من عيب ؟ فإن حاول أحد ان يحمل الناس على التجدد من كل عيب ، فقد ركب مركبًا خشنًا ، وطلب مرتفق وعراً . لأنَّه بذلك المحاولة يريد أن يخرجهم من الطور الإنساني إلى الطور الملكيّ ، وهذا ما لا يقدر عليه المحاول . ومن رام صديقاً لا عيب فيه ولا تصدر عنه هفوة ، فقد طلب العزة والحياة منفرداً قال ، الشاعر :

وقال النابغة الظياني :
ولست بمستيق اخنا لا تلمه

ل حاجة لك عندك؟ قال: لا. قال: لقرابة يبنك وبنينه؟ قال: لا. قال: فبنعمته
له عندك؟ قال: لا. قال فمـ؟ قال: أحـمه الله. قال فـان الله أرسـلي اليـك بـنـيـك
أـنـاـمـيـكـ لـجـمـعـكـ اـيـهـ، وـقـدـ اـوـجـبـ لـكـ لـجـنـةـ » .

ان الخليل اذا كان كمن ذكر فهو الحاليل الذي وجبت محنته ، وحققت كرامته .
وتجدر بالمرء ان يتمسك بتأديله . وهذا هو الحاليل الصالح الذي اراده صاحب
الاشر يقوله : « من اراد الله به خيراً ، رزقه خليلاً صالحًا » ان نسي ذكره وان
ذكر اعنه » وبقوله : مثل الاخرين اذا التقى ممثل اليدين تفضل احد اهمل الاخرى
والاخجوة على هذه الصورة هي داعية الافلة وبريد الاتفاق . اذا لا اخجوة بلا افلة ،
ولا صدقة بغير اتفاق . لهذا ورد كثير من الآثار والاخبار في الترغيب بالاتفاق
والتحسن على تحسين الاخلاق التي هي مقدمة لها . وقد جاء في الحديث الشريف : ان
اقربكم مني مجلساً يوم القيمة ، احاسنتم اخلاقاً ، الموطئون اكتنافاً ، الذين يأكلون
وينونون » .

ومن دواعي الالفة ان يكون بين الصديقين مشاكلة في الطباع ، و المناسبة في
الأخلاق ، لأن شبيه الشيء منجدب إليه . ولذا ورد في الحديث : « الأرواح جنود
مجتندة فما تعارف منها اختلف وما تناكر منها اختلف » فالتناكر نتاجة التنااسب .
والمختلف والاختلاف من فواعل القلوب . والأرواح البشرية التي هي النفوس
الناطقة بحيلة على خرائب مختلفة وطبع متباعدة . فكل ما تشاكل منها في الصفات
والأخلاق تعارف واتفاق ، وكل ما تباين وتناكر منها اختلف وتفرق . فالمراد
بالتعارف هو ما بين النفوس من اتناسب والتتشاكل . والمراد بالتناكر ما بينها من
التنافر والتبابن . وكل ذلك بحسب ما جبت عليه من الأخلاق وما اكتسبته من
الصفات .

لذلك وجب اختيار الصديق قبل الرَّكونِ إلَيْهِ ، وإلَّا أَمْرُهُمَا مهاطلٌ -
إلى الشفاقِ وقطعُ أواصرِ الصدقةِ 。 قال الشاعر :

وقائلُ كيْف تَهارقْتَه
فقلت قولا فيه انصاف
لم يك من سكلي فقارقته
والناس أشكان وألاّف

وقال بشار بن برد وقد أجاد :

إذا كنتَ في كلِّ الأمور معاً

وانْأنتَ لم تشرب مراً على القندي

ومن ذا الذي توخي سجائنه كلها

فعش واحداً اوصل اخاك فانه

ومن نحنا هنا المنجى من الجاوزة عن هفوات الاخوان والاغضاء عن سينائهم

فقد أراح نفسه من عناء العتاب ، وأنزل عن عاتقه أو قارأ من الحم تنوء به الراسيات

نعم ان وفرت جرائمهم ، وعظمت اساعتهم ، حتى غابت سيناتهم على حسناتهم ،

فليسوا حينئذ بالاخوان الا ينبعي الثبات على ولايهم ومصادقهم . بل يصب

بنذهم بعد تنبئهم وعدم ارتكابهم ، وأولئك هم من الشمام الذين قال فيهم النبي :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم ثرها

مضرك كوضع السيف في موضع الندى

اقوال في هذا الباب

قال بعض الادباء : « لا تصحب من الناس إلا من يكتم سرّك » ويسأله عيده ،

وينشر حستنك ، ويطوي سينتك . فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك » و قال

بعضهم : الناس أربعة : فواحد حلو كله فلا يشبع منه ، وآخر مر كله فلا يؤكل

منه ، وآخر فيه حوضة ، فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك ، وآخر فيه ملوحة فخذ

منه وقت الحاجة فقط » وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : لا تصحب خمسة :

الكذاب فانك منه على غزو ، وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ، ويعدهنك

القريب ، والاحق فانك لست منه على شيء : يزيد ان ينفعك فيضرك ، والبغيل

فانه يقطع بك احوج ما تكون اليه ، والجبان فانه يسلفك ويفر عند الشدة ،

والفاشي فانه يبعسك بأكلة أو أقل منها ، فقيل : وما أقل منها ؟ قال :

الطعم فيها ثم لا ينلها .

قال الجنيد : « لأن يصحبني فاسق حسنُ الخلق أحبُ إلي من أن يصحبني فارئُ سي ، الخلق » والمراد بالقاريء المقىءة العالم .

وقال سهل بن عبد الله التستري : « اجتب ثلاتة اصناف من الناس : الجبارية الفائلين ، والقراء المداهنيين ، والمتصوفين الجاهلين »

وقال المؤمنون : « ان الاخوان ثلاثة : احدهم منه مثل الغذاء لا يستغنى عنه ، والآخر منه مثل الدواء يحتاج اليه في وقت دون وقت ، والثالث منه مثل الداء لا يحتاج اليه في وقت ، ولكن العبد قد يبتلي به وهو لا انس فيه ولا نفع » .

وقال المؤمن الشاعر :

الناس شتى اذا ما أنت ذقفهم لا يسترون كالا يسمى الشجر
هذا له ثغر حلواً مناقته وذاك ليس له ظل ولا ثغر
وقال أبو ذر رضي الله عنه : « الوحدة خير من جليس السوء ، والبلس الصالح
خير من الوحدة » .

وقال الشاعر :

أفي لامن من عدوٍ عاقلٍ
وأنخاف خلاً يعتريه جنون
أدرى فأر صدٌ والجنون فنون

وقال أبو الفضل علامة العطاري لابنه موصياً إياه حين حضرته الوفاة . وقد
جتمع في قوله هذا جميع حقوق الصحبة : « يا بني اذا عرضت لك حاجة الى صحبة
الرجال فاصحب من اذا خدمته صانك ، وان صحبته زانك ، وان قدمت بك مؤنة
ما زانك . اصحاب من إذا مددت يدك بغير مدتها ، وان رأي ملك حسنة عدهما ،
وان رأى سيدة سدها . اصحاب من اذا سألت اعطاك ، وان سكت ابتداك ، وان
نزلت ياك نازلة واساك ، إصحاب من إذا قلت صدق قولك ، وان حاولها أمرا
أمرك ، وان تنازعها آثرك » .

وقال عدي بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقال آخر :

دلائل التوحيد

ظهرت الأديان ، وظهرت بظهورها الأحزاب ، فمن عاصد لها ، ومن عامل على خراها ، شأن كل جديد .

الأديان منها المساوية ، ومنها الوضيعة . فالمساوية أصل الخير في الدارين وسعادة من اتبعها في الحياةين . وقد كانت معارضتها والقيام ضدّها من الذين طبع الله على قوّتهم فهم لا يفهون كثيراً . فلهمَا تصدّى أئمّة من أهل كل دين لدفع الشبهة التي تؤدّي عليه من الملحدين . وكانت تلك المدافعت على حسب الزمان ومعلومات أهل الوقت .

وقد أصاب الدين الإسلامي ما أصاب غيره من الأديان . فقد وجد له في كل زمان نفرٌ يوردون الشبه على قواعده وعوائده ، خصوصاً بعد أن توجّحت كتب الحكمة من اليونانية إلى العربية ، وتلقى المسلمين العلوم الفلسفية ويرعوا فيها . وقد درس أفضّل علماء الدين تلك العلوم درساً متقدّماً فأجادوها ، حتى عذّلوا من الجتهدين فيها ، ومن أعاظم رجالها . وذلك لعد ما يورده بعض الملحدين على عقائد الدين التي جاء بها الكتاب . وقد ألغوا في دفع الشبهة على طريقة الفلسفة كثيرة في كل زمان . أما في عصرنا هذا العصر الذي هذّبت فيه الفلسفة ، وأُسندت قواعدها على البراهين المحسوسة ، وتقدّر كثیر ما كان قاعدة مسامة عند المتقدمين من الفلسفه فقد احتاج الأمر إلى تأليف جديد على طريقة فلاسفة العصر للرد على الملاحدة الذين كانوا كثرة الجراد خصوصاً في البلاد الأوروبيّة . وقد سرى لبلادنا شيء من ذلك فعمَّ كثيراً من أصحاب الملل المختلفة ، خصوصاً بعض الشبان الذين ينكرُون كثيراً من أصول الأديان المسلمة : كوجود الله والنبوات ، لمجرد ايمانهم ببعض المفاسد التي يرونها في الدين . ولو طالبهم

إذاً ما كنت متخدلاً خليلاً . فلا تشق بكل أخي أخي
فإنْ خيرت بينهم فالصق بأهل العقل منهم والخيال
فإن العقل ليس له إذا مَا تفاضلت الفضائل من كفاء

وقال الماوردي : « الأخوان أربعة : منهم من يعيّن ويستعين . ومنهم من لا يعيّن ولا يستعين . ومنهم من يستعين ولا يعيّن . ومنهم من يعيّن ولا يستعين . فأما العين والمستعين ، فهو معاوض منصف يؤدي ماله ، فهو كالقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء ، وهو مشكور في معونته ، ومعدور في استعانته ، فهذا أعدل الأخوان . وأما من لا يعيّن ولا يستعين ، فهو متزوك ، قد منع خيره وقع شره ، فهو لا صدق يرجى ولا عدو يخشي . وأما من يعيّن ولا يعيّن ، فهو أئمّة كلّ ، ومعلم مستدل ، قد قطع عنه الرغبة ، وبسط فيه الرهبة ، فلا يخرب ولا شرّه يؤمّن ، ومحسّك مهابة من دجل مستهلك عند أفلاته ، ويستقل عن استقلاله ، فليس مثله في الأخاء حظ ، ولا في الوداد نصيب وأما من يعيّن ولا يستعين فهو كريم الطبع ، مشكور الصنع ، وقد حاز فضيلتي الابتداء والاكتفاء ، فلا يرى تقليلاً في نافعه ، ولا يقدر عن هبة في معونة ، فهذا أشرف الأخوان ننساً وأكرمهم طبعاً ، فيبني في أن أوجد له الزمان مثلاً . وقل إن يكون له مثل ، لأنّه البرّ الكريم والدرّ القيم - أنت يبني عليه خنصره ، ويعرض عليه فاجده ، ويكون أشدّ خسارة منه بتفاقس أمواله ، وسيذخائره . لأنّ نفع الأخوان عام ، ونفع المال خاص . ومن كان أعمّ نفعاً فهو بالأخخار أحق .

هذا أغض من فيض ما ورد في الصحة وآدابها . وما شرحناه وسلّمنا من عمر لا يدرى له قعر . وفيه كفاية لأن عمل به ليكون سعيداً في صحبه .

بأدتهم على ذلك لوجوا ساكتين ، ولم ينسوا بيت شنة . وما ذلك إلا من التقليد الأعمى الذي عم البلاد وأخْر بالعباد .

أم القرى

أي خطب مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية
المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣٩٦

الاستبداد أثر من آثار النفوس ، تظهره إلى حيز الوجود متى استطاعت إلى ذلك سبيلاً . وكل أمرٍ يحب السلطة والاستعباد والظلم ، وكلّ مَا يسمى بأنفَقَ الإنسان ، و يجعله مهيّأً عند الناس ، مسلطًا عليهم . غير أنَّ القوم في ذلك على أنواع ومراتب ، وحسب ما في نفوسهم من الأخلاق وما تكتنه من صفات الخير :

الظلم من شيء النفوس فإن تجد ذا عفةٍ فلعله لا يظلم

وهذه العلة إما أن تكون خلقةً حسنةً يتغلب على خلق الظلم والشر ، وأما أُنثٌ تكون قوةً أعظم من قوته تقل يده عن استعباد الناس والاستبداد بهم .

على هذا درج الملوك والحكام : منهم الظالم المستبد ، ومنهم العادل الذي تمنعه أخلاقه الطاهرة عن مباشرة عمل يضر بالامة التي يمسكها . وكان يوجد في كل أمة تستبد أمراؤها ، وتظلم ملوكها ، وتجاوز العدل خلقوها قومٌ مصلحون أو لو غيره على أمتهم ، قد تغتت بهم الانفة وعدم الرخوخ للذل روحًا عالية دعّتهم لتأليف الجميات المترية من عقلاه قورهم ، ليتأمروا فيها بذنبهم على كسر قيود سلطنة الأمراء والحكام ، وكفٌ يدهم عن الاستبداد بالرعية .

وكان من هؤلاء الرجال العظام السيد عبد الرحمن الكواكي الشهير صاحب كتاب طبائع الاستبداد و (أم القرى) فقد ذكر في الاول الاستبداد ونتائجـه ومقاصده وحث الأمة على التنبه لدائه قبل استفحـال أمره ، ونسـفـةـ البـلـادـ، واهـلاـكـهـ البـلـادـ . وذكر في الثاني (أم القرى) الداء و بين الدواء و طرقـ الـاصـلاحـ الحـقـقيـ من دينـيـ وـسيـاسـيـ ، وجعلـهـ علىـ أـسـلـوبـ يـشـوقـ المـطـالـعـ ، فـتـخيـلـ انـ هـنـاكـ جـمـعـيـةـ كانتـ

على أنَّ كثيراً من هؤلاء الفلاسفة ورجعوا عن كثيـرـ منـ معتقدـاتـهـ ، وظـهـرـ لهمـ بالأدلةـ السـاطـعةـ خطـاـ ماـ كانواـ يـعـتـدـونـ منـ إـسـكـارـ الصـانـعـ وـعـظـمـهـ ، كـماـ تـشـهـدـ بذلكـ مؤـلفـاتـهـ .

ومن تصدى في هذا العصر لدفع تلك الشبهة بالأدلة العقلية ، والشواهد الفلسفية والطبيعية ، السيد جمال الدين الأفغاني ، وشيخنا الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، والسيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة النار وغيرهم من أفضل علماء المسلمين . وقد حدا حذو هؤلاء الأفاضل الاستاذ الشیخ جمال الدين القاسمي الدمشقي المشهور بعلمه وفضله وغيره ، فألف كتاباً من أحسن المؤلفات في هذه الموضوعات ، وهو ذو الفتوح المفتح به مصدر هذا المقال . وجرى فيه مجرى الباحث الناقد ، والفيلسوف الحبيب ، وأبان بأوضح مقال أن الدين لا ينافي العقل ، وأنهما متحاربان لا مתחافنان . وأيد بالأدلة العقلية الدامغة ، والبراهين العالية والفنية والطبيعية المصرية ، إثبات الصانع سبحانه وصحة النبوّات ، وغير ذلك من الأصول والعقائد التي جاءت لأجلها الأنبياء . فالكتاب من خير الكتب التي أخرجت للناس في هذا العصر .

جزى الله مؤلفه خير الجزاء .

أيها البائع مُرفة بالمال : لو كان لك عقل يفكّر ، أو وجdan يتّالم ، لعدت عن هذه الخطة وتكتّب تلك الطريق .

إنّا نعلم كثيّراً لديهم من الأموال ما لا يعلم عدده إلّا الله ، ولكن لا نرى في أنفسنا ميلاً إليهم ، بل هم محظوظون في أعيتنا . مردوّلون في كل نادٍ وجدوا فيه . وما ذلك لأنّهم يبذلون الجهد لاكتساب المال من كل مصدر ، ولو اخر ذلك بدولتهم وأمّتهم ، لأنّهم لا يعملون إلّا ما يفيدهم ليس إلّا . ومع ذلك فلو طلبت من أحدهم إعارة قفيض الوطن علا وحمة الاحرار أو الصغار أو الأخضرار ، إلى غير ذلك من الألوان ، ثم هو لا يعطيك ، وإنْ أحرجته وأخجلته ، فلا يقوم للبذل إلا كإيّو الذي يتخيّله الشيطان من المـس . وإنْ مدّ يده للاعطاء فيسدّها من تجّعة كأنّها شـلـاء .

على انه إن وجد سبيلاً لانفاقها في غير وجهها المشروع ، تراه اسرع إلى بندقها من الماء في منحدر ، أو السهم إلى هدف ، يتهلل بذلك فرحاً مسروراً .

من كان على تلك الشاكلة فهو من أضع الشرف المسعى وراء الآلة الوهيمية والعنفة الخاصة . وما أجدر من كان كذلك أن لا يكون له حظ من الكرامة ولا نصيب من الاعظام .

نجتمع في أم القرى (مكة) وينذّاك راعياًها المتّخيرون من كلّ البلاد الإسلامية فيما جلب على الأمة هذه الأدواء ، وينذّاك كلّ منهم ما ينطر له من الدواء ، إلى غير ذلك من المباحث العالية ، والافكار السامية ، وقد طبع هذا الكتاب عدة مرات . وكانت مجلة المنار الإسلامي قد عُنِيتَ فيه وهذّبت بعض موضوعاته بإذن المؤلف رحمه الله .

الماه والشرف

الناس في هذا العالم أقسام شئ ، وأنواع متباعدة . مختلفة أحوازهم ، غير متفقة آراؤهم . وجعل الناس على السير في مذهب واحد ، وإيجارهم على الاتّفاق في رأي ما ضرب من الحال .

فنّ الناس من ييل إلى امر فيه رفعة قدره ونخبته الحقيقية . ومنهم من يقدم على افتراض شيء فيه ربحٌ مادي ، غير أنه يسقطه من الهيئة الاجتماعية ، ويلبسه ثوب الغري والعار ، وهو لا ينظر إلى الشرف وعزّة النفس ، إنّ كان في خدمتها كسب المال ، ولو بما هبّ ودبّ . فلو أردت أن تحمل مثل هذا الرجل على ترك هذه الخطة ، وتجبه على سلوك الطريقة المثلثي – ولو أصرت ببعض ربحه المادي – لنظر إليك شزاراً ، وربما رماك بما يغطيك من الكلمات . فماجرد مثل هذا الإنسان أن يُنبذ ظهرياً ، وإن يسقط من الجامعات الإنسانية . إذ الإنسان بأخلاقه الفاضلة ، وصفاته الكاملة . لا بأمواله الوفرة ، ووجهاته العظيمة .

على ذلك درج الرجال العظام ، وفي تلك السبيل القوية مثى العقلاه المفكرون لهذا نرى أسماءهم تذكر والعزمات والأجلال حلّيفان لها . أما من خالف هذا هذا البدأ الشريف ، فحدّث ولا حرج عما يناله من السخط العام والاستهزاء به متذكّر أو خطير على بال أحد .

العادات

العادات منها المديدة ومنها السيدة . ولا يحکم على عادة ما بالحسن أو القبح ، إلا بعد معرفة أثرها . فإن كان حميداً فهي حميدة والعكس بالعكس .

لكل قوم عادات قد تكون خاصة بهم ، وقد يشاركهم فيها غيرهم . وسواء كانت خاصة أو مشتركة ، فلا بد من النظر إلى آثارها ، فإن وجدت نافعة وجبل الحضن على التمسك بها والاعتصام بعراها . وإن ألمت سيدة تحتم على أهل العلم وأرباب الجرائد والخطباء والكتبة والشعراء أن ينددوا بها ، وينفروا عنها بالارشاد الصحيح ، وإلاؤ علة الحسنة ، وغير ذلك من الوسائل التي تستأصل شأفة تلك الأخلاق والعادات . ففي ثابروا على ذلك فلا بد أن تناقش تلك الظالمات شيئاً فشيئاً ، وستتأصل تلك الجذور من النفوس رويداً رويداً ، إلى أن تغير الأخلاق نوبة بيهضاء ، فتبقى سالمة من كل ذرآن ، وتتحلى برواء الزين ، بعد الشين . فيجب على كل خطيب وكاتب أن يبذل الوسع والجهد ، لازالة هاتيك الأدران التي تشوه وبه الانسانية ، وقع تلك المفاسدلي منشؤها عدم تنمية الأخلاق الفاضلة في النفوس من الصغر . ولا يمكن أن تعمق تلك المفاسد إلا باستئصال تلك الأخلاق ، حتى لا يبقى لها أثر .

إهمال الخطباء والمرشدين لهذه المهمة هو الذي يعين تلك العادات السافلة على أن تزداد وتمو ، إذ لا تجد سيف الوعظ مسولاً ، ولا رسمه مشرعًا ، ولا جيوشه حارسة . بل وجدت صدوراً رحبة ، وقوياً فارغة ، تقبل كل طارىء ، خيراً كات أو شرا .

العادات السيئة عندنا كثيرة وهي تختلف قوة وضمناً باختلاف أثرها ، وسواء كانت هذه العادات شديدة الشر أو خفيفته ، فيجب أن يعمل العلاج على إزالتها ، وتطهير الأمة منها . فإن نزع العادات الضارة من النفوس هو العامل الأكبر الذي يتوقف عليه ترقى الأمة ونجاتها ، ونموضها وفلاحها ، وإصلاحها وصلاحها .

الميسير

ليس أخر على الاخلاق والأدب والمجتمع من تلك العادة القبيحة ، ألا وهي القمار ، على كثرة العادات السافلة التي اتصف بها الساقطون . وهي خصلة لا أبد من الناظر الاستهجان في اللغات كافة ما يقوم مقام إيقاعها سحقاً من الذم والتنيف عنها . فهي بمجموع الرذائل ، وخلاصة السفاله ، ومنتهي التوحش ، لو فتكر في حقيقتها الميليون اعطاها . وقد وردت إليها مع ما ورد من نقائص المدينة الأوروبيه ، وتلقنها بعض الناس كأنها متنهى التمدن وروح الفخار . ولو استبدلوا محسنة المدينة القوم بها وبما شملها من العادات الضارة المنافية للحرية الشخصية والحرية العامة ، لكن ذلك خير لهم وأولى . غير أن التقليد الاعمى يجعل المرء على سلوك كل أمر وانتهاج كل طريق يرى أن من هو أعظم منه عاماً ومدنية قد سلكه . ولو عقل هذا الإنسان لفاح ذلك العظيم بما يعود عليه وعلى أمته ووطنه بالخير ، وأهمل ما هو مخالف للعادات القومية والأدب الخاصة وال العامة . ولكن أين من يسمع فيعقل ؟

القار داء وويلٌ سرى في جسم الامة ، وآخر معنقة لعبت في عقولهم حتى أذهلتهم عن كل شيء حتى عن أنفسهم . فهم يبتلون لهم ساهرين ، حتى إذا تجلّج الصبح رجعوا على أعقابهم خاسرين ، يندبون حظهم وحالتهم ، ويتأوهون على ما أخاعوه في تلك السبيل من الأموال الطائلة ، فضلاً عن تحقرهم ولهفهم . ولو قابل في حال هؤلاء المؤسوس متأمل ، ونظر فيما يعتورهم من الأطوار المختلفة عند تعاطي هذه المهنة السافلة ، لرأى أنهم في النعيم تارة ، وفي الجحيم تارة أخرى . فطوروا يهشون فرحاً وسروراً ، وأوانة يتلهبون حسرة تكون سعيلاً . وهم في كل ذلك بين خوف ورجاء ، وهبوط وارتفاع ، يلذهم برد الامل ، وتسوءهم نار اليأس . هذه هي حالفهم ، وتلك أعملهم وأمامهم :

(١) الميسير ، «و القمار»

كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق

ومعها في هذه العادة من الأضرار ترى أن حافلاتها تزداد يوماً في يوماً حتى ملايين المدن ، وتعدي شرها من اللاهلي إلى البيري . فإذا نعلم علم اليقين أن بعض من سكان هذه البلدة قد افتتحوا بيوتهم ، وخصوصاً منها غرفاً لتعاطي هذه المهنة القبيحة .

أوهـ منها أفكـ أفترـتـ منـ غـنيـ ، وأـغـنـتـ منـ فـقـيرـ ، ثمـ رـجـعـ إـلـىـ حـالـتـهـ الـأـولـيـ فـقـيرـاـ مـعـدـمـاـ .

قد رأينا كثيراً من جمـوا الـأـموـالـ الطـالـلـةـ وـالـعـقـارـاتـ الكـثـيرـةـ ، ثمـ أـصـبـحـواـ بـعـدـ قـلـيلـ منـ الزـمـنـ بـؤـسـاءـ مـعـدـمـينـ ، وـفـقـرـاءـ خـاسـرـينـ ، فـصـارـواـ أـنـدـمـ منـ الـكـسـيـ ، وـلـكـنـ حـيـنـ لـيـنـقـمـهـ النـدـمـ .

لـيـتـ أـنـ هـذـهـ الـعـادـةـ قـاـصـرـةـ عـلـىـ الـفـقـيرـ ، بلـ نـوـاـهـاـ تـعـدـتـ إـلـىـ طـبـقـاتـ النـاسـ كـافـةـ ، وـأـنـتـشـرـتـ جـراـيـشـهـاـ فـيـ جـسـمـ الـأـمـةـ عـامـةـ ، الـأـنـ منـ رـحـمـ ربـكـ وـقـلـيلـ مـاـ هـمـ .

صـاوـ الـفـقـيرـ الـذـيـ لـاـ يـمـلـكـ شـرـوـىـ تـقـيـرـ يـتـعـاطـيـ هـذـهـ الـمـهـنـةـ ، وـيـصـرـفـ كـلـ ماـ يـشـغـلـ بـهـ طـوـلـ نـهـارـ وـجـزـءـ مـنـ لـيـلـهـ ، وـيـتـرـكـ نـفـسـهـ وـأـهـلـهـ يـضـفـرـونـ جـوـعـاـ ، وـيـتـبـوتـ حـسـرـىـ ، حـزـنـاـ عـلـىـ أـنـ لـاـ يـجـدـواـ مـاـ يـسـدـرـ مـقـمـهـ أـوـ يـصلـحـ خـالـمـ . كـلـ ذـلـكـ لـاتـ هـذـاـ الـفـقـيرـ الـمـسـكـيـنـ أـخـاعـ عـقـلـهـ وـمـرـوـقـهـ ، وـتـعـانـيـ يـادـيـالـ هـذـاـ الدـاءـ الـدـفـنـ ، وـالـمـرضـ الـوـيـلـ .

إـلـىـ كـلـ ذـلـكـ نـوـجـهـ نـظـرـ أـوـلـيـ الـأـمـرـ ، مـنـ زـيـطـ بـهـمـ التـحـريـ عـنـ مـثـلـ هـؤـلـاءـ .

الاستقلال الشخصي

او الاعتداء على النفس

ما من أمة طرحت عنها رداء المسؤول ، وتزعمت جلباب الضعف والضعف ، إلا كان استقلال الفكر في أفرادها قائدها إلى ذلك ، ورائدتها إلى ما هنالك ، وما من أمة تتفجرت بعد التقدم ، وحملت بعد النبوة ، إلا كان التوكل مدعاة خوفها والاعتداء على الغير وعدم الاستقلال سبب تقهقرها .

ذلك لأن المرء باعتقاده على غيره يضعف عزمه ، وتنحل ارادته ، ويقتصر إقدامه على الاعمال ، استكلا على أن في الميدان من يقوم بهذا العمل ، فلا حاجة إلى إيهام نفسه واتعاب نفسه ، وهكذا يتربك المعتمد عليهم الاعمال والسعى اعتقاداً على غيرهم ، وهم جرا . وبذلك يفسد النظام ، وتنحل عرى المدينة ، ويستولي الكسل واليأس إلى أن تصبيع الأمة في مؤخرة الأمم ، فإنما أن تتحقق وتحي ، ولما أن تستولي عليها أمة أخرى ، فتندغم فيها ، وتصير جزءاً منها .

اما ان اعتمد كل فرد من افراد الامة على نفسه فإنه يقوى عزمه وتشتد ارادته ، فيقدم على الأعمال غير هياب ولا وجل ، ولا مبالياً بإرهاق نفس أو إتاع جسم ، ومنى سري هذا الفكر في نفوس افراد الامة نهضت بعد القعود ، وتركت بعد التدني ، وتنتهي بعد الغفلة .

فأول ما يجب على المصلحين عمله هو السعي وراء بث هذا الروح الظاهر في الناس حتى تتربي فيهم مملكة الاستقلال والاعتداد على النفس ، ويسوى ذلك ، لا يمكن التهوض بالامة ، اذا ان لم يكن فيها استعداد يدفعها أن ترقى نفسها دون مساعدة خارجة عنها ، فلا سبيل إلى ترقيتها والأخذ بيدها ، وانت ترتكب ونهضت فلا تثبت أن تسقط وتقهقر مرتئي حال دونها ودون المساعدة الخارجية : حال :

العدل ولا يخضعون للعنق ، « حكمت بمحكمة جاهلة فاجرة ظالمه مستبدة عوجاء » ، لا تمثل للحق ، ولا تخضع للعدل ، والخلاصة ان اسلاق الامة ان خيرا وان شرا تطبع في مرآة وجдан الحكومة .

فإن أرادت امة ان يكون لها حكومة عادلة ودولة قوية ، فعليها بالصلاح أخلاق افرادها وتعويدهم الفضيلة والحرية الصحيحة وحب العلم وغير ذلك من الصفات والملكات العادلة . ومتي تم لها ذلك وحار الشعب عادلاً عالماً متربيناً أضحت الحكومة تابعة له رقياً وعدلاً ، ومتي أصبحت الحكومة كذلك انتقطعت أسباب الرشوة والحكم بغير الحق . وكل هذه الاسباب المتقدمة تدعى الشعب لمساعدة الحكومة مادياً وادبياً . ومتي استغفت الحكومة وكانت متزهدة عن الرذائل كما قدمتنا تسعى بطبع شتايتها ، وإصلاح فاسدتها وتقوية جيوشها وأساطيلها ، حتى تصبح دولة مرهوبة السطوة ، مرعية الجاذب .

* * *

الاستقلال قسان فكري وعلمي ، وقد كانت الامة محرومة من كلها بما أفسده الطالون من ذنوبها ، هذل نكن نسمع لها صوتاً في عالم الحياة يعرب عما يخالج فؤادها من الآراء والافكار التي تدل على ارقي الفكر ، ولم تكن نرى لها عملاً في ميدان الجهد الحيواني يرفعها إلى ذروة الاعتزاز ، ويجعلها في صنوف الامم الحية الرافية . بل كان فكرها وعلمه تابعين لكل ناعق ومقتنين أن كل سائز وما ذلك إلا لضعف الارادة وتحول العقل وفتور المهمة . وانا الترجو بعد أن قالت الامة حريتها ان تنزع عنها رداء المحو ، وترى بنفسها أن تكون امة تابعة ، لا ارادة لها ولا فكر .

نعم لا نذكر الان لم نزل بحاجتين إلى غيرنا في كثير من الآراء والاعمال ، غير أننا لو ثبينا على تدليل الصعب وازالة العقبات ، فلا ثبت أن نصل إلى الغاية المقصودة بحول الله وقوته . فان الامم الغربية التي نقلدها ونعتمد عليها في العمل والعمل كانت احط منا الان عالماً وعولاً ، بل لم يكن لديها ما يصح أن يسمى عالماً وعولاً ، لكنها بعد اختلاطها بالامم المشرقة والامم الأنجلسية جدت واجهت حتى بلغت ما هي عليه الان من الترقى الباهر في العلم والعمل :

لا تنتهي الانفس عن غبائها مالم يكن منها لها زاجر

وهذا هو الشأن في الحكومات كما هو في الامم ، فان الحكومة التي ليس لها استعداد لدفع الطواريء ، فانها تكون بحكم الطبيعة منقاده لحكومة اعظم منها قوة وآثاراً في الأرض ، تأثر بأمرها وتتشتت بنهايتها ، وتفتح لها الابواب لنجف في اراضيها وتستشرها ، وستأخذ برأفتها ومصالحها ، في مقابل حمايتها ودفع ما توارث عنها ، غير أن هذه امماية لا تبقى ابداً الدهر ، بل لا بد منها تتحلل يوماً ما فتؤول تلك الحكومة المتسلكة على غيرها عرضة للحوادث وهذه لسهام الطامعين ليس معنى الاستقلال الفكري او الاعتزاز على النفس ان يترك الانسان مشورة غيره من يعتقد بهم العقل والعلم والاختبار ، كلاماً – واما هو أن لا يترك العمل والتفكير إلا كلاماً على أن غيره يجعل أو يفكّر ، بل ليفكّر وي عمل هو أيضاً ، فان كان فكره وعمله خيراً من فكر غيره وعمله فيها وعمته ، والا انقاد لفكرة سواء وعمل به ، وبذلك يكون مستقل الفكر ايضاً ، إذ لم يجرئ احد على إتباع غيره أو عدم اتباعه ، بل ان فكره هو الذي أرشده إلى ما جاء به فلان من الاعمال او أبداه من الافتخار هو حق .

كثير من الناس يهمون شؤونهم الخاصة كتعليم ابنائهم وتشييد المدارس والمعامل وغير ذلك اعتناداً على الحكومة ، ولو عقاوا لاقعوا عن هذا الفكر ، لأن الامة التي تعتمد على الحكومة في مثل ذلك هي أمة منقرفة ساقطة ، والامة الحية الرافية هي التي تشييد المدارس وتشييء المعامل والمصانع غير متسلكة على حكومة ولا مستعدة على حاكم .

ان الحكومة هي تابعة للامم رقياً وخططاً في كانت الامة منحطه انفلات حكمتها بحكم القسر ، ومتي كانت الامة رافية ترقى معها بحكم الفرودة لأن الحكومة هي صورة افراد الشعب المحكوم ومعهاته وخلاسته ، اذ هي منه وله على كل حال . فان اتفق ان الحكومة كانت أرقى من الأمة فلا ثبت انت بخط وتقهقر اليه والعكس بالعكس : « كما تكونون يولي عليكم » فان كانت الامة مستقيمة ميالة للعدل والحرية والفضائل حكمت بحكومة لا عوج فيها ولا استبداد ولا جور ولا رذيلة ، وان كانت الامة جاهلة فاجرة لا يريد افرادها

اذا لم تكن افراد الامة معتمدة على نفسها متكللة على ما لديها من الأخلاق والعلم والعمل ، فلا حرية لدتها ولا يرجى لها رقي ، منها كانت قوانينها عادلة ومشتملة على ما فيه خير الامة والوطن . ذلك لأن القوانين والأنظمة إذا لم تتفق استعداداً في الفوتوس ، ورجالاً يعملون بها وينفذونها فلما هي حبر على ورق . ومثلها حينئذ كمثل ماء سقيت به الصخور فلا تبقي شيئاً ، ويكون الماء قد ذهب هدراً وضياعاً .

القوانين لا يجعل الناس احراراً منها كانت فاضلة ، غير أن الناس قد اعتادوا ان يعتقدوا أن خيراً لهم ونجاهم مسبباً عن الانظمة التي تحكم بها بلادهم ، وهم مخطئون في هذا الاعتقاد خطأً بيتاً لا يفتر . إذ أية فائدة من القوانين ان لم تكن نفوس الشعب مستعدة لما تحويه من الاصول والمواد ، بدل أي نوع من النظمات اذا لم يوجد لها حاكماً أميناً ينفذها بكل صدق واستقامة ، فالقوانين لا يجعل الحامل ذكراً ولا الكسول مجتهداً ولا فاسد الأخلاق طاهراً كاملاً ، والأنظمة لا تحوى الجرأة ، ولا تروع الناس عن المنكرات ، ولا تخفي عنهم الوبيلات ، ولا تجعلهم سعداء ، إلا اذا اتيح لها حكام امناء . قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : « يزعم الله بالسلطان ما لا يزعم بالقرآن » وما للقوانين من فائدة عملية سوى أنها تكون بمنبة المرشد للشعب والدليل للحاكم يستعين به على اجراء العدل والحكم بالحق ، حتى لا يملي ولا ينفع .

فالنظمات التي يحكم بها قوم اولوا نصفة وعدل ، وذرو وجدات حر ظاهر تكون وسيلة لجعل الحكومتين سعداء ، وتمكنهن من اكتساب ما يجعلهم في سعة من العيش ورغد من الحياة ، وتسلل لهم اجتناء ثمرة اعمالهم وافكارهم .

والنظمات التي يحكم بها قوم اولوا جنف واستبداد ، وذرو وجدان خبيث يملي مع الموى ، تكون سبباً لشقاء الشعوب ووسيلة لتأسيس من الحياة الطيبة والعيشة الراضية ، منها كانت تلك النظمات عادلة وجيدة ، ذلك لأن الحكم من هذه الطبقة يؤلون النصوص على حسب رغباتهم ومشترياتهم وعلى ما يوافق هواهم

وليس بدعاً إن نكن نرتقي ب لهذا من هوة المسرع فالمس بعدل الكشف تبدو لنا واليأس يقهى دافي المتبع ١

يجيب أن نبني مملكة الاستقلال في النشء، منذ الصغر حتى إذا شب ولم يكن له من يعلمه أو يعهد عليه كان اهتماده على نفسه وأمال عظيم يستعين به على مكافحة أهوال هذه الحياة ، فإن من كان حب الاستقلال مملكة فيه تهون عليه الصواب ، وتذلل لديه العقاب ، ويتذلل في سبيل الحياة كل ما في وسعه ، ويفرغ بجهوده دون الوصول إلى غايته والحصول على بغيته .

أما من ينشأ كإنسان أكثر الشرفين عالة على آباءهم لا يعرفون لاجيزة المقدمة معنى ، ولا يدركون حقوق الوطنية كثنا . فهم يعيشون كما يعيشون البشائر السالم ، لأن لذة الحياة بالعمل ولا عمل إلا العمل الناشيء عن الإجتناد والاعتداد على النفس والاستقلال في الفكر والعمل .

متى نشأ الولد فليعود أبوه أو من له الولاية عليه عدم الاتصال على أحدسه في كل عمل ، حتى إذا بلغ مبلغ الحياة العملية ، فليترك وشأنه ، يدير لنفسه عملاً يستعين به على الحياة حياة طيبة ، غير أننا على غير هذا المبدأ فإن الوالد لا يترك ولده يعمل ويفتكر إلا بعد أن يبلغ من الكبر عتياً ، ففيهذا الولد خاملاً كسلاناً معتدداً على أخيه أو على ما يترك له من المال والعقارات ، لذلك تواه لا يمكنه أن يأتي حملاً أو يحيى في رأي ، وهذاك المستقبل التensus وحياة الشقاء . والحال غيره هنا في النشء الغربي ، فإنه يعود من نعومة اطفاره هذا المبدأ الشريف الرأي مبدأ الاستقلال في الفكر والعمل حتى إذا بلغ مبلغ الشباب تخل عنـه أبوه وقذفاً به في مفترك الحياة وميدان الجهاد ، وهذاك المستقبل الحسن والغاية الجيدة والحياة الطيبة والعيشة الراضية :

وإنما رجل الدينـا واحدـها من لا يعول في الدنيا على رجل

(١) الآيات المؤلفة الكتاب من أحدى «القصائد الشرقيات» .

وكذا يجب أن لا يرتب الشعب المساعدة من الحكومة ، بل يجب عليه أن يساعد هو - الحكومة بادياته وادبياته ، لأن الشعب الذي يكون عالة على الحكومة يقل كاهلها ، وقد قدمنا أن الحكومة تكون قاعدة للشعب ترقى وتهقر ، فلو جأ الشعب إلى حكومته تكون حينئذ الحكومة أقوى منه ويكون هو - احبط منها فلايضي مدة حتى تحط الحكومة وتهقر إلى الشعب ، وبذلك يكون الخلل القسمين وفساد القوتين .

أما إن لم تعتمد الأمة على الحكومة بل كانت متكلة على نفسها فأنها ترقى في يسير من الزمن متى استكملت الشروط المطلوبة الراقي ، وحينئذ إن كانت حكومتها متقدمة متدنية فلا بد أن تنهض وترقى حتى تجاري الأمة الراقي التي تحكمها .

كل عمل من الاعمال لا بد لحصوله من القابلية والفاعلية ، فإن عدم أحداها بطل العمل . فإن لم توجد قابلية الاصلاح في الشعب فلا يمكن أن يكون راقياً منها كانت الوسائل فعالة قوية ، وإن لم توجد الفاعلية فمن العبث محاولة ترقية الشعب منها كانت القابلية عظيمة ، ومهمها كان مستعداً للإصلاح والارتقاء ، لأن المسبب لا يوجد بدون السبب ، فهني إنعدم السبب انعدم المسبب لا حالة .

فالأمم التي يوجد لها فاعلية وليس فيها قابلية ليتحقق معنى الاستقلال ، يجب أن تربى ويثبت فيها روح النشاط والحياة الاجتماعية ، حتى إذا تكثرت منها تلك الروح نشطت واستعدت لما تلقى إليها تلك الفاعلية .

والإمام التي يوجد فيها قابلية وليس لها فاعلية تؤثر فيها وتهض بها يجب أن يذهب أفراد منها لنقاوة العلم ودرس الحرية الصحيحة وتعلم الاعمال المقيدة والصناعات ، حتى إذا تكثروا من كل ذلك رجعوا إلى قوتهم وقد أتواهم بفاعلية عظيمة وأسباب قوية ، وهناك يثبتون فيما ما درسوا ويبحرون بهم ما تعلموه . وليس القابلية إلا الاستعداد لاشيء ، وليس الفاعلية إلا طائفة من كل أمة امتازت بوجاهة عقليها ، وسمو مداركها ووفرة معارفها ، وإحكامها الأعمال والصناعات .

فعلى هؤلاء يتوقف رقي الأمة ونجاتها . فإذا لو بحثنا ببحثاً دقيقاً لتجلى لنا أن كل الشعوب المتقدمة الراقي لم تصل إلى ما وصلت إليه من التقدم إلا بواسطة أفراد قلائل بالنسبة إلى مجموع ذلك الشعب . وهؤلاء الأفراد هم الآئي أوجدوا المدينة وأحدثوا الصناعات ، ونشروا العلم وسائل ما يزيد بين أنفوسهم .

يجب أن لا تنتظر الأمة المساعدة الخارجية ، ولا تعتمد في ترقيتها ونجاتها إلا على نفسها ، لأن تلك المساعدة متى انقطعت قبل أن تصل الأمة إلى الغاية

القابلية والفاعلية

جاء في مقالنا « الاستقلال الشخصي أو الاعباء على النفس » كلاماً إجمالي عن « القابلية والفاعلية » وعن « النظمات والشعوب » وعن « الانقلاب الأخلاقي أو الأدبي أو ثورة الأخلاق والمبادئ ». وقد نطلب هنا بعد انتشاره أن نوضح هذه المعاني في مقالات خاصة . لذلك نبدأ بالكلام عن القابلية والفاعلية .

◎

القابلية هي استعداد الحيوان أو النبات أو الجاد للترقى بما هو فيه إلى ما هو أسمى وأفضل أو ما هو أحط وأدنى ، والفاعلية هي المؤثر في هذه المواليد الثلاثة لرقاء وأخطاطاً ، غير أنها شائعة في الترقى والانضباط ، وذلك من باب تغليب النفع على أحد معنيه ، ولا مشاحة في الإصلاح .

خلق الله هذه المواليد يجعل فيها استعداداً أو قابلية للخير والشر أو الترقى والتدني ، غير أن بعضها يكون الاستعداد فيه عظيماً ، والآخر يكون فيه وسط ، وغيرهما يكون فيه متديناً أو مفضي ، بحيث يتعين كأنه غير موجود . ثم خلق لهذا الاستعداد أو القابلية أسباباً ووسائل ، أو مؤثرات وفواعات ، تعمل حراها في أرضها ليظهر ما كمن فيها من خير وشر على مقتضى ذلك المؤثر .

فإن لم يوجد في المواليد استعداد لقوة ذلك المؤثر فيكون المؤثر كالعدم ، وهكذا إن عدم المؤثر مع وجود القابلية في المواليد فتكون القابلية كالعدم أيضاً . وتوضح ذلك أنك لو عمدت إلى أرض ليست فيها القابلية تكون القابلية كأن تكون سبحة أو صخرة وبذرت فيها البذور مع الاعتناء الشام فالآتت تلك الأرض شيئاً ، مع ان الفاعلية والممؤثر موجودان ، ذلك لأن القابلية مفقودة في تلك الأرض . ولو عمدت إلى أرض فيها استعداد للنباتات فإن ابنته تلك

الارض فيكون نباتها قليلاً غير جيد، ذلك لفقدان القوة المؤثرة ولو كانت الأرض صالحة ووسائل انباتها موجودة لابتداً حسناً، وأعطت كلها كما يريد الزار . ولو اتيت بقطعة من الحزف « الفخار » وطرقها بمطرقة لتجعلها آناء فلا تلبث أن تتحطم لأنها غير قابلة لذلك . وكذا لو جئت بقطعة من النحاس وأردت ان تحوها إلى آناء يدرك من غير مطرقة فلا يتم ذلك لفقد السبب المؤثر ولو اتيت بقطعة نحاس إلى صانع وطرقها على مقتضى الاصول تصير آناء صالحآ للاستخدام .

لو اتيت بانسان وحملته على أن يتعلم عالماً ليس في استطاعته أن يتعلمه ، لعدم الميل إليه ، أو لصيق عقله عنه ، فلا يتعلم ذلك العلم ولو اتيت له بأهم العاملين وأبرع الاساتذة ذلك لأنه لم يكن فيه استعداد يؤهله لتعلم ما تزيد تعليمه آياه . وهذا هو السر في عدم نجاح كثير من طلبة العلوم وتلاميذ المدارس لذلك يجب أن ينظر في ميل التلميذ ورغبتة ومقدار عقله ، فإن وجد ميلاً للعلم وكان فيه استعداد له فليخصص لذلك ، وأن وجد فيه ميل للتجارة أو الزراعة أو الصناعة فليخصص لها ، والا اخراج عمره ووقته ومستقبل أيامه سدى . ولو اتيت بانسان فيه استعداد لعلم مطلقاً أو لفن من الفنون كالآداب والفلسفة غير أنك جئت بهم لا يعرف ذلك الفن أو هو غير متقن له فلا يمكن للتلميذ أن يتعلم هذا الفن ولو مكث بضع سنين ذلك لأن القوة المؤثرة مفقودة ، وهذا هو السر في ضياع كثير من التلاميذ وأضاعته أو قاتلهم على جدوه ولا فائدة ، وهذا ما يجب أن ينظر إليه أصحاب المدارس ، حرصاً على هؤلاء التلاميذ الساكرين من قضية سفي حياتهم في التعب والنصب دون أن يصلوا ما قصدوا إليه من الفنون . ولو اتيت بتلميذ فيه استعداد لفن من الفنون . وسلمته إلى معلم قادر على تدريس هذا الفن لنجح في وقت قصير .

إذا وضح ما تقدم امكن انت تطبق حالة كل شعب وكل امة عليه فإن الامة التي سمت مداركها واستندت عزيتها واستندت سهام إقدامها تكون قابلة لكل رفي ، ومستعدة لكل نجاح ، وهذا هو الشأن في الأمم الاوروبية ، فانها بعد ان كانت اماماً خاملة جاهلة تتسلك في دنيا الاوهام ، وتحبط في ظلام الجهل ؛ وتسبح في بحار الاستبداد ، تبغ فيها قوم اجهدوا أنفسهم ، وذلوا

الروح فيها ؟ فإن هذه القوة مفقودة عندنا – فنقول : لقد أخطأ من قال ذلك ، فإن القوة ليست مفقودة ولكن من يتطلّبها مفقود ، ولو بحث عنها لوجدها ، وهي بنزلة القوة الكهربائية لا تظهر إلا بالاحتكاك ، فلو طلبها الطالبون لرأوا من آثارها عجباً .

نعم إن هذه القوة ليست كما نزيد لأنها منحصرة في فئة قليلة لا تكاد تقوم بمحاجيات الأمة ، ولكنها لعدم استخدامها والاتّفاع بها فترت همّتها وقلت الفتنة المودعة هي فيها . على أنها وإن كانت قليلة اليوم فستكون عظيمة في المستقبل ، خصوصاً إذا أرسلنا طائفة غيرها إلى بلاد العلم ، حتى إذا ثالت ما توجه رجعت ونفت قومها : « أطّلعوا العلم من المهد إلى المهد » « أطلبوا العلم ولو في الصين » .

وب قوم يشّروا من رقي هذه الأمة وحكموا بعدم نهوضها من كبوتها بسبب ما أفسده الطالعون من نفوسها وما دمروه من قواعد مجدها ، ولو تأملوا قليلاً ونظروا في حال الشعوب الغربية وما كانت فيه وما آلت إليه لرجعوا عن هذا الاعتقاد ، فإن حالينا اليوم هي خير من حالة تلك الأمم قبل أن توى بصلحاً من العلم ، ومع ذلك فقد نجحت حتى بهرت الشرق بعلومها وأختراعاتها . وما ذلك إلا بما بذله من الجهة الفعّالة .

نعم إن بقى علينا قوم يائسون ، ورهط منتفرون ، يسيطرون على المهم ، ويلقوت العقبات في سبيل المصلحين والذين يريدون تمكّن الأمة ، فإننا بلا ديب نبغي كما نحن الآن : عالة على الأوروبيين في كل شيء . أما إن رفعنا برقع الجهل وقتلنا مكاريب اليأس ، وأنجينا باللامة على مشطى المهم وادعاء الرقي ، ثم أخذنا بأيدي المصالحين وأعتمّل على ما يقصدون ، فلا يضي حين من الدهر حتى تضارع الأمم الغربية بل نفوقها في كل شيء . وما ذلك على المهم العالية والنفوس الظاهرة بعزيز . فإن الذكاء الشرقي مشهور ، والإقليم الذي يقطنه هي أحسن الأقاليم ،

الصّعب وهاجروا في سبيل تحصيل العلم وتلّاقوا مع أساتذتهم العرب – الذين كانوا في ذلك الحين أمّة حية ، هي مثال العلوم والفنون والصناعات والتقدّم والرقي والقوة والمنعة والتبّير على الأقران في كل معنى من معاني الحياة الاجتماعية والمادية والسياسية – فلما تالوا ما قصدوا إليه ورجعوا إلى قومهم ، وبشرّوا بهم تلك الروح العالية التي تالوها من العرب ، سوءاً في المشرق أو الأندلس ، ونشرّوا بينهم أنوار تلك العلوم التي اقتبسوها ، وما زالوا يشعّونه يعلّمونه ويكتسبونه على اكتساب العلم وال مجرة إليه ، حتى تنهّوا شيئاً فشيئاً ، إلى أن وصلوا إلى ما هم فيه الآن فصاروا أساتذة العلوم والفنون ومرجع الصناعات والاختراعات ، فكانوا كما تقدّموا إلى العلم والمدنية راغعاً تأخرنا باعما ، وكما تقدّموا باعما تأخرنا ميلاً ، فبلغوا وفّسراً ، وأفاقوا وغنا ، وصاروا ينخرّون بأعماهم ونخرّ بأعماهم ، ويباهون بعجدهم الحاخير ، وتنزّهـي بمجدهـا الغـابرـ :

لعمـكـ ماـ الانـسانـ إـلاـ ابنـ يـومـهـ إـلاـ ابنـ أـمسـهـ
وـماـ الفـخرـ بـالـعـظـمـ الرـيمـ إـلـاـ

فـخـارـ الذـيـ يـبـقـيـ الفـخارـ بـنـفـسـهـ
هـذـاـ مـيـثـالـ مـنـ أـمـةـ الشـعـوبـ الـتـيـ تـرـقـتـ بـعـدـ الـاـنـطـاطـ بـسـبـبـ تـرـيـةـ الـقـلـ وـالـمـلـ
لـىـ النـصـافـلـ ، حـتـىـ نـرـجـعـ إـلـىـ مـجـدـنـاـ السـالـفـ ، وـنـحـيـ مـاـ مـاتـ مـنـ آـثـارـنـاـ ، إـلـاـ غـيـبـاـ

فـعـسـيـ أـنـ يـقـومـ فـيـنـاـ رـجـالـ كـاـقـامـ فـيـهـمـ رـجـالـ ، فـيـرـشـدـنـاـ إـلـىـ الـمـجـعـ الـحـقـ ،
وـيـأـخـذـنـاـ بـأـيـدـيـنـاـ إـلـىـ صـرـاطـ الـحـيـاةـ السـيـقـيـمـ ، وـيـرـبـوـاـ فـيـ نـفـوـسـنـاـ الـاسـتـعـدـادـ لـصـالـحـ
الـأـعـمـالـ ، حـتـىـ نـرـجـعـ إـلـىـ مـجـدـنـاـ السـالـفـ ، وـنـحـيـ مـاـ مـاتـ مـنـ آـثـارـنـاـ ، إـلـاـ غـيـبـاـ
يـحـاـوـلـ مـنـ يـنـادـيـ الـأـمـةـ الـلـوـقـيـ ، دـوـنـ أـنـ عـيـدـ لـهـ السـبـيلـ ، وـيـفـرـسـ فـيـ نـفـوـسـهـ أـدـوـاحـ
الـلـيـلـ ، وـيـقـدـفـ بـأـيـدـيـهـ فـيـ الـمـادـارـسـ ، حـتـىـ تـرـدـكـ مـنـعـ الـحـيـاةـ وـالـإـيقـاعـ وـفـائـدـةـ
الـنـهـوـضـ ، فـإـنـ الـمـادـارـسـ الـحـقـيـقـيـةـ هـيـ إـلـىـ تـرـيـةـ الـاسـتـعـدـادـ وـنـحـيـ الـقـابـلـيـةـ ، وـمـتـىـ تـمـ
هـذـاـ الـأـمـرـانـ فـيـ الـأـمـةـ وـوـجـدـهـاـ مـؤـزـ وـفـاعـلـ ، فـبـشـرـهـاـ بـالـنـجـاحـ الـعـاجـلـ وـالـفـلاحـ
الـقـرـيبـ .

فـإـنـ قـيلـ : أـيـةـ فـائـدـةـ مـنـ إـمـجـادـ الـمـادـارـسـ الـتـيـ تـرـيـةـ الـاسـتـعـدـادـ إـلـاـ لـمـ يـكـنـ
هـنـاكـ فـاعـلـيـةـ وـهـيـ الـقـوـةـ الـتـيـ تـقـومـ بـتـنـظـيمـ هـذـاـ الـمـادـارـسـ وـادـارـهـاـ وـبـهـ هـذـهـ

ولكن قد ران على ذكائنا زينُ الْجَوَلِ والظالم ، واحتلّت بتراب أراضينا ميكروب
الاهمال والاتكال ، ومتى كشف القطاء ، وماتت جرائم ذلك الداء ، فنرى
الغربي من عجائب الاشياء ، ويسمع غرائب الانباء .

النظمات والأمام

كل قوم بلا نظام يعيشون - فـأيامهم لياليٌ محـاقـ (١)
ونظام الأقوام من غير تنفيذ - القضايا جبر على أوراق
ليس يعني منها تسامي فـتـيلـاـ أـمـةـ ليس نـكـرـهـاـ بالـرأـيـ
فرقـيـ الـافـكـارـ يـنهـضـ بـالـقـومـ - إـلـىـ مـسـتـوـيـ الشـعـوبـ الرـوـاـيـ
ورـقـيـ الـافـكـارـ بـالـعـلـمـ لـاـغـيـرـ - فـهـبـواـ يـاـ قـوـمـنـاـ لـلـسـبـاقـ
لـمـاـ فـارـسـ الـرهـانـ الجـلـيـ يومـ غـصـنـ الـمـيدـانـ بـالـأـحـدـاـقـ
لـمـاـ الـقـارـسـ الصـبـورـ عـلـىـ الـمـوـتـ - وـاـمـ الصـمـاصـ لـلـاعـنـاقـ (٢)
لـاـ الـذـيـ تـاهـ بـيـنـ حـمـرـ وـقـمـرـ - وـنـهـمـ وـبـلـةـ وـعـنـاقـ
(هـوـأـفـ الـكـتـابـ)

الحرية المطلقة هي أن يعيش الإنسان غير متقيّد بنظام ، ولا خاضع لقوانين ،
يعمل ما شاء ويفعل ما يريد ، ليس فوق ارادته اراده ، ولا أعلى من يده يد ،
ومتى قيد بنظام فقد شيئاً من حريته ، وأخاع جزءاً من ارادته ، هذا إن كان
النظام الذي حكم به عادلاً غير جائز ، ومنفتحوه حكاماً مقدسين «عادلين»
لا قاسطين «جائزين» أما إن كان ذلك القانون جائزة أحکامه ، ظالمة حكمه ،
فيكون قد فقد حريته كلها ، وأخاع ارادته بأسرها ، وكذا إن جاز الحكمون
وعدلت القوانين ، أذية فاذية من عددها مع ظلم منفذهما الذين يؤولونها على
حسب شهواتهم الظالمة ؟

(١) المحقق بضم الميم : ثلاث ليل من آخر الشهر القمري

(٢) المصمّم : السيف

الرقـيـ حـقـقـ ، وـالـنجـاحـ مـؤـكـدـ، مـتـىـ وـخـعـنـاـ هـذـهـ الـأـقـوـالـ مـوـضـعـ الـعـمـلـ وـالـاجـرـاءـ
إـمـاـنـ بـقـيـنـاـ تـقـوـلـ وـلـاـ نـعـلـ فـقـلـيـنـاـ السـلـامـ وـرـحـمـةـ اللـهـ وـبـرـكـاتـهـ .
لـاـ تـرـجـ يـاـ شـرـقـ الرـقـيـ بـقـوـلـ
شـرـ المـقـالـ عـلـيـكـ إـنـ لـمـ تـفـعـلـ
فـانـهـنـ - وـلـاـ تـرـهـبـ إـلـىـ الشـرـفـ الـعـلـيـ
وـدـعـ التـغـادـ بـيـنـ مـضـواـ وـاسـبـيلـ
«ـوـاـقـدـمـ إـذـ حـقـ»ـ الـلـاقـ فيـ الـأـوـلـ (٣)

(١) هذه النقطة لصاحب الكتاب من احدى «القصائد الشرقيات»

الاًم ما دامت في حال البداءة لا تحتاج الى قانون ، وان وجد فيها افراد
نيرون فقاما يهبون بذلك اذلا حاجة اليه . فلا حكم عندهم الا السيف ، فيه
ينحا كون ، واليه يلتجأون ، وعليه يعتمدون ، وقد يحيكـون فيها شجر بينهم واحداً
منهم موثقا به من الخصمين ، فهو يحكم حسب العادات أو حسب ما يراه الحق في
نفسه ، وان شئت أن تسمى مثل هذا قانوناً فسمه وأنا لا أسميه .

والاًم متى تحقرت وأرادت أن تستير في طريق المدينه فلا بد لها اذلاك من
منار ترشد به في ظلمات المشاكل ، ويجدها عند الخصومات والحقوق وغير ذلك ،
فيقوم فيها اذلاك من أهل العقل والدراءة من يسنون القوانين ويشترون النظمات
التي توافق بيتهن وزمانهم وحالتهم ، ثم يدفعونها لها كفهم ليعمل بها وينصل ما
يحدث بين الناس بقاضي موادها وأحوها ، فإن كان من حظ تلك الامة ان حاكها
عقل حور يريد منفعة قومه ، عمل بها بصدق وأمانة ، وحل الناس على الخصوص لها ، وأن
كان خبيثاً مريداً اهملها او نسراها حسب رغباته ، وعمل بما يوحده اليه ضميره وفكرة
إذن كانت تلك الامة المحكمة جاهلة خاملة فانها تستكين للذل وتترى بالضيـء .
وان كانت عالمـة شاعرة حية فلنـها تقوم قوـمة رجل واحد خـذ حاكـمـها المستبد بها
فاما أن تستقطـه واما أن تصـلـحـه .

النظمات اما أن تكون الهمـة اما أن تكون وضعـة ، والوضعـة اما ان تكون
مستندة الى الكـتب المـنزلـة كـما كـثـر مـسـائل الفـسـقـه ، او لا ، كـقوـانـين كـنـفـوسـيوـسـ
وـحـمـورـايـ المستـنـدـةـ عـلـىـ وـحـيـ العـقـلـ الـبـحـثـ . وـالـنـظـمـاتـ بـأـسـرـهاـ اـمـاـ شـرـعـتـ لـتـكـونـ
هـادـيـاـ لـاحـاكـمـ وـالـحـكـومـ ، وـوـسـلـيـةـ لـتـرـقـيـ الـأـمـةـ وـاـنـهـاـنـهاـ . وـهـيـ بـقـسـمـهاـ لـاـ تـرـقـيـ
الـأـمـ وـلـاـ تـهـضـهـ هـيـاـذاـلـمـ يـكـنـ هـاـمـنـقـلـوـنـ صـادـقـوـنـ يـعـلـمـ الـأـمـ عـلـىـ اـتـبـاعـهـ
وـالـعـمـلـ بـقـاضـيـ ماـفـيـهاـ ، وـلـاـ يـوـجـدـ هـوـلـاـهـ المـقـلـوـنـ الـأـمـيـ شـاءـتـ الـأـمـةـ أـنـ تـرـقـيـ ،
فـإـنـهاـ حـيـنـنـدـ تـحـجـيـ رـجـالـ الـحـكـمـ الـجـاهـلـيـنـ اوـ الـمـسـبـدـيـنـ عـنـ مـنـاصـبـهـمـ وـتـوـلـيـ مـنـ هـوـ
كـفـلـ الـعـلـمـ وـأـهـلـ الـحـلـمـ .

خذ مثلاً القرآن الكريم والامة الاسلامية : فالقرآن قانون سماوي عادل مدـيـ
صالـحـ الـعـلـمـ بـهـ فيـ كلـ زـمـانـ وـمـكـانـ ، وـفـيـ مـنـ الحـثـ عـلـىـ الـعـلـمـ وـالـاخـلـاقـ النـاـخـلـةـ
وـالـبـرـ بـالـنـقـيرـ وـاسـتـحـثـاتـ الـهـمـ عـلـىـ صـرـفـ الـمـالـ فـيـاـ بـنـعـ الـأـمـةـ وـيـقـيـمـهاـ مـاـ لـيـحـصـيـ ،

الثورة الادبية

أثر ثورة الاخلاق والمبادئ

في حماة المفاسد ، وتلتوت بأوخار العادات السيئة ، فبدل الجهد في اصلاحهم ، وصرف وسعه وطاقته تلهم على معالي الامور ، فكانت نتيجة سعيه قليلة ، ونور عمله ضئيلاً ، فلما عزم على أن يسير بهم فائضاً ومبيناً أوامر ربه ، استمعوا جيئنا وحوراً وقالوا له : « اذهب أنت وربك فقاتلا إتنا ها هنا فاعدون » ذلك لأن الشعب قد كتمت في نفسه العادات ، وشاخت في قلبه الخرافات ، واستولت عليه التقاليد والجبن .

فلا يضيق موسي ذرعاً حتى حار في أمر اصلاحهم فهو مهلهلة الله أن لا سبيل إلى ذلك ، ولا وسيلة لما يبغى ، لكنه أرشده إلى أن يسير بهم إلى المكان المعروف بيده بين إسرائيل ، والحكمة من ذلك أن يبتعدوا عن الأمم المجاورة ليتمكنوا مما يريد . فساور بهم وبقوا أربعين سنة يتيمون في الأرض ، فانقرض بسبب ذلك الجيل الذي تأصلت في نفسه التقاليد التي كانت تمنع من تلقى تعاليم موسي عليه السلام ، ونشأ منه جيل لم يتعمد الترف وفساد الأخلاق ، بل شب على حسب ما يريد موسي ، ودرج على الأخلاق القوية ، ومشي في سن العدل والفضيلة ، وهناك زحف موسي بالنشء الجديد فانجا داعياً إلى الله فليداء الشيء طوعاً واختياراً . وما سبب ذلك إلا تربية مملكة الأخلاق والفضائل حتى صارت طبيعة له .

◎

جاءه يحيى عليه السلام وقد فُقدت طباع هذا الشعب ، فبدل ما في طائفته لشفيف عقله وتربيته تربية صالحة ، فاضطهد وأهين ، غير أنه بقي مثيراً على ذلك حتى استخافوا لنفسه اثنى عشر صديقاً عوّدهم مكارم الأخلاق ، وبث في روعهم حب العمل الصالح وخدمة الأمة ، إلى أن رفعه الله إليه ، فانتشر تلاميذه في الأفاق ويثروا دعوته ، ونشروا تعاليسه بالتبغيب والتزهيب والوعظ والارشاد ، فيخاصوا أمّاً كثيرة من الشرك وفساد الضرائب والعادات الضارة .

◎

جاء محمد عليه السلام ، وكان الجهل والفساد قد حكموا البلاد ، واستوليا على جميع الأمم ، نخصوصاً الأمة العربية التي استباحت أهراق الدماء ورأي البنات وعبادة الأصنام ، وغير ذلك من الاعمال الشائنة والعادات الضارة ، فسعى اصحابي حاملهم

نهوض الأمة وقوتها ، وتقديرها وتأخرها ، وحنظط كيانها وأنهيار مكانها ، كل ذلك أثر من آثار أخلاقها ، ومفعول من مفهومات صفاتها ، وتلك قاعدة أجمع على صحتها علماء الأخلاق والاجتماع ، وعوّل عليها أهل العمران والسياسة فحيث وجدت الأخلاق الصحيحة وحب الفضيلة ، وحيث ركزت الأعمال على دعائم القلوب الحرة ، وبنيت على أساس الوجبات النازلة ، فإنما الامة الروافية والشعب الحي ، وحيث فسدت الأخلاق ، وتفوّضت دعائم الطياع الحرة ، فهذاك الشعوب السافلة والأمم المنتحلة .

ومن العبر المخجلة ترقية أمّة من غير سلوك تلك السبيل ، سهل تقويم الأخلاق الموجهة ، وتنقية القلوب الدنسة ، وتصفية الطياع الكدرة ، ومن سعي غير هذا السعي فقد ذهب سعيه أدراج الرياح ؛ فكانت أعمدة هباءً مشهوراً .

تلك سنة الله في عباده « ولن تجد لستة الله نبيلاً » وقد أثبتنا الخبر ، وعلمتنا الاسفار ، وأنشدتنا دلائل الاعتبار ، وأوضحت لنا شواهد الاختبار ، إن عوامل التربية والتعلم هي أعظم مؤثر في تقويم الأمة ، وأنها هي السبب الوحيد ، والدواء الشافي لأدوائنا ، فلارقي ولا نجاح إلا بتعزيز الأخلاق الشائنة ، وتوزع الصفات الضارة .

درج على ذلك الانبياء وال فلاسفة ، وتباهوا علماء الأخلاق والمجتمع ، ولمنا فيهم أسوة حسنة وقدوة صالحة .

◎

جاءه موسى عليه السلام فوجد شعب إسرائيل خالاً طريق الحق ، وقد انقضى

الثورة : نهوض يقصد منه تغيير في السياسة أو الاجماع أو الاخلاق من قبيل إلى حسن أو حسن إلى قبيح ، وقد يبع عن الغاية الأولى بالانقلاب وعن الثانية بالهيجان . وقد ينبع القيام لطلب الحق بالانقلاب ، والنهوض لما ينادي بالباطل بالثورة — والثورة للحق من مطالب الامم الرافقة . غير ان النهوض لنغير نظام السياسة لا يفلح أنصاره ولا تثبت دعائم مطالبهم ان لم يسعوا قبل ذلك لنغير نظام الاجماع والأخلاق حتى يكون للأمة استعداد لتلقي ما يراد بمحاه . وحتى لا تثور خدما يخالف الانظمة القديمة والعادات السائرة فيتوجه حب التغيير عكس المقصود ، ولو فرضنا أنها لم تتو لم تعارض في جديد النظام وتحديث التغيير ، فإنها لا يمكن أن تستند من الاصلاح شيئا ، بل ربما يكون الاحلام شرأ عليها من عاداتها القديمة ولو كانت خارقة ، وهذا قول ربنا لا يسلم به كثير من الناس . ولكنهم لو ترووا قليلاً سلكوا في البحث جادة الاستطلاع والتقييم لسموا بما نقول تسليما . وهكذا على ما نقول أدلة بسيطة يعلم بقدتها ونتائجها كل انسان :

— لا ريب ان حالة الامم الريحة الاخلاق والجاهلة كحال الرجل الضعيف الفئوي أو المبتلى بمرض من الامراض . ولا ينكر أحد ان الـ كل المغنية كالتجويم والخشوات مفيدة جداً ان لم تتعذر قانون الصحة . ومع هذا فلو تناول ذلك الرجل الريض شيئاً منها فلما شكل ان مرضه يزيد وشقاءه يمطر . لذلك يسعى الطبيب بإعطائه العلاج المناسب لقوية جسمه وارجاع قوه وادهاب مرضه . حتى اذا بلغ القصد وزالت العلة يصف له من الـ كل الاطلاق ما يناسب معدته . وحين يصلى الى درجة الشفاء التام يبيح له أن يأكل ما شاء ويرغبه في تناول الاطعمة المقوية .

وهكذا مرض العقول والاخلاق تضرهم السياسة والثورة لها والنظمات الرافقة التي تناول بواسطتها ، لأنها بعزلة الاطعمة المقوية التي لا تتمكن المعدة من ضمها بعد تقويتها بالأدوية . فيجب قبل ذلك أن تداوى عقولهم والخلافهم التي هي معدة الاجماع حتى اذا صاحت وحسنت وصارت مستعدة للحكم الرافي وهي غير نائلة اياده ثارت طلبه من طريق السياسة .

وليمان أنه بقدر استعداد الأمة للحكم الصحيح والصلاح تتنبع من ذلك . فإن فاتحت حقوقها وأبيح لها الاصلاح غير أنها لم تستند شيئاً فاعلم أنها امة غير صالة هذه

والماضهم من طريق التربية والوعظة الحسنة ، فلم تمض مدة حتى حست أحوالهم واستقامات أفكارهم ، وبلغوا من القدم ورقي الأفكار شأنهاً بيسراً . ولم يتم لهم لاصلاحهم من طريق القسوة والشدة وأشهر السبب في وجههم وإن ما حصل من الغزو والخروب إنما هو تحالف الدعوة من المعارضين ، ومقابلة لاعتداء المعتدين ، وظلم الطالبين ، من ناشر كون الذين كانوا يؤمنون ويسلطون أشرارهم عليه وعلى أتباعه ، ويشنون الغارة ويقطعن السبل ، ويفعلون الأذاعيل ، ويعملون من ضرب العدو والجور ما لا يحيص . كل ذلك ليحولوا بيده ويبن ما جاء به من الهدایة ، مع انهم يعلمون انه الحق من ربهم ولكتها الانفة والاستكمار وهم يعلمون حق العلم أنه متى انتشرت دعوه وكثر متبعوه حيل بينهم وبين ما يشهون ، وانقلبت آمالهم ومحبت سيطرتهم ، وطممت أعلام عندهم وجبروتهم ، لأن من قواعد الدين مساواة الصعلوك بالأمير في كل حق من الحقوق .

هكذا كانت سيرة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهكذا شأن العقلا والفلاسفة في كل جيل وكل أمة — يأتون الأمة من أبواب التربية وتنوير العقول حتى إذا تم لهم ما أرادوا نهض الشعب من قبل نفسه وتزوج عنه أردية الخطل ، وطرح معاطف الجهل والفساد . وتلك هي الثورة الادبية أو ثورة الأخلاق والمبادئ ، وبها تحيي الانبياء وأفلاح الملحقون .

ان الثورة لطلب الحق والحرية بالسيف إن لم تقدمها الثورة لاصلاح العادات وما درج عليه الشعب من الأخلاق الساقطة لا تجدني نفماً ولا تغفي فتيلاً ، لأنه متى سكنت ثائرة الطالبين باقotope ، أو استغلهم الباطل اليه عادت الأمة الى أشد ما كانت عليه من الظل والأنمول ورقدة الفزعية .

اما ان كانت الـ امة هي الطالبة بذلك بسبب ما عندها من الأخلاق الرافية والآراء الـ زيرة والاستعداد لعلى الامور فلا يمكن أن يتتمكن أهل الباطل من ارجاعها إلى الحالة الغابرة بعد ان فلت حرزيها ، واستولت على رغباتها ، فإنها عند ذلك تقوم قومة هائلة وتناضل عن حقها ، وتدافع دون مـ يـ السوء إلى أحب حبيب لديها ، وأعز مشتهـ عندها .

النعمة . لأنها لم تقدرها قدرها ولم تعي لها الأسباب الازمة الكافلة ببقائها والمستخرجة لفواندها . وليس الذنب على القوانين ولا على الفاقدين بتبنينها . وإنما الذنب على الأمة التي تحكم بذلك القوانين . لأنها تدع معتقداتها يفسرون موادهاحسب مشتهراتهم دون معاشرة أو مصادمة وعندى أن هؤلاء المنفذين أو الحكماء غير ملومين لأنهم يرون شعباً حقيراً وأمة جاهلة خاملة فاسدة الأخلاق ، فيعتقدون أنهم انت مشوا في سنة العدل وسلكوا السبيل القوية يعارضون من قبل تلك الأمة ، لأنها لا تزيد العدل ولا تمثل إلى الأنصاف ، وحين يرى الحكم من الأمة ذلك يعلم أنها ضعيفة فيلعب بها كما يلعب الصبي بالاكنة ويستبدل بشؤونها ويتصرف بصالحها حسب إرادته ومشتهاه .

ومن الغريب أنه توجد طائفة منها فضلاً عن استكانتها وخنوعها لكل اشارة من الحكم ، فإنها تدل على طريق العيش بالمرافق والاستئثار بالأعمال وتسلل له الطريق إلى ذلك تسهلاً . وهؤلاء هم أخصاء الحكم وأعداء الأمة وان كانوا بعض أفرادها ، فإن نقوسم قد تعودت الرياء والمداهنة والتزلف وغيرها من الأوهام التي يغدوها شرقاً . لأنهم يحسبون التقرب من الحكم فغراً ومجداً .

فالآمة التي ترضى عن مثل هؤلاء الأفراد منها وتبجيدهم وتعظم مقامهم هي أمة ساقطة لا يجدر بها الا الظلم ، ولا يناسبها الا الاخطاء ، لأنها فقدت عاطفة الآباء ، وماتت فيها روح الحمد ، لذلك استسهلت المون :

من يُؤْمِن يُسْهِل أَهْوَانَ عَلِيهِ ما جُنِحَ بِعِصْمَتِ أَيَّامِ

والشعب الذي يستكين أمام عبث الحكم بالقوانين وتلاعبهم بعمله هو شعب حقير لا يصلح إلا السيف ، فان بقية السيف أثني عددأً وأنجب ولدأً .



ان الأمة التي هي على هذه الشاكلة ان ذار في متورتها وعظاء رجالها ثانية الاصلاح السياسي قبل أن يقدمه الاصلاح الأخلاقي وثورة الفلسفة وأهل التربية يكون ويلاً عليها كما أسلفنا فإن تم نوال الاصلاح السياسي قبل الأخلاقي وانتشرت في الأمة القوانين الرافية وجعل الحكم على القضاء بها ، فترى تلك الأمة آسفة كل

ذلك الخليقة هو آدم وبنوه ، وقد شام الملائكة ان يكونوا كما كان من وجد قبالم من الام : سفكة الدماء ، مفسدين في الأرض ، فيصيهم من الحق والخوا ما أصاب أولئك الأقوام .

السل الاجتماعي

خلق الله المخلوقات وجعلها اجنساً وجعل تحت كل جنس نوعاً . ومن هذه الاجناس الحيوان ومن انواعه الانسان ، وهو الحيوان الناطق أي المدرك العاقل . فالله انتهى ارتقاء هذا الجنس ، وعنه انقطعت سلسلة ترقية . قال الله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم » وما هذا التكريم الا بما أودعه فيه من القوى الكاملة ، وها ميزه به من العقل ، ذلك الجوهر الصافي المشرق من الملائكة الاسنى والمخل الأرفع . فيه يأخذ الانسان ، وبه يكون مظيراً للرضوان ، وبه يسير في مناهج الحياة ، وبه يعرف الخير من الشر ، ويميز الخبيث من الطيب .

فالانسان في الحقيقة ليس مجرد هذه الصورة الظاهرة ، ولا هذا الجسم النامي ، ولا تلك التقطيع . بل هو ذلك الجوهر السامي ، المابط على هذا الجسم النامي . هو ذلك الامر الرباني ، المتجلبي على هذا الهيكل البشري . لأن الانسان انسان من يوم يخلق ، الى يوم يموت ، وما يدركه ويعمله في حياته دائم لا يزول ، مع ان جسمه يتبدل كل مدة ، فإن أجزاءه اليوم هي غيرها قبل عشر سنين بلا ريب فالانسان اذن هو تلك الروح العالية والجوهر المدرك ، وما سواهما فهو آلة وواسطة ، وهذا هو السر الذي فضله الله به على سائر خلقه .

اذ كان لهذا الكائن الصغير ، وهو الانسان قلث المبنية العظمى ، فليس وجوده الا حكمة عظيمة ، هي غاية ما يمكن أن يصل اليه عقل البشر . وتلك الحكمة هي بجملة في قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانسان الا ليعبدون » والعبادة هنا يعني المعرفة كحق ذلك جهور من المترسرين . فالغاية إذن من خلق الانسان هي ان يعرف الله حق معرفته ، ومتنى عرف الانسان ربـه يتشوق الى طريق يسلكه ليصل اليه ويقرب منه . وما الوصول اليه والتقارب منه الا العمل بما يرضيه ، ليكون بذلك واسطة الاحسان واغراق النعم .

الانسان مخلوق في احسن تقويم وأبدع نظام ، كملت صفاتة الظاهرة ، كما حسنت جيـراته الباطنة . أسكنـه الله هذه البسيطة ليعمرها ، وأطلق فيها يـده ليـستخرج خـيراتها . اوـجده ليـكون خـيلـيقـتها فيها ، فيـدـيرـشـوـنـها ، وـيـسـنـسـيـرـهـا فيـ مـنـاكـبـها . وـقـيـدـهـ باـنـظـمـةـ عـادـلـةـ وـرـبـطـهـ باـسـبـابـ قـوـيـةـ ، حتىـ لاـ يـتـعـدـيـ ماـ خـلـقـ لـأـجـلـهـ ، فيـعـلـ

يهـ ماـ جـلـ بـأـمـ وـجـدـتـ قـبـلـهـ ، وـيـنـالـهـ ماـ فـلـاـهـ مـنـ التـلـاثـيـ ، وـيـصـيـهـ ماـ أـصـابـهاـ مـنـ

الخـواـ .

الانسان اجتماعي فهو عـرـخـةـ لـآنـ يـطـرـأـ عـلـيـ كلـ اجـتـمـاعـ فـيـيدـ شـلـهـ ، وـيـفـرـطـ عـقـدـ نـظـامـهـ ، كـاـصـابـ الـأـمـ الـتـيـ سـكـنـتـ هـذـهـ الـأـرـضـ قـبـلـ أـنـ يـقـطـنـهاـ اـلـإـنـسـانـ .

تلك أـمـ قـدـ دـخـلتـ ، وـقـدـ كـانـتـ كـافـخـنـ الـيـومـ عـامـرـةـ الـأـرـضـ وـمـيـرـتـهاـ عـاـمـلـةـ عـلـىـ استـخـارـاجـ خـيـراتـهاـ ، جـادـةـ نـحـوـ اـحـيـاتـهاـ . وـلـكـنـ قدـ أـصـابـهاـ ماـ مـخـمـقـهاـ وـتـرـكـ دـيـارـهاـ قـاعـاـ صـفـقاـ ، لـاتـرـىـ فـيـهـ عـوـجـاـ وـلـأـسـتـأـ . أـجـلـ لـقـدـ مـرـىـ فـيـهاـ مـرـضـ ثـفـىـ عـلـىـ اـجـتـمـاعـهـاـ وـلـمـ تـقـضـ الـبـلـانـةـ مـنـ وـجـودـهـاـ ، قـدـ اـنـدـسـ فـيـهاـ ذـلـكـ الدـاءـ العـيـاءـ الـذـيـ مـاـ اـنـدـسـ فـيـ أـمـةـ مـنـ الـأـمـ وـتـغـافـلـتـ عـنـ مـداـوـاهـ ، إـلـاـ كـانـ سـبـبـ اـنـدـثـارـهـاـ وـعـلـةـ مـعـقـهاـ .

نـشـأـ فـيـ نـفـوسـ تـلـكـ الـأـمـ التـحـاـسـدـ وـالتـبـاغـضـ وـحـبـ الـأـثـرـ ، فـنـشـأـ عـنـ ذـلـكـ تـرـكـ عمرـانـ الـأـرـضـ ، وـالـاشـتـقـالـ بـسـفـكـ الدـمـاءـ ، وـخـرـبـ الـأـقـوـامـ بـعـضـهـ رـقـابـ بـعـضـ ، حتىـ آـلـ ذـلـكـ إـلـىـ أـنـ حـكـمـ اللـهـ فـيـهـ نـظـامـهـ فـيـ الـأـكـوـانـ ذـلـكـ النـظـامـ الـذـيـ يـؤـاخـذـ فـيـهـ خـلـيـقـهـ مـاـ ظـلـمـواـ تـدـوـيـجـاـ ، حـتـىـ لـمـ يـُـبـقـ مـنـهـمـ أـحـدـاـ ، فـلـاتـرـىـ لـمـ الـيـومـ مـنـ يـاقـيـةـ ، وـإـلـيـ ذـلـكـ الـاـشـارةـ بـقـوـلـهـ تـعـالـىـ : « وـاـذـ قـالـ رـبـكـ لـلـلـائـكـةـ أـنـ جـاءـ عـلـىـ الـأـرـضـ خـلـيـقـةـ . قـالـواـ : اـتـجـمـلـ فـيـهـ مـنـ يـفـسـدـ فـيـهـ وـيـسـفـ الدـمـاءـ ؟ وـنـخـنـ نـسـبـ بـحـمـدـكـ وـنـقـدـسـ لـكـ . قـالـ : أـنـيـ أـعـلـمـ مـاـ لـاـ تـعـلـمـونـ .

الاًمِّ الَّتِي تُسِيرُ بِأَيْدِي اللَّهِ ، وَتَجْعَلُ عُمَرَ الْأَرْضَ هَدْفَهَا الَّذِي تُوْمِي إِلَيْهِ
وَغَایبَتَا الَّتِي تَقْدِمُ لَهَا ، هِيَ الْأَمِّ الَّتِي يَغْدِي اللَّهُ عَلَيْهَا نَعْمَهُ ، وَيَجْعَلُهَا سَيِّدَةَ
الْأَرْضِ ، وَالتَّابِيَّةَ عَلَى زَمَانِ مَنَافِعَهَا وَخَيْرَاتَهَا ، وَالْأَمْرَةَ النَّاهِيَّةَ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِّنْ
شُؤُونِ سَكَانِهَا ، وَالْأَمَامَ الَّذِي يَقْتَدِي بِهِ مِنْ تَقَاعُسٍ عَنِ اتِّهَاجِ مَنْهَا ، ثُمَّ دَبَّتْ
فِي الْحَيَاةِ دِبِّيهَا ، فَاهْتَمَ بِإِصْلَاحِ حَالَهُ ، وَعُنِيَّ بِكَسْرِ قِوَدِ الْحَوْلِ عَنْ عَقْلِهِ .

◎

انْهُوْضُ الْأَمِّ وَتَرْقِيَّهَا ، وَتَسَاءُلُ درِجَاتِهَا وَتَعْالَيَّهَا ، لَمَّا مِنْ الْإِتْفَاقِ فِي
شَيْءٍ . بَلْ إِنَّ لِلتَّرْقِيِّ نَظَامًا ، وَانْلَبَوْغُ الْأَمَةِ غَايَةُ الْجَهْدِ قَاتِلُنَا . فَفِي وَجْهِ الْأَمَمِ
عَزِيزَتِهَا لِحُوْ الْعَمَلِ بِنَظَامِ التَّرْقِيِّ وَالْأَخْذِ بِآسَابِيبِ النَّجَاحِ ، وَصَبَرَتْ عَلَى مَا تَلَاقَتِهِ مِنْ
الْعَقَبَاتِ فِي سَبِيلِ تَطْبِيقِ هَذَا الْقَانُونِ ، فَانْهَا تَحْلِي إِلَى مَا تَرْجُوهُ مِنَ السَّعَادَةِ ،
وَمَا تَتَطَلَّبُهُ مِنْ الْفَلَاحِ وَلَوْ بَعْدَ حِينِ .

انَّ الْأَنْسَانَ الْمَادِيَ – وَأَعْنَى بِهِ هَذَا الْهِيْكَلُ الْمَرْثِيِّ – إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِقَانُونِ
حَفْظِ الصَّحَّةِ ، وَيَنْعَذُ الْحَيْطَةَ دُفَّعًا لِلْعَوَادِيِّ ، أَحْسَنَتْ بِهِ الْأَدْوَاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ ،
وَهَرَعَتْ إِلَيْهِ الْأَمْرَاضُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ سَحِيقٍ .

الْأَوَانِ الْأَنْسَانِ الْمَنْعُويِّ – وَأَعْنَى بِهِ الرُّوحِيِّ – إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِقَانُونِ حَفْظِ
صَحَّةِ اِبْتِيَاعِهِ ، اِنْهَالَتْ عَلَيْهِ الطَّوَارِيَّةُ الْمَعْنُوَيَّةُ ، وَانْصَبَتْ عَلَى مَجْمُوعِ الْمَدِيِّ اِمْطَارُ
مِنْ السُّوءِ تَقْدِيدَهُ مَيْزَانَهُ وَخَلَاقَهُ وَتَجْعَلُ وَجْهَهُ الرُّوحِيِّ كَأَمْسِ الدَّابِرِ .

الْأَمْرَاضُ الْمَادِيَّةُ كَثِيرَةٌ وَمِنْ أَقْبَحِهَا فَعْلَا وَاسِّعًا ذَلِكُ الدَّاءُ الْوَبِيلُ الَّذِي تَرْتَدُ
الْفَرَائِصُ فِرَقًا مِنْ ذَكْرِهِ؛ وَهُوَ السُّلُولُ . وَفَقَادَ اللَّهُ وَإِيمَانُهُ وَسَائِرَ خَلْقَهُ مِنْ فَتَكَاتِهِ .
وَكَذَلِكَ الْأَمْرَاضُ الْمَعْنُوَيَّةُ كَثِيرَةٌ ، وَمِنْ أَقْبَحِهَا فَعْلَا وَاسِّعًا ذَلِكُ الدَّاءُ
الضَّارِيُّ الَّذِي لَا يَجْعَلُهُ الْأَقْلَيْلُ ، وَهُوَ الَّذِي اخْتَرَتْ أَنْ اسْبِيَهُ «السُّلُولُ الْإِجْتِمَاعِيُّ»
أَعْنَى اللَّهُ صَاحِهِ الْأَمَمِ وَمُصَلِّحُهَا عَلَى رُدِّ هُجْمَانِهِ ، وَالتَّخْفِيفُ مِنْ وِيلَتِهِ .

انَّ الْأَنْسَانَ الْمَادِيَ مَتَى نَزَلَ بِهِ دَاءُ السُّلُولِ فَانْهَ لَا يَرْزَالُ يَضُؤُلُ وَيَنْجُلُ
حَتَّى يَدْعُهُ كَالْحَلَالُ ، وَيَجْعَلُهُ كَالْحَلَالَ ، إِلا إِذَا تَعَهَّدَ الْأَطْبَاءُ بِالْأَدْوَيَةِ الشَّافِيَّةِ ،
وَالْعَلاجَاتِ الَّتِي تَصْدِّيَّهُ .
وَكَذَلِكَ الْأَنْسَانُ الْمَعْنُوَيُّ مَتَى لَمْ بِسَاحِتِهِ «السُّلُولُ الْإِجْتِمَاعِيُّ» فَانْهَ لَا يَرْزَالُ

— ١٣٦ —

تَضُؤُلُ الْخَلَقَةِ وَتَحْلُلُ مَيْزَانَهُ ، حَتَّى يَجْفُ غَصْنُ حَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ ، فَيَصْبَحُ كَالْحَيْوَانَ
الْأَعْبَمِ ، لَا يَعْرُفُ مِنَ الْحَيَاةِ إِلَّا مَا يَشَارِكُهُ بِهِ الْحَيْوَانُ ، وَيَظْنُ بِلِّي يَعْتَقِدُ كَمَا يَعْتَقِدُ
مِنْ بَلِّي بِهِذَا الدَّاءِ أَنَّهُ لَمْ يُخْلِقْ لِهِذَا هَذَا ، كَمَا قَالَ قَاتِلُهُمْ :

إِنَّ الدِّنَيَا طَعَامٌ وَتَسْرِابٌ وَمَنَامٌ
فَإِذَا فَاتَكَ هَذَا فَعَلَى الدِّنَيَا السَّلَامٌ

وَهُؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : « إِنَّ هُمْ لَا كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضْلَلُ سَبِيلًا ».
أَجْلُ أَنَّ الْحَيْوَانَاتِ السَّلَامَةُ هِيَ خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الصَّنْفِ الَّذِي يُعَدُّ مِنَ الْأَنْسَانِ ،
وَلَيْسَ مِنَ الْأَنْسَانِيَّةِ فِي شَيْءٍ ، لِأَنَّ الْأَنْسَانَ شَيْءٌ وَالْأَنْسَانِيَّةُ شَيْءٌ آخَرُ ، ذَلِكَ لِأَنَّ
الْسَّوْاْمَ اَنَّهُ لَمْ يَتَفَعَّلْ فَإِنَّهَا لَا تَنْفَرُ . بَلْ أَنَّ كَثِيرًا مِّنْهَا يَتَفَعَّلُ غَيْرَهُ بِمَا يَجْعَلُ الْأَقْتَالَ
إِلَى بَلَدِنَمْ نَكْنَنْ بِالْغَيْرِ الْأَبْشَقِ الْأَنْفُسِ ، إِلَمَا يَأْتِهِ يَكُونُ غَذَاءَ مِنْهُ فَوْ
أَجْسَامَنَا وَبِقَوْمَهَا إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْتَّنَافُعِ الْمَادِيِّ . وَإِمَّا الْأَنْسَانُ الْحَيْوَانِيُّ فَإِنَّهُ
فَضَلَّعَنْ كَوْنَهُ مَضْرَرًا بِنَفْسِهِ قَانْ ضَرَرَهُ يَتَعَدَّ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ ، وَيَكُونُ
وَجْهَهُ ضَرَبَةُ قَاتِلَيَّةٍ عَلَى الْأَنْسَانِيَّةِ ، وَسِيفًا مَسْلُولاً عَلَى عَنْقِ الْإِجْتَمَاعِ وَالْعَرَانِ .
لِأَنَّ هَذَا الصَّنْفَ مِنَ النَّاسِ لَا يَفْتَأِي يَسِيَّ لِيْلَ خَارِ لِتَقْوِيَّةِ اِرْكَانِ الْجَمَعِ بِمَا يَأْتِيهِ
مِنْ ضَرُوبِ الْأَنْسَانِيَّةِ وَمَا يَعْمَلُهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَازِيَّ وَالْأَضَالِلِ لِجَرِيِّ مَنْفَعَةِ ذَاتِيَّةٍ وَجَلْبِ
مَا يَأْمُرُهُ بِهِ هَوَاهُ التَّفْسِيِّ ، وَلَوْ أَخْرَى ذَلِكَ بِمَجْمُوعِ الْأَمَمِ الَّتِي هُوَ عَائِشٌ فِي بَيْتِهِ ،
وَمُمْتَنِعٌ بِجَيْرَاتِ اِعْمَالِهِ ، وَمُثْرَاتِ جَدِهَا وَاجْتِهَادِهَا ، دُونَ أَنْ يَفْكُرَ فِي أَنْ ضَرَرَ
عَمَلِهِ هَذَا لَيْسَ عَارِئًا عَلَى أُمَّتِهِ فَقَطْ ، بَلْ هُوَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ أَيْضًا لِأَنَّهُ وَاحِدُهُ مِنْهَا ، وَمَا
يَعُودُ عَلَى الْجَمَعِ هُوَ عَائِشٌ عَلَى الْفَرَدِ الْبَتَّةِ ضَرُورَةٌ أَنَّ الْبَلَاءَ مَتَى نَزَلَ فَهُوَ يَعْمَلُ ، وَإِنَّ
الْفَرَدَ لَا يَحْيَا لَهُ إِلَّا بِالْجَمَعِ . وَلَكِنَّهُمْ لَا يَأْبُونَ هَذَا الْمَعْنَى ، وَلَا يَحْفَلُونَ بِذَلِكِ
الْمَغْزِيِّ . وَكَيْفَ يَعْبَأُونَ بِهِذَا الْفَلَسْفَةِ وَقَدْ قَالَ قَاتِلُهُمْ :

إِنَّ دِنَيَايِّ نَقْسِي فَإِذَا ذَهَبَتْ نَقْسِي فَلَا عَاشَ أَحَدٌ
لَيْتَ أَنَّ الشَّمْسَ بَعْدِي غَرَبَتْ ثُمَّ لَمْ تَطْلُعْ عَلَى أَهْلِ الْبَلَدِ

مَقِّعْتَ هَذِهِ الْفَكْرَةِ السَّيِّئَةِ ، وَأَنْتَشَرَتْ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأَمَمِ ، فَانْهَا تَكُونُ عَامِلًا
كَبِيرًا فِي هَدْمِ أَسَاسِ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ ، وَسَبِيلًا عَلَيْهَا لِقَذْفِ الْأَمَمِ مِنَ الْحَالَاتِ الْمُ
الْحَضِيقِ ، فَتَنَقَّدَ مَا لَدِيَاهُ مِنْ مَجْدٍ ، وَتَقْبَضَعَ مَا عَنْهَا مِنْ سُوْدَدٍ . ذَلِكَ لِأَنَّ الْأَمَمَ

ما السر الذي صدف بهذا المخوق الكريم عن سلوك سبيله امر بالمسير فيها
وما السبب الذي قعد به عن الطيران في جوِّ الفضائل ، وما الذي أفقده عاطفة
العمل متضامناً متكافلاً يحب لأخيه ما يحب لنفسه ؟ مع أن له عقلاً مفكراً
وبصيرة نيرة .

هذه أسلة يتשוק كل إمرئ إلى جواب شافٍ عنها .

في الإنسان عقل ونفس يتنازعان هذا المخوق ، وكل واحد منها يبذل جهد
الطاقة ليكون له الفوز عليه . ذاؤها يدعوه ليكون إنساناً كل الإنسان ، فيحسن
له الخير ويفديه طريق الصواب ويحذره موارد الهمكة . وثانية يربه الخطأ صواباً ،
والراب ماء ، ويخسن لسوء عمله فنراه حسناً فإذا غلب العقل النفس فصار الإنسان
في مهيع الحق . وإذا غابت النفس العقل ، فاتبع الإنسان أوامرها وصار قيد تواهياً ،
فذلك هو الحيوان الأعمى ، في صورة الإنسان المكرم .

« كل مولود يولد على الفطرة » تلك قاعدة عظيمة لما ثمن في حده ، فالإنسان
يولد طاهراً ميراً من كل عيب تقريباً من كل شائبة . وإنما ينحرف عن الجادة
وينطبع فيه ما لم يخلق لأجله بما تلقنه من التعليم وما ينغيره في من التربية فعلى
التعليم والتربية مدار ترقية أو تدنيه ، فيها قطب سعادته وسعادة أمته أو شقاوتها
وعبيتها محاولاً التهوض بالآمة ، وسدى نفع الآفات في تحسين حالتها ، إذا كانت
السل الاجتماعي - الا وهو فساد التربية - فاشياً في جسمها ، عاملات على إغضابها
وأنجذبها .

فالإصلاح التربية والعمل على تهذيب الأخلاق والسعى وراء تنمية الادرمان
المعنوية هي العامل الأكبر على امامة داء الاجتماع .

ينشأ الطفل على الاسترسال في الهوى ، ويعود الكل ، ويروض على الجبن
والضعة ويطبع على الذل والخنوع ، ويُقسر على أن يتکلف ما ليس من طبعه ،
حتى إذا ما شَبَّ أتقى حبله على غاربه ، وأطلق له السراح فيرى من مقاسد البيئة
التي تحيط به ما لم يكن يوي ، ويشاهد ما يدعوه إلى الانغماض في حياة اوضارها ،
فكيف بعد هذا يرجي أن يكون خادماً للامة ، أو يؤمل منه ان يكون

تعتورها عوامل الأهواء ، وتحيط بها عوادي الآلانية ، وتساورها ارقام الأحقاد ،
فيجعل بها البلاء ، ويلزمها الشقاء ، وتنزل بها الألواء . « وما ظالمهم الله ولكن
كانوا أنفسهم يظلمون » .

الا وان كل ما نراه اليوم في الامة من فساد الأخلاق والجبل والتاخر وغيره
ذلك من ضروب الشقاء ، افاسبيه الأثرة والأفانية وحب الذات على غير المعنى
الصحيح . وعن هذه الادواة القاتلة قد نشأ كل فساد نراه وصدر كل شر
نشاهده .

فاما نرى الامة تعلم جماعات جماعات حاملة لواء التضامن ، ضامة بين جوانبها روح
التكامل . بل نراها مشتبه الآراء ، متشعبة المقادير ، مختلفة الأهواء ، اذا دعوها
لتجمع شملها شملت ، وإذا أهبت بها لهم شعها جمعت . أما إذا ناديتها حل
الأوامر - وإن كان هناك أوامر ... معقوفة هرعت . وإذا حستت ما منكروا ،
وزينت لها أمراً فزيأه ، ثم صدرها ، وأشرق جبينها كأنك جئت شيئاً مشكورة .
يتهافت كثير من الامة على الملاذ المادي تهاافت الفراش على النار أو الحياع
على القصاع ، ويجودون في سبيلها بما لا يعلمه إلا هم : من الأموال التي لو أعطوا بها
أمتهم ، لتصرفها على المشروعات العامة ، لكيانت خير أمة أخرجت للناس ، حتى
إذا دعوا لما فيه ترقية الاوطان ، واعلاء الشأن ، لَوْلَا رفووسهم معرغين ، ولو لم
 مدبورين ، كانك تدعوه إلى داهية نكر ، أو أمر بجر . إنَّ هذا والله فهو
المضران المبين ، والداء الدفين .

ذلك هو الإنسان - الذي ما خلق إلا ليكون اجتماعياً - يفكك عرى
الاجتماع بما يائنه من ضروب الفسوق عن الإنسانية ، وما يعمله من أنواع الهمجية
وقد نهى أن « الإنسان أخوه الإنسان حب ألم كره ، وإن الخلق كلام عمال الله
فأحبهم إليه انفعهم لعياله » كما جاء في الحديث الشريف .

(على الأقل) أميناً على نفسه.

فيا ايها القوم الى ثورة عامة ينكشط دجاجها عن تغیر في الاخلاق وينجلي
نفعها عن تبديل في اوضاع حالتنا الاجتماعية ، فمخلص بعد ذلك خالقاً آخر ، ونجني
حياة دائمة ، ونشأ انشاء جديداً .

فالبدران البدار اها القوم ، وتعاونوا على مداواة هذا السل بالتربيه والتهذيب
ونشر التعليم الصحيح وتأليف الجمعيات التهذيبية لارشاد العامة وتقوم ما اعوج
من اخلاقهم ، واصلاح ما فسد من تقويمهم ، فان بذلك سنجح الاوطان ، واعلاء
رالية الامة ولا إخالكم الافاعيلين ، والله الموفق والمعين .

فشل الاجتماع فساد التربية ، وهو اداء اخلاقياً ، وتعهد النشء بالمحافظة عليه
ومراقبته مراقبة الزارع لزرعه والصانع لعمله ، فكما أن الحارث يتهدى حرثه الى
أن ينموا وينثر في المجتمع بشيراته ، وكما أن الصانع ينفع المهد ليكون عمله مقتناً
فيتنفع بغيراته ، فكذلك يجب على النبي أن يتعجب وينصب ، ويتعهد من سُلم اليه
أمور قرينته وتهذيبه ، لينشأ منها على أحسن صورة من صور الكمال ، فينکوّت
منه الخير والبركة لوطنه والناس اجمعين . قال الامام التزالي عليه الرحمة :

ان الولد امانة عند والديه ، وقلبه الطاهر ينهرة نفيسة خالية من كل نقش وصورة ، فان عود اخثير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وساعدته في ثوابه ايواه وكل معلم ومؤذب . وان عود الشر وأهل شقي وهالك ، وكان الورز في رغبة ولية والقيم عليه » .

فرض اجتماعنا اهبا القوم مزمن ، ولا دواء له الا التربية الحق التي تصلح
النفوس ، وترأب صدوع مجتمعنا الذي انحالت عليه معاوٰل فساد الأخلاق من
كل جانب .

ولا اعني بالتربيـة الا التـربية الـوطـنـية الصـحيـحة الـتـي تـعـطـي لـنـا اـخـلـافـنـا وـأـدـبـنـا وـعـادـاتـنـا وـمـعـارـفـنـا مـعـ اـقـبـاسـنـا مـا نـزـاهـا حـسـنـاً مـنـ مـدـنـيـةـنـا الـقـومـنـ سـبـقـوـنـا فـيـ مـيـدـانـا الـحـيـاةـ اـشـواـطـاـ هـيـمـاتـا اـنـ تـلـحـقـمـنـ فـيـهاـ ، الـاـ اـذـا طـرـحـنـا الـحـوـلـ وـبـنـدـنـا الـعـصـبـيـاتـ الـجـاهـلـيـةـ نـيـدـنـا الـنـوـءـ ، وـلـمـ تـنـخـدـنـا رـائـدـاـ الـاحـبـ الـوـطنـ ، وـلـمـ تـجـعـلـنـا قـائـدـاـ الـاصـلـحـةـ الـعـامـةـ .

سؤال عن معنى الاخاء

كتب كاتب من جهة يسأل عن معنى قول مؤلف هذا الكتاب : « اخواننا المسيحيون » في كتاب « الاسلام روح المدينة » فقلنا في الجواب : خلق الله الخلق من أصل واحد ، وفي وطن واحد ، وعلى دين واحد ، ثم افاقت سنته التكاثر أن ينقرقو في هذه البسيطة ، كل إلى جهة ، فحدث من ذلك تبليل الألسنة ، والاختلاف الجنس النسبي ، والاختلاف في العقائد والأديان . ثم تبع ذلك الاختلاف في الحاكمة تبعاً للرقي البشري ، فأسس الدول وقامت الإمارات وصار لكل قوم دولة وملك ، إلى غير ذلك من وسائل التنافس الذي ينافي به حب استهار الأرض ، فتنتج من كل هذه الاختلافات اختلاط الرايات التي تربط كل جنس بجنسه وأهل كل لغة بأهل لغتهم وأهل كل دين بآبناء دينهم . ورابطة الجنس غير رابطة اللغة ، ورابطة الدين غير رابطة الجنس واللغة ، وكل رابطة غير اختها . وهناك رابطة عامة تربط الناس كلهم برابطة واحدة وهي رابطة الجبلة ، وهي التي عينتها في كلامنا هناك . وبذلك يصح أن نسمي الناس كلهم أخواناً من حيث هذه الرابطة ولا يعنينا من ذلك مانع من شرع أو قانون ، بل الدين قد صرّح بذلك قال رسول الله عليه السلام : « الحلق كلهم عيال الله فأصحابهم أبناء لهم عليه » وقال : « الإنسان أخو الإنسان حب أم كره » .

أما الاخوة التي أردناها في مقدمة كتابنا « الاسلام روح المدينة » فهي غير الاخوة التي وردت في الآية الشرفية ، فإننا أردنا أخوة الجبلة من حيث النظر إلى عموم غير المسلمين ، وآخوة المحبة والوطنية مما من حيث النظر إلى غير المسلمين من الوطنين ، وآخوة الجبلة والوطنية من حيث النظر إلى غير المسلمين الذين هم أخواننا في الجبلة والوطنية . وكل هذا يظهر من سياق كلامنا هناك . وأما الاخوة الواردة في الآية الكريمة « اذا المؤمنون اخوة » فالمراد بها اخوة الدين وهي لا تختص بطنية ولا جنسية .

الرابطة الدينية

أو يوم الحج ال الكبير^(١)

في هذا اليوم المبارك يضم ذلك الجبل العظيم الآلوف المؤلفة من المسلمين ، القاصدين إليه من مشارق الأرض وغارتها .

في هذا اليوم السعيد يجتمع الجميع الحافل بالاقوام المختلفة أجناسهم ، المتباينة لغاتهم ، المتباينة بلادهم . أولئك القوم لم يكونوا ليضموا في مجلل واحد يقصدون وجهة واحدة ، أولاً الدين الذي يضم الشعوب ذوي الاختلاف العظيم في الملة والجنسية والأخلاق والموطن .

في هذا النهار يقف أولئك الأقوام بلباس خاص ، وزعي يتساوى فيه المأمور والامير ، والغني والفقير ، وتلك هي المساواة كل المساواة .

في ذلك الموقف تسمع الأصوات المختلفة بلغات شتى ، والكل يدعونه ويلبون ، يسألون الله التوفيق والنجاح في هذه الدنيا ويوم غد . تراهم في خضوع وخشوع ، وتضرع وفتور ، تائبين إلى الله بما جنوه من الذنب ، تائبين إلى عفوه وكرمه .

هذا اليوم السعيد هو عيد عظيم عند المسلمين ، وكيف لا يجعلونه عيداً أكبر ، وهو اليوم الذي أتم الله عليهم نعمته ، وأكمل لهم دينهم فيه . فقد روى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه « ان رجالاً من اليهود قال يا أمير المؤمنين : آية في كتابكم تقولونها لو خلينا عشر اليهود نزلت لأنخذنا ذلك اليوم عيداً » ، قال أي آية هي ؟ قال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتمت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » فقال عمر قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي عليه السلام وهو قائم يعرفة يوم الجمعة .

(١) نشرناها يوم عرفة

ذلك وليس بمتناقضتين ، بل ان الدين من أقوى العوامل على احياء هذه العاطفة في
نفوس الناس « حب الوطن من الاعيان » .

الرابطة الدينية هي أشبه شيء بروابط العادات: خذ أيّة جمعية شئت تجد أنها تضمّ أعضاء كثيرون، وهي تعمل أملاً غير أن قانونها لا يمنعها أن تشتراك مع الجماعة الوطنية بل ربما أوجب عليها ذلك.

عرف أصحاب الأديان ذلك فوضعوا له نظمات وجعلوا له وسائل . والدين الإسلامي — كسائر الأديان — راعى هذه الرابطة وجعلها مقدسة .

شرع الدين الإسلامي المحافظة على هذه الجامعة الدينية صلاة الجمعة في كل أسبوع ، وصلاة الجمعة في كل يوم تمس مرات ، وفي ذلك من الحكم الباهر قيام يعرفه من درس الاجتماع حق الدرس . غير أن المسلمين تساهلو كثيراً بعدم الحفاظة على أداء الصلوات في جماعة ، غير ناظرين إلى الحكمة من مشروعيتها ، وإن حديث لا صلاة لجأ المسجد إلا في المسجد » أعظم برهان على وجوب شدة الحفاظة على هذه الرابطة .

ولما كان الاجتماع في هذه الأوقات فاشرأ على أبناء البلد الواحد ولغة واحدة
شرع الإسلام إجقاعاً عاماً آخر يغم المسامين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وبلامهم،
وهو الاجتماع في يوم خاص: في اليوم التاسع من ذي الحجة في جبل عرفات والقصد
من ذلك أن يجتمع العربي والتركي والكردي والجركسي والمندى والصيفي وغيرهم
في صعيد واحد، يجدون عهود الآباء، ويعرف كل واحد منهم بتاريخه،
وي넹ون فيها يعود عليهم جميعاً بالخير والنفع.

عرف فائدة ذلك الشريع الاعظم ، فأوجب على المسلمين - من استطاع إلى ذلك سلباً - أن يقصد إلى تلك البقعة من الأرض ويجعل إليها في يوم خاص .

وذلك الاجتماع أشبه بما يسمونه اليوم بالعرض فإنه معرض عام يجتاز إليه
الساخون لتلك الحكمة العظيمة .

غير أن الأمر ويا للأسف قد انعكس، فقد غفل المسلمون عن هذا السر العظيم في

فهذا اليوم هو يوم عظيم لعقد تلك الرابطة الدينية التي هي أعظم الروابط
الاجتماعية المقدسة بلا استثناء.

الروابط الاجتماعية كثيرة ، وأهمها رابطان رابطة الدين ورابطة الوطنية . وقد اختلف الناس في أحياها الأقوى ، غير أن الناقد البصير يحكم بعد أن يفك تفكيره أن الرابطة الدينية هي أقوى الروابط وأشدتها إحكاماً ، ثم تليها رابطة الوطنية وهي رابطة قوية ، صلة عظيمة ، تربط أبناء الوطن على اختلاف أديانهم ولغاتهم بصلة واحدة وهي صلة الوطن ، فيسعون كلهم متلقين متحدين ، ويعملون على ما ينبع بالوطن والامة كلها إلى أعلى درجات الرفق . وليس المراد بالوطن البلد الذي يقطنه الإنسان فقط بل المراد به ما هو أعم من ذلك = المراد بالوطن البلاد التي تربط بصلة واحدة ، وهي صلة الحاكم بالحكومة منها تناولت وأختلف قاطنوها لغة وديناً وجنساً ، وهي صلة عظيمة لو تفك فيها الناس من قبل كما تفكروا بها اليوم .

الرايطة الدينية وما أدرك ما هي؟

هي صلة عظيمة تربط أبناء الدين الواحد مهما اختفت أوطنهم وتبنيت لغاتهم
بصلة واحدة وهي الصلة الدينية . فإن كانت رابطة الوطنية تصل أبناء البلاد المختلفة
الحكومة بحكومة واحدة ، فإن الرابطة الدينية تربط أهل كل دين مهما اختفت
حكوماتهم وتعددت جنسياتهم ولغاتهم بحسب ذلك الدين .

وليس الرابطة الدينية بمانعة من الرابطة الوطنية كما يتوهם البعض ، اللهم ان كانت الرابطة دينية حق ليس فيها عقدة من عند التحصب الاعمى الذي فشا في شرقنا .

أجل ان صلة الدين ليست عقمة في سيل اجتماع أبناء الوطن ، لأن هذه غير

الخرافات والبدع الدينية

جاءنا من بغداد سؤال مطبوع بامضاء «مسلم يطلب الحقيقة» وخلصته: «أن الدين الإسلامي دين مدني يأمر بالترقي ويحث على كل فضيلة . غير انه قد التصقت به بدع وخرافات ليست منه في شيء ، بل هو يتبرأ منها وينكرها أشد الإنكار . لذلك نرى بعض الجياله يقدمون على فعل البدع واعتقاد الخرافات جهلاً منهم وظننا انها من الدين . فإن أرادت إحدى الجرائد والمجلات أن تتصدى لبيان هذه البدع واظهار تلك الخرافات لعلم العوام انها ليست من الدين فينعدوا عنها فهل من أمر يمنع من ذلك ؟ وهل الاولى اظهارها على صفحات الصحف أو السكوت عنها حتى لا يطلع عليها غير المسلم ؟ فنوجو الجواب .

الجواب :

من تأمل في الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وامر العلماء بهداية الناس وإرشادهم ، يحكم بدراهة أن لا مانع شرعاً ولا عقلياً يحظر نشر ما ليس من الدين وتعريف الناس به ليغروا عنه ، وتعريف العامة بأمور يغلوها – وهي ليست من الدين – واجب على كل عالم بآية وسيلة من الوسائل ، سواء بالوعظ في المساجد أو في المجامع أو في أي مكان ، ولما كان أكثر الناس اليوم منهم من لا يصلح أصلاً ومنهم من يصلح في بيته أو حازنته والذين يصلون في المساجد فلائئل ، وجب الخد وسائل غير الوعظ المساند وذلك بنشر الرسائل والكتب والجرائد والمجلات التي تبحث في هذه الموضوعات ، لأنها تكون خير واسطة لبيان الحقائق ، وليس في نشرها خط من شأن الإسلام كإتياتهم بعض السذاج من المسلمين .

نعم ان نشر مثل ذلك في الجرائد سبب لاطلاع غير المسلمين عليه ، ولكن أي مانع من اطلاع الأغيار على أمور ليست من الدين يفعلها المسلمون ؟
ان في اطلاعهم عليها شرفاً للدين ، لأنهم يعرفون بسبب ذلك أنها ليست من

أورووبا تحسندنا على هذا الاجتماع الذي لا يتيسر لهم ، وإن نظرت إلى الحقيقةرأيت أن المجالس النباتية «البرلمانات» نسخة عن هذا الاجتماع . وهو أعظم منها وأجل فائدة لو تدبّر المدبّرون . إن كان «البرلمان» أو مجلس الأمة يضم مئات من الناس ينوبون عن قومهم فإن يوم الحج الأكبر في ذلك الموقف الفائق يضم عشرات الآلاف .

فلنجمل هذا اليوم العظيم واسطة لهذا الاجتماع العظيم الذي يشر الشعارات العظيمة فيجتمع لنا بذلك عيدان : عيد الرقي الصالحي والديني ، وعيد عرفة . فإن فزنا بذلك فنكرون قد خطلوا خطوة عظيمة في سبيل التقدم في الحياة . وعلى الله قصد السبيل .

مدخل ، وفأمس بيته مخالفة المسلمين للدين ولكن تسرع السياح يدعوهم إلى أن يعتقدوا أن هذه الاعمال هي من أمور الدين . وبعضاً غير حق ، بل هو ناشيء عن التصub الأعمى البحث .

لذلك أرى أن لا نقتصر على نشر البدع والخرافات في جرائدنا فقط ، بل يجب أن نشيء جرائد بالاسننة الاوروبية لندافع بها عن الدين ونبين حقيقته وأنه ليس كما يتصورون ، وتوضح بأجلٍ بيان تلك الحشويات والخرافات والبدع التي دسها من لا خلاق لهم في الكتب ، حتى اخذها العامة دينناً جديداً هو غير دين الاسلام . فإن فعلنا ذلك فلنكون قد قمنا بأعظم الواجبات التي يأمرنا بها الدين ومحشنا عليها العقل السليم .

أيظن أولئك السذج ان الاغيار وخصوصاً الاجانب منهم غير معلمين على الخرافات والبدع التي يعتقدوها الجهلة من المسلمين ؟ بل وربك انهم يعلمونها حق العالم ، غير ان منهم من يعتقد أنها ليست من الدين ، وهم قلائل ، ومنهم من يعتقد أنها من اصوله وأساسه المكين ، لذلك قد رمى هذا الفريق الدين الاسلامي بما هو منه بريء ، وسبب ذلك انه اططلع على أعمال المسلمين فظن أنها من دينهم ، فحكم على الاسلام بما ينافيه منافية تامة ، فلو تصدت الجرائد لبيان هذه الخرافات والبدع حتى يقلع عنها الجهلة تكون قد خدمت الاسلام والمسلمين خدمة جعلت .

ان اعمال المسلمين اليوم قد حجبت حقائق الاسلام وسترت محسنه وفضائله حتى يروزه بصورة مشوهة غير حقيقة ، ونعم ما قاله الرصافي في هذا المعنى :

وليس بدين كل ما يفعلونه ولكنه جهل وسوء تقدير
ان ملأوا الأرض الفضاء جرائم فهم أحرموا الدين ليس بغيرهم
ولكنهم في جهنم ليل من العمى تمشوا بطموس العلام مهموم
وقد سلكوا أتياء من أمور دينهم فكم من بدر في المزارات ومتهم

ومقى فهم العامة حقيقة الدين ، ونبذوا الشويات والبدع ، توقع عن وجه الدين الخيف تلك البراق الكثيفة التي تسبح من أحالمهم وغطي بها وجه الاسلام . قال شيخنا الأستاذ الامام الشیخ محمد عبد الله مفتی الدیار الموريۃ رضی الله عنه : « الاسلام محجوب بالمسلمین » أي ان احلالم المخالفة له هي حجاب دون أن يرى انواره ومن اياته الاجنبي عنه .

ان كثيراً من السياح الذين يقصدون إلى بلادنا يكتبون عنها وعن المسلمين أشياء ينفر من سماعها الانسان ، وبعض هذه الاشياء حق لكن ليس الدين فيه

القول والفعل

هذه الوحدة العظيمة التي هي ساقطة فيها ، وانيفوا بها على يفاع العلوم النافعة والصناعات الجليلة .

كنا إذا طلبنا من أحد أن يبذل ماله في سبيل خدمة الوطن : من إنشاء المعامل وترقية الصناعات يقول : أتني لذاك ، والضغط مستولٍ على العقول والافكار ، والقيود محبطة بالأيدي والارجل ، أما الآن فأي عندر لنا بعد أن وفت عننا تلك الأغلال ، وانقضت هاتيك الظلمات؟ أما والله ما لنا من عندر سوى البخل والإهمال والكليل . وقد ظهر ظهور الشمس ان تلك الأقوال لم تكن تتجاوز الشفاه ، وليس مصدرها سوى الإنسان ، وما القلب أفل فتكر فيها قبل ان كنا نفطنا . اي سرور على متولينا لو سعوا الى تأليف شركات صناعية ، ودفعوا جزءاً من اموالهم مساعدة ، فكما كان من ذلك رأس مال عظيم ، يصرفونه في هذه السبيل التي تعود بالمنفعة العامة عليهم وعلى البلاد والهليها .

ان لدينا اموالاً كثيرة ولكن يوزعها رجال منكرون ، وقوم يؤثرون المنفعة العامة على المنفعة الخاصة ، ويبذلون كل ما في وسعهم وطاقتهم لابتهاج البلد وترقيتها ، ولا ينحاج لها إلا بالعلم الصريح والتربية الحق والصناعات النافعة والزراعة التي هم حياة الشعوب والبلاد . فهـى وجد لدينا هؤلاء الرجال واهتمامـوا بما قدمـناه فحدثـ ولا يحرجـ عـاـنـتـالـهـ منـ التـقـدـمـ وـالتـجـاجـ .

لديـنا رـجـالـ فـيهـمـ الصـنـاتـ الطـلـوـبـةـ ، بلـ فـيهـمـ فـوقـ مـاـ نـصـورـهـ مـنـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ الـاعـمـالـ وـالـنـفـكـرـ الذـيـ يـأـقـيـ بالـنـتـائـجـ الطـلـوـبـةـ ، غـيرـ انـهـمـ لاـ يـبـذـلـونـ انـ يـمـهـدوـاـ نـفـوسـهـمـ وـيـتـبـعـوـ اـفـكـارـهـمـ فـيـ ذـلـكـ ، فـهـمـ قـارـكـونـ الـامـرـ لـطـبـعـةـ الـحـالـ . وـانـ وـجـدـ فـيهـمـ مـنـ يـرـيدـ انـ يـخـدمـ وـيـحـبـ انـ يـبـذـلـ الـجـهـدـ فـيـ رـفعـ اـمـتـهـ وـتـشـيـدـ المـدارـسـ وـالـعـامـلـ وـغـيرـ ذـلـكـ لـتـسـتـقـنـيـ عـنـ الـاغـيـارـ ، فـوـ ضـبـقـ ذاتـ الدـفـارـغـ الـجـيـبـ ، وـأـسـ مـالـهـ قـوـهـ وـفـكـرـهـ ، وـاـيـةـ فـائـدـةـ مـنـ القـوـلـ وـالـنـفـكـرـ ، اـذـلـمـ تـعـضـدـهـاـ الـدـنـائـرـ ؟

رـجـالـ الـاقـوـالـ عـنـدـنـاـ كـثـيرـونـ ، غـيرـ انـهـمـ مـقـلسـونـ ، وـمـنـ الـمـالـ خـالـوـنـ ؛ وـفـيـ تحـصـيلـ ماـ يـسـدـ عـوـزـهـمـ يـجـهـدـوـنـ ، وـفـيـ غـيرـ ذـلـكـ لـاـ يـتـكـرـرـونـ، فـهـمـ هـمـ مـعـذـورـونـ؟ بـلـ وـرـبـكـ انـهـمـ لـعـذـورـونـ ، وـإـنـ عـلـوـاـ غـيرـ ذـلـكـ فـرـمـ مـخـطـوـنـ ، وـمـنـ يـقـولـونـ غـيرـ هـذـاـ فـهـمـ لـاـ يـعـقـلـونـ ، اوـ هـمـ عـلـىـ النـاسـ يـوـهـونـ ، فـاتـقـوـ اللـهـ اـجـاـ المسـقـعـونـ ، وـاعـمـلـوـاـ

تمـ الشـهـورـ وـتـنـفـيـ السـنـوـنـ ، وـيجـيـبـاـ بـانـقـضـانـهاـ أـقـوـامـ وـيـدـهـ آـخـرـونـ ، وـالـكـلـ يـصـيـحـونـ ، وـيـقـلـوـنـ فـيـ الـفـوـنـ ، وـفـيـ كـلـ وـادـ مـنـ الـمـوـضـوعـاتـ هـيـمـونـ ، وـفـيـ سـوـهـ حـالـ قـوـمـ يـتـكـرـرـونـ ، وـبـأـعـالـمـ يـنـدـهـونـ ، وـعـاقـبـةـ أـمـرـهـمـ يـنـدـهـونـ ، غـيرـ انـهـمـ عـلـىـ وـقـعـمـ مـاـهـمـ يـهـلاـقـهـمـ ، وـبـهـمـ لـاـ يـخـذـلـهـمـ ، وـبـرـقـيـمـ لـاـ يـعـفـونـ ، وـهـمـ عـلـيـهـمـ يـتـحـرـقـونـ ، وـلـيـلـ نـهـارـ فـيـ ذـلـكـ يـتـكـلـهـونـ ، غـيرـ انـهـمـ يـقـلـوـنـ مـاـ لـاـ يـفـعـلـونـ؛ وـيـقـلـوـنـ مـاـ لـاـ يـقـلـوـنـ ...

كـلـ بـنـاءـ مـحـاجـةـ فـيـ ثـبـوـتـهـ مـلـىـ أـسـاسـ حـكـمـ كـمـ كـانـتـتـ تـنـتـجـ مـنـ الـمـقـدـمـاتـ ، وـأـسـاسـ الفـعلـ الـقـولـ ، وـعـلـىـ هـذـاـ تـقـامـ هـيـاـكـ الـأـفـعـالـ . فـالـقـولـ مـقـدـمـةـ وـالـقـفـلـ نـتـيـجـةـ ، وـلـاـ تـكـوـنـ النـتـيـجـةـ مـرـكـبـةـ مـرـكـبـةـ مـنـ الـهـاـ وـمـعـتـدـلـاـ عـلـيـهـاـ ، إـلـاـ بـعـدـ النـاظـرـ فـيـ صـحـةـ الـمـقـدـمـاتـ ، كـمـ كـلـ لـاـ يـعـبـأـ بـالـمـقـدـمـاتـ إـذـلـمـ تـكـنـ لـاـ نـتـيـجـةـ يـرـتـاحـ إـلـيـهـاـ الـعـقـلـ وـيـسـلـمـ بـهـاـ الـخـارـجـ .

وـاـذـ نـظـرـنـاـ إـلـىـ أـقـوـالـنـاـ وـمـاـ تـحـبـهـ أـقـلـامـ كـتـابـنـاـ بـنـجـدـ اـقـوـالـ اـعـرـاضـ سـيـلةـ تـنـقـضـيـ بـعـدـ النـطقـ بـهـاـ ، وـنـزـىـ اـنـ الـكـتـابـاتـ هـيـ كـمـ كـيـقـولـ مـثـلـ الـعـامـيـ «ـجـبـرـ عـلـىـ وـرـقـ»ـ فـلـاـ نـتـيـجـةـ لـقـولـ اوـ كـتـابـةـ وـلـاـ تـأـثـيرـ لـهـاـ . وـكـلـ مـقـدـمـةـ لـاـ نـتـيـجـةـ هـاـ فـيـ غـيرـ مـعـبـوـهـ بـهـاـ ، فـأـقـوـالـنـاـ وـكـتـابـاتـنـاـ خـالـيـةـ مـنـ الـنـتـيـجـةـ مـعـدـرـمـةـ الـفـائـدـةـ لـأـنـهـاـ لـاـ تـعـدـىـ حدـ الرـخـافـ وـالـتـزوـيقـ ، وـلـاـ يـعـدـ اـصـحـاحـهـاـ لـاـسـتـنـتـاجـ ثـرـاثـهـ وـاسـتـخـراجـ تـنـائـجـهـ ، فـلـهـاـ اـذـنـ ذـلـكـ الـحـكـمـ نـسـهـ .

فـلـنـ فـاطـنـبـنـاـ ، وـخـطـبـنـاـ فـأـجـدـنـاـ ، وـكـتـبـنـاـ حـتـىـ مـلـاـنـاـ الـطـرـوـسـ وـسـوـدـنـاـ صـفـحـاتـ الـجـرـانـ ، وـلـكـنـ اـيـ اـثـرـ اـحـدـثـ تـلـكـ الـحـطـبـ ؟ وـاـيـةـ فـائـدـةـ اـفـادـتـ هـاتـيـكـ الـمـقـالـاتـ هـلـ حـقـمـتـ مـعـمـلـاـ لـحـاجـيـاتـنـاـ ، اوـ اـقـامـتـ هـيـاـكـ لـمـاـ دـهـرـ مـنـ بـجـدـنـاـ ؟ فـأـقـوـالـنـاـ غـيرـ صـادـقـةـ لـكـذـبـ تـنـائـجـهـ ، وـلـاـ يـمـدـقـ اـقـولـ حـتـىـ يـصـدقـ الـعـملـ . دـعـرـنـاـ مـنـ اـقـوـالـ ، وـخـذـنـاـ بـأـيـدـيـنـاـ لـاـ صـالـحـ الـاعـمـالـ ، وـانـهـضـوـاـ بـالـأـمـةـ مـنـ

على تشبيه المعامل وانشاء المدارس فإنكم اذن لما حاولون، فالله يطالعكم والناس ، وان احتجتم إلى آراء المقلسين واقوالم فادفعوا اليهم ما يستعنون به على سد ما يقتضاهم من امور المعيشة وهم يدعونكم بالآراء ، وبذلك يتم التعاون ويحصل الاتصال » وتعاونوا على البر والتقوى .

واما إن بقينا نحن الآن : اقوال بلا اعمال فعلينا السلام . فانقوا الله ايهما القادر على انجاح الوطن ، المشدودون في كل مجلس بما يلزمنا من الاصلاحات التي لا يتم عمل بدورها . ابدوا جهداً ، وافتحوا خزانتكم ، وازرعوا اليورانكم في هذه الارض فتعود عليكم وعلى ابناء وطنكم المحبوب بالربيع المُزيل والخير العظيم .

اراكم تظرون الي ايهما الخطباء والشعراء والكتاب شرزاً ، وترمدوني بعين الانتقاد ، ثم اراكم فانية اجمعتم رايك قائلين لي : «الستَّ مَا ؟ اما خطبتك كخطبنا اما كتبت ككتبنا ؟ اما نظمت كنظمنا ؟

- بلي ايهما الاخوان . وما ادراكم اني استثنىت نفسي من مجموعكم وبرأتها بما نسبتي اليكم » « وما أبرىء نفسي ان النفس لأمرة بالسوء الا من رحم ربِّي » .

ورب قائل : ان المتكلم لا يدخل في عوام كلامه ، كما قررت ذلك علماء الاصول ، فأقول : انه لا يدخل وجوباً بل يجوز دخوله وعدم دخوله . وانا داين في باب الجواز . وقد جزت هذا الجواز .

فسددوا رحمة الله الافلام ، وأشرعوا في وجوه الطروش اليراع ، وقاوموا في سبيل الاحلاط الحقيقى كل معاند ومانع ، وحرموا التموين على بذل الاموال في انشاء المعامل ، واجداد الوسائل التي تغنى الوطن عن الانغير ، ونرفع من قلوبنا كل خلق يدعونا الى أن نكتب ما لا نعتقد ، وبحملنا على عدم الاعتراف بالخطآن صدر من أحدهنا . هنا القصد من الكلام والخطابة والكتابة إلا احقاق الحق لعرف ، وابطال الباطل لينبذ . ولنجعل أقوالنا عنواناً لأفعالنا . واعمالنا مصداقاً لاقوالنا ، إذ لا يصدق القول حتى يصدق العمل . والسلام على من يقول الحق ويعمل به ، ويسعى بكل ما في وسعه خدمة أمته ووطنه . ولا سلام على من يقدم الغاية الشخصية التي تضر بالمجتمع على المنفعة العامة .

والملاصقة انما تحتاج الى قول فعل ، فالعمل العمل العمل .

التعليم الديني والعلمي

العلم عالمان : علم الدين وعلم الدنيا ، وكلاهما لا زمان للانسان ليكون سعيداً في الدارين وقد حدث الدين عليها معاً ، فمن طلب أحدهما دون الآخر فقد قصر في الأمر الذي تركه .

والناس اليوم على أقسام ثلاثة : طالب علم الآخرة فقط ، وطالب علم الدنيا لا غير ، ورجل لا في العير ولا في التفير ، وهو شر الثلاثة .

فن طلب علم الآخرة وترك علم الدنيا زاعماً ان طلبه محروم فهو غير جاهل ، لم يدرك من حقيقة الدين شيئاً ، وقد اخرَّ بسمعة الدين ، وهؤلاء هم رهط كثير ، تحسبيهم أيقاظاً وهم رقود ، وتخالهم أحياه وهم أموات .

ومن طلب علم الدنيا بجرأة عن الدين مدعياً أن الدين عقبة في سبيل المدنية فيجب أن يطرح جانباً فقد أخطأ الرمي وحاد عن السبيل القوية ، لأن الدين مصدر الأخلاق الفاضلة والآداب السامية ، وكل قوم تحردوا عن الدين فقد اسلخوا عن المدينة الحق ، وتجردوا عنخلق الكريم ، وان ادعوا أن ما يتعلمونه كاف لتهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق فهي دعوى يكذبها العين ، وينافضها البرهان ، لأن الابتعاد عن المذكرات وسافل الأخلاق لا تكون إلا ساق الدين الذي يحمل الانسان على الاعتقاد بأن له يوماً يدان فيه على أعماله ان خيراً فخير وان شرًا فشر» وكم قدر أيقاف هؤلاء المدعين قواماً قيائمهنوا في الشهور وسبحوا في المذكرات ، حيث لا رقيب عليهم ولا مشاهد لأعمالهم ، وكم يذهبون ما يأتون جهاراً غير مبالين بانتقاد ، ولا عابدين بالجماعات والأفراد ، وإن لاحت لهم منفعة شخصية سعوا إليها سعيها ، وحثوا ركائب جدهم حتى يحصلوا بها ، ولو أضرت بمجموع الأمة ، وأن وجد بينهم من لا يميل إلى ما يميلون ، ولا يفعل ما يتعللون ، فهم نفر قليل لم يرل تعاليم الدين مؤثرة في نفوسهم ، فهم مسوقون بساق الدين دون أن يشعروا ، ومشوشون في سبيله وان لم يقهوا .

قد أخطأ هؤلاء الزاعمون ان الدين غير المدنية وانه حاجز دون ترقى الام ، ولو تفقهوا في الدين لعلموا انه المرشد للمرء إلى ما فيه سعادة الدارين . فالدين هو الفائق

لنفع الناس على اختلاف اجناسهم وأديانهم ولغاتهم ، لأن من مبادئ الدين أن الناس كلهم اخوان في الانسانية وأبناء أسرة واحدة كلامه : « الخلق كلهم عيال الله وأحبابه إليه أنفسهم لعياله » .

ان الدين يعلم الانسان ان يكون اخاً للانسان ، يتعاون واباه على شؤون الحياة وما فيه الخير العام ، ويربيه على حب الفضيلة وصناعة المعروف والتجازف عن الذنب ، الى غير ذلك مما يجعل الناس في عيش رغيد وحياة هنية .

ولا يجوز أن تنظر الى اعمال بعض المتنسبين الى الدين اليوم ، وتختذلهم حجة على الدين ، فان الدين غير رجاله » وما كل من تنسن الى الدين متدين ، بل الدين هو تلك الجوهرة النفيسة ، والروح الطاهرة ، والمبدأ السامي ، والمعنى القدس ، الذي ما تجلى على قلب ، ولا حل في قزاد ، الا ظهره من جميع الكبدورات مونقاء من كل العنفات .

أجل أنها الناقون على الدين ، لا تتظرون الى عمل رجاله ، واظروا الى حقائقه وجوهره ، فليس فيه ما يخالف المدنية ، ولا ما يحول دونكم ودون ما تطلبون من التقدم ، بل كل آيات بنات ، وعلائم واضحات ، ترشدكم الى السعي والاجتهد حتى تكونوا في أعلى درجة التمدن والفلاح . وليس من دليل أولى على ذلك الا تتظروا في علامه وآياته ، وتقهوموا مهامين جمله وكلماته ، فان فيها ما يدفع كل منكر بما يورده من الكلام الحاث على السعي ، لتكون الامة في أوج الفلي وذروة الترقى .

فإن شتم الفلاح فاهتدوا بهديه ، واعتصموا بعروته ، ومسكوا بأوامره ونواهيه ، واملوا بما تضمنه تكونوا من الناجحين .

سلام على من يقول الحق ويندعون اليه ، ويعمل لتكون أمته خير الامم ترقى وتحجا ، وعظمة وشرف ، فان ذلك هو الرجل كل الرجل ، وعليه يتوقف مستقبل الامة وتبني شعماة فخرها .

فهياوا الى السباق ايا الشبان ، واجعلوا العلم المهدى الذي اليه ترمون ، والغاية التي اليها تستبون ، ولكن الدين منواركم الذي به ترشدون ، ونجكم الذي به تهتدون ، لتسالوا ما ترجون ، وتحظوا بما تبتغون ، وانا لنتائج اعمالكم متظرون ، فهل انتم لرجائنا محققون ؟؟

على لسان أبيبياته ورسله : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك متوف غداً » وهو القائل : « أطلب العلم ولو بالصين » وهو القائل : « وقلبي زدي علاماً » وهو القائل : « الناس عالم أو متعلم ولا يخيرا فيها بينهما » وهو القائل : « ليس مني الا علم أو متعلم »

والعلم لفظ عام يقع تحته كل ما يسمى علمًا على شرط أن يكون منهفائدة للانسان تتفقه في دنياه أو تعلي شأنه في آخرته . وقد بحثنا في تاريخ عمالتنا الماضين فرأينا ان كثيراً منهم كانوا جامعين بين علمي الآخرة وال الاولى ، وان من كان يدرس علم احد اهلاها يجلس الى جانبه من يدرس علم الثانية . ولم يكنوا ينكرون شيئاً من ذلك ، لأنهم كانوا يعلمون ان المرء في حاجة الى العلوم كلها ، وان الدين لا يحول دون ذلك ، بل يحث عليه حثاً ، لتكون الامة معززة الجانب ، مبنية على حمية الافت ، مرهوبة السطوة . على ذلك درج العلماء السابقون ، وهذه آثارهم شاهدة عليهم ، ودالة على ما كان لديهم من السماحة ، وما كان عندهم من العقل الراجح . ثم خلف من بعدهم خلف لم يدركوا شاؤهم ، فظنوا أن الدين قاصر على مباحث معلومة وغضول مشهورة ، وانه لا يجوز لأحد أن يتعلم سواها ، بدعاوى انها هي الدين كله ، ألا ساء ما يفترون .

الامة فيها غير لم ترق الا بالعلم والمسلك بمحال الدين الصحيح الحالى عن شوائب المتنطعين ، والمتخرج من خرافات المتأخرین . فإن شاعت الامة اليوم ان ترجع بجهداتها السابقة عليها باقىاع سلطتها الصالحة ، وذلك بأن تسمى الى النهوض من طريق الدين والعلم حتى تجاري الامم الرافقة اليوم . فاعلم يعلها ، والدين يديها ، ويحفظ عليها أخلاقها ومبادئها ، ويكون لها المنار الانور ، والطريق الالاحب ، والمنهج الاسد .

نحن في حاجة الى العلم شديدة لتسير مع من سبقنا في سبيل واحدة ، كما اننا في حاجة أشد لصيانته الاخلاق وتسويتها بكلمات الدين حتى لا يدمى عليها دامر من خلق سافل او شهوة دنيئة ، فيستشرى فيها الفساد وتهدمها معها معاول الحوائط النفسية .

فلنجتهد بغرس اغراض الاخلاق الدينية مع العلم في نفوس الطالبين ، حتى يشبرا وقد أصاروا من علمي الدين والدنيا المرام .

فالدين لعلم كالدعائم للقصر ، خصوصاً اذا ارتعضه الانسان منذ الصغر خالياً من كل شائبة ، ثانية عن كل بدعة ، فيخرج وقد امتلاً فؤاده حمية لوطنه ، وجبا

ولو تأمل نساؤنا بعاقبة هذا الأمر ، وتفكرن في مغبة هذه الحال ، لرجعن عن هذا الميل الملك الذي يقوض العيشة الحفنة ، ويجلب علمنا وعلى بيتهن الجرائم المعدية ؛ والامراض الاخلاقية المعضلة .

أي حرج على المرأة لو نظرت إلى ما تقتضيه حال زوجها فرمته بعين الرحمة وعاشت معه على حسب حالته ، من قاتحة البال ، ناعمة الحال ، لا يشوب عيشهما كدر ولا يخالط قلبها هم ولا حزن . أتفطن أن ذلك يزري بها عند أقرانها ؟ أو يسقط منزلتها عند جيرانها رصواحها ؟ كلا والله ان كانت من العاقلات الفاضلات ، لأن الإنسان ليس بزبه يعلو ولا بشيابه يُسفل . على أنها ان خافت ازدراء النساء بها ان لبست كما تقتضيه حال زوجها ، فلا ينبغي لها أن تلقي من بالا ، أو تسمع لهن مقاولا ، وقد أمرها الله تعالى كما أمر الرجل بالاقتصاد وعدم التبذير ، وذلك مقدمة السعادة في الدنيا والآخرة .

أي حرج على هؤلاء النساء الغنيات المسرفات في أموال أزواجهن على غير جدوى ، لو اقتضى من ذلك المال الطائل ، ودفعتهن إلى الفقيرات من جنسهن اللطيف ، ليستعن به على العيش وسد عوز الحياة ؟ بل أي حرج عليهم ان لم ينخرن على سوانح ومحققنون غيرهن ان كن لابسات ثياباً أدنى من ثيابهن ؟ أياطن أن ليس الشباب والقطاول والتجبر فزيدهن احتراماً في نفوس جنسهن أو يكبسن وقاراً في أعينهن ؟ كلا بل ان الامر على عكس ذلك ، كما هو المشاهد والمأخذ بالقياس . فليترين الله وليرحمن هؤلاء الفقيرات اللاتي لا يملأن أزواجاً الكفاف من العيش .

على ان ذلك الامر قد دعا كثيراً من الشبان الى تفضيل الغزوية على الزوج تخلصاً من مخالب ما يلزم الزوج في هذا العصر مما لا ينطبق على أصل من أصول الاقتصاد ، وتفصيلاً من أن ينوه تحت ذلك العباء الثقيل ، ألا وهو بذل الاموال طائلاً في سبيل مطالبات الزوجة ، وان يكن أكثرها لا يجوزه عقل أو دين . أخف

أمرأة والتقليل

لا ريب عند من خبر جزءاً من أحوال المرأة ان الآية والطاول على الأقران قد وجدا في صدرها متسعأً رجباً ومستباحاً سهلاً ، فهي تعى كل حياتها إلى ما يجعلها في نظر أقرانها مثلاً لظاهر الترف ، وأنوفها مطالع الترف ، ولو كان ذلك من افضل الوسائل لاذهاب ثروة زوجها وجعله فارغ الحبيب ، صفر اليدين ، فلما زبياً من الأزياء الجديدة إلا بذلتُ سعها ، وصرفت مجدها ، حتى تحصل على مقصودها وتتأمل موعدها ، وهكذا كلما ظهرت (موضة من الموض) وربما لم يضر على (الموضة) الاولي وقتها كافٍ لبلوغ ما يخطئه على ذلك (الطرز) فهي تترك هذه الثياب كلها وتحملها في زوايا الاهمال ، بداعي ان هذه (موضة) تنسخ وزرها بطل ، وتجتمع بعيلها الغريب لأن تحيط ثياباً على مقتني (الموضة) الجديدة .

ويا ليت هذا الأمر فاصر على غنيات النساء ومن عندهن أو عند أزواجهن أو أولئك القناطير من الذهب والفضة ، بل قد تناول الوسط من الناس فاجتاز أموالهم ، وأصاب الفقراء فأتوذل بها البلايا وسوء العشرة مع الأزواج .

أي حرب يحيى المرأة على نفسه ان لم يطلع زوجه بما تزيد أن تصنفه من الثياب الفاخرة التي تودي به وبهال ان كان من المتوضطين ، وتلجهه الى اكتساب المال من مهارش⁽¹⁾ ان كان من القراء . فلاتسل يا صاح عما ينشأ بين الزوجين من القطيعة بعد التواصل وسوء العشرة المفضي إلى فساد البيوت واستئصال شأفة الأخلاق الصالحة ، وقتل جرائم التربية الحق فتنشأ أولادهما على ما تقترب عليه . كل ذلك بفضل التقليد الاعمى وعدم لزوم الانسان حده ، ووقفه عنده .

(1) الماوش : كل مال اصحابه الانسان من غير حله

إلى ذلك ما يتفاني الناس به من وفرة مهور النساء ، رغبة في التماخر .
بأن تكون المرأة كالرجل وإن اخْتَلَطَ الْحَسَابُ بِالنَّابِلِ ... إلى غير ذلك من
الزهارات .

نعم لو اقتصر على المطالبة بتعليم المرأة وتهذيبها لكن نعم الصنيع ما صنع .
على أن ذلك موضوع واسع قد استوفى الكلام فيه من تصدى للرد عليهم وفي
جملتهم كاتب هذه السطور في كتابه «الإسلام روح المدينة» .

وهي الجملة فإن سعادة الحياة متوقفة على المرأة فيجب أن تحسن تربيتها لخرج
لنا رجالاً يقتصر بهم الدهر ، وتقرب بهم عين الزمان ، والافلامأة غير ملومة اذا لم
يقم أولياؤها بشؤون تهذيبها وتعليمها والسلام .

رويدك يا قلم فأحجم عن لوم المرأة واعرف السبب الذي دعاما إلى التطهار ،
ووجه إليه سهام اللوم والانتقاد . لم تعلم أنه إذا اجتمع الفاعل والمتسبب يضاف
الحيم إلى المتسبب .

من السبب في تعasse حال المرأة ؟ هو الرجل ولو لا الرجل لكان المرأة في
أعلى درجات الكمال ، لأن الله تعالى جعله مسيطرًا عليها ، مراقباً لها و وكل اليه
أمر تهذيبها و تعليمها ، وأخاف اليه تقديرها و اهتمامها .

ظن قوم ان السيطرة على المرأة تنبعها حقوقها التي فرضها الله لها ، وظنوا أن
ذلك مما لا ينبغي المرأة أن تناهه جهلاً منهم بأحكام الدين وطرق التهذيب ، فاستعملوا
المرأة آلة وسلبوها ما لها من الواجبات ، وأكلوا أمها بالباطل إن كان لها مال ،
ولم يهموا أن المرأة خلقت لأن على من ذلك ، لأن عليها سعادة الحياة ومدار رقيها ،
وبها الشقاء والتعاسة ، فكان عملهم هذا داعية الشقاء ، وواسطة الغاء ، لاصحهم
تعليمها وتهذيبها ، وارشادها إلى ما تأمر به العقول الصحيحة ، والشرائع الحق ،
ليظهر قلبهما من الطمع والحسد وحب الإباء ، وتقبل إلى ما ينفع زوجها وأولادها
وأهلها ، وذواتها وأمها .

وهناك قوم تطرفوا ووقفوا على شفاعة حرف هار ، ورفعوا المرأة بما منحتها
إيه طبيعتها ، وساووها بالرجل من كل الوجوه بل رفعوها عليه ، وان كان جسمها
وعقلها لا يساعدانها على ذلك ولكنهم عرفوا مغبة هذا التطرف حتى نساء الغرب
وأمريكا انفسهن ، فقمن يدعين بذلك ويطلبون ان يسرن كما قاتل طبيعتهن . وان
كان بعضنا لم ينزل مصرآ على مجهورته بأفكاره نحوها فهو لم ينزل هو وامثاله يطالبون



فهرست الكتاب



الصفحة	الصفحة
٣	اهداء الكتاب
٥	المقدمة
٧	نحو البلاغة
٢٥	إيا الإنسان
٢٦	قطع الرجال ام فحط وجدان
٢٨	الي الامة العربية
٣٠	التربية اساس النجاح
٤٢	الافانية وحب الذات
٤٩	رجال الاصلاح
٥٤	الارادة
٥٨	الاقلاب والرقب
٦٠	حديث مع النابة
٦٦	الانتقاد ومشاريع المتقدين
٦٩	سعادة الحياة
١٠٥	دلائل التوحيد
١٠٧	ام القرى
١٠٨	المال والشرف
١٠	العادات
١١	الميسير
١١٣	الاستغلال الشخخي
١٢٠	القابلية والتفاعلية
١٢٥	النظمات والأمم
١٢٨	الثورة الأدبية
١٣٣	السل الاجتماعي
١٤٢	سؤال عن معنى الاخاء
١٤٣	الرابطة الدينية
١٤٧	الخرافات والبدع الدينية
١٥٠	القول والفعل
١٥٣	التعليم الديني والعلمي
١٥٦	المرأة والتقليد